



رحلة سبعة وستين عامًا

من أعمال:

سلمان ناطور









رحلة سبعة وستين عامًا



من أعمال:
سلمان ناطور



رحلة سبعة وستين عامًا



من أعمال:
سلمان ناطور

اسم المؤلف: سلمان ناطور

اسم الكتاب: رحلة سبعة وستين عامًا (مختارات من أعمال سلمان ناطور)

سنة الإصدار : (2017) الطبعة الأولى

منشورات: وزارة الثقافة الفلسطينية

صدر بالتعاون مع مركز مساواة وعائلة الراحل سلمان ناطور

تصميم ومونتاج: وزارة الثقافة

صورة الغلاف: من أعمال الفنانة ندى ناطور

مراجعة وتدقيق: د. نهى عفونة العايدي وأ. فؤاد عبيد

البيرة - فلسطين

هاتف 9702413859++/ فاكس 9702413852++

www.moc.pna.ps

الإدارة العامة للآداب والنشر والمكتبات



رحلة سبعة وستين عامًا



من أعمال:
سلمان ناطور



المحتوى



مدخل

مسيرة أدبيّة وسياسيّة ومِهْنيّة ناصعة

ولد سلمان ناطور عام 1949 في قرية دالية الكرمل، وهو المكان الذي اختار أن يعيش ويبدع ويموت فيه، مردداً مقولته: «لا يمكن أنْ يخرج نبيٌّ إلا من بلده». ولهذا، كان لتكريمه من قبل المجلس المحلي في دالية الكرمل، يوم 25.5.2015، وقعٌ خاصٌّ في قلبه، إذ رأى اخيراً بلده وأهله يعترفون بمواقفه السّياسيّة وبقدراته الإبداعيّة بعد سنوات من التّجاهل، بسبب مواقفه السّياسيّة والإبداعيّة الجريئة ونقده موافقة بعض مشايخ الطّائفة تجنيد شباب الطّائفة الدّرزيّة في الجيش الإسرائيليّ. في هذا الحفل التّكريميّ كان التّأثّر باديًا على سلمان، وقد فاق تأثره يوم اختياره كأحد أفضل المسرحيّين العرب في الشّارقة، أو عند تكريمه في مواقع مختلفة عدّة. لقد كان لتكريمه على منصّة دالية الكرمل مذاقٌ خاصٌّ لا يُضاهى.

أنهى دراسته في المدرسة الثّانويّة (أ) في مدينة حيفا، ثمّ عاد إلى مدرسته في كتابه «دائرة الطّباشير الفلسطينيّة»، الذي صدر عام 1993، عندما وضع صورة تخرّجه أمامه على طاولته وتحاور من خلالها حول تعثّر عمليّة السّلام والحياة اليهوديّة العربيّة ومستقبل الشّعبين. وكان قد أقام هذه المدرسة رئيس بلديّة حيفا «أبا حوشي»، لتكون مختبرًا للتّعايش بين اليهود والعرب. لاحقًا، قامت بلديّة حيفا بإغلاق هذه التجربة دون أن تعلن فشل هذا الاختبار أو نجاحه. وكتب سلمان ناطور في «دائرة الطّباشير الفلسطينيّة»: «يصعب عليّ أن أنظر إلى الصّورة، إلى أبناء جيلي من الشّبان اليهود وأفكّر بمَن قُتل منهم في إحدى الحروب أو المعارك، يصعب عليّ أن أتصوّر ابني بعد سنوات ينظر إلى صورة أبناء صفّه التّذكاريّة ويفكّر بمَن قُتِل منهم في إحدى الحروب أو المعارك». ثمّ أضاف في جملة فلسفيّة: «إنّ من يرفض إتمام دورات تاريخيّة سيترك كلّ شيء عرضةً لرياح عاصفة وجامحة».

واصل دراسته الجامعيّة في مادّة الفلسفة في جامعة القدس ثمّ في جامعة حيفا. درس الفلسفة العامّة ولخّص تجربته الدراسيّة كما يلي: «اكتشفتُ فيما بعد أنّ الفلسفة لم تقدِّمْ لي إجابات شافية، على العكس تماماً، أضافتْ لي أسئلة أخرى». ثمّ أضاف: «أريد أن تبقى الفلسفة بالنسبة لي كما أعرفها، وهي نظريّة الحياة، نظريّة الموت، نظريّة النّفس، هي النّظريّات المتعلّقة في رؤيا الإنسان لواقعه، وهذا هو الأدب أيضًا». وكتب في سياق آخر: «أنا أدركتُ تماماً أنّني ذاهب في اتّجاه المزج بين الفلسفة والأدب، النّصوص التي أكتبها تطرح الكثير من القضايا الفلسفيّة حتى عندما أكتب في السّياسة والمواضيع الاجتماعيّة».

عمل في الصّحافة منذ عام 1968 حتى 1990، وقد حرّر الملحق الثّقافيّ في جريدة الاتّحاد الحيفاويّة ومجلّة الجديد الثّقافيّة، وقد نشر في «الجديد» الكثير من نصوصه الأدبيّة التي صدرتْ لاحقًا في كتبٍ، أبرزها «وما نسينا».

ضمن حملة التّضامن مع إضراب أهل الجولان المحتلّ، تمّ اختيار سلمان ناطور عام 1982 سكرتيرًا للجنة التّضامن مع أهل الجولان السّوريّ المحتلّ، وقد عمل على بناء حركة تضامن عربيّة ويهوديّة ضد فرض الهُويّات ومحاصرة الجولان. دفع ثمن هذا المنصب على شكل أوامر إقامة جبرية ومنع دخوله إلى المناطق المحتلة. نرفق في هذا الكتاب صورًا لهذه الأوامر العسكرية التي صدرت ضدّه.

أسّس عام 1986 «لجنة المبدعين الإسرائيليّين والفلسطينيّين ضدّ الاحتلال» ونشط في السّجالات والمحاورات السّياسيّة طيلة مسيرته السّياسيّة والأدبيّة، دون أن يتنازل عن روايته ومواقفه من الحلّ السّياسيّ للمصالحة بين الشّعبين.

في أعقاب التقليصات التي عصفت بصحيفة الاتحاد وقرار الحزب الشّيوعي إغلاق ملحق «الجديد»، الذي صدر لأوّل مرّة عام 1951، نشط في عدّة مؤسّسات، منها مؤسّسة «تامر»، التي أصدرت خلال فترة عمله معها عدداً من الكتب التّعليميّة التي استهدفت الشباب الفلسطيني. كما حاضر في مواضيع الثّقافة الفلسطينيّة، ثمّ تسلّم مهامّ تحرير مجلّة «قضايا إسرائيليّة» الصّادرة عن المركز الفلسطينيّ للدّراسات الإسرائيليّة في رام الله.

أصدرت مؤسّسات فلسطينيّة مختلفة عدداً من كتبه، ومن بينها مؤسّسة «تامر للتّعليم المجتمعيّ» ومؤسّسة «بديل- المركز الفلسطينيّ لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين».

كان سلمان ناطور من مؤسّسي جمعيّة «إعلام»، واستقال من إدارتها ليدير معهد إميل توما، إلى جانب حايا توما، زوجة المفكّر والمؤرّخ إميل توما، الذي ربطته به صداقة عميقة وزمالة امتدّت سنوات طويلة عندما عمل إلى جانبه في «الاتحاد» و«الجديد». كان إميل توما من أكثر المتابعين لأعمال سلمان ناطور، وقد كتب عددًا من المقدّمات الهامّة لكتبه الأولى.

بادر خلال عام 2010 إلى بلورة مشروع «الثّقافة الفلسطينية - حقوق وفضاءات» الذي عمل على إعادة الثّقافة إلى الحيّز العامّ والشّعبيّ. سعى هذا المشروع الذي انطلق من مركز «مساواة» إلى تطوير الثّقافة الفلسطينيّة في الدّاخل وربطها بالثّقافة الفلسطينيّة في الخارج. وقد حدّد «ثلاثة فضاءات لثقافتنا الفلسطينيّة؛ أوّلاً: الفضاء الفلسطينيّ - نعتبر أنّنا جزء لا يتجزّأ من الثّقافة الفلسطينيّة، ولا نتحدّث عن تواصل بالثّقافة، إنّما عن وحدة الثّقافة الفلسطينيّة، نحن ثقافة واحدة هنا وفي الضّفّة وفي غزّة وفي الشّتات.

«**ثانيًا**: الفضاء العربي من المحيط إلى الخليج - نحن جزء من الفضاء الثّقافيّ العربيّ، هذا فضاؤنا وكلّ ما يطرح من قضايا مواطنتنا وحملنا للهويّة الإسرائيليّة، لا علاقة بنا بهذا الطّرح أمام الفضاء العربيّ، على العالم العربيّ أن يرى فينا جزءًا فاعلاً في الثّقافة العربيّة بشكل عامّ، ونستطيع أن نقدّم له الكثير.

«**ثالثا**: الفضاء الكونيّ - نحن نعتبر أنّ الثّقافة الفلسطينيّة في الدّاخل تستطيع أن تساهم في بناء ثقافة للبشريّة كلّها، ومن هنا تجب ترجمة كتبنا وأدبنا ومسرحنا، ويجب أن تعرض هذه الثّقافة في كلّ مكان في العالم، إلى جانب أهمّيّة عرضها هنا في الدّاخل. العقليّة يجب أن تكون عقليّة منفتحة ولا نريدها شفقة من أحدٍ ولا حسنة، بل هو حقّ يمكننا من مواصلة عطائنا الثّقافيّ بشكل أرقى وأغنى...».

كما أدار معهد إميل توما للدّراسات الفلسطينيّة الإسرائيلية القائم في حيفا، وشارك في تأسيس عدد من المؤسّسات العربية وإدارتها، من بينها: الرئيس الأوّل لاتّحاد الكتاب العرب، وجمعيّة تطوير الموسيقى العربيّة، ورئيس حلقة المبدعين العرب واليهود ضدّ الاحتلال ومن أجل السّلام العادل، وعضو إدارة مركز عدالة، وكان مركز مساواة محطّته المهنيّة الأخيرة قبل وفاته إثر أزمة قلبيّة حادّة ومفاجئة.

علاقته مع العمل الحزبيّ المنظّم:

انضمّ سلمان ناطور رسميًّا إلى العمل الحزبيّ عام 1978 بعد أن «اعتقِل تعسّفًا وإرهابًا في زنزانة بسجن الجلمة في محاولة لردعه عن السّير في طريق النّضال ضدّ سياسة التّمييز العنصريّ والاحتلال والحرب والتّجنيد الإجباريّ المفروض على أبناء الطّائفة العربيّة الدّرزيّة».

ترك العمل الحزبيّ في أعقاب انهيار الاتّحاد السّوفييتيّ، لكنّه لم يُعادِ الحزب والجبهة، فجمّد عضويّته إلا أنّه لم يتوانَ عن دعم الجبهة في معاركها الانتخابيّة.

قدّم عام 2008 طلب تجديد عضويّته في الحزب الشّيوعيّ، ولكنّه لم يُجدّد نشاطه في مؤسّسات الحزب والجبهة.

ويلحظ المتابع لفكر سلمان ناطور أنّه بدأ في السّنوات الأخيرة قبل وفاته في التّشكيك في «حلّ الدّولتين»، وناقش فكرة الدّولة الواحدة للشّعبين في العديد من الأطر الفكريّة والسّياسيّة. وقد ردّد في إحدى النّدوات: «وظيفة المثقّف أن يفكّر ويناقش طروحات، ووظيفة السّياسيّ إيجاد الحلول الأفضل الممكنة». تخطّى الأطر الحزبيّة وتعامل مع المثقّفين كافةً من التيّارات المختلفة، وبتفاوت أجيالهم، كأصدقاء وزملاء، ودمجهم في أعماله ونشاطاته بمحبّة ومهنيّة.

يمكن اعتبار إغلاق مؤسّسات الحزب الشّيوعيّ الثّقافيّة أقسى صفعة للمثقّفين الكبار الذين احتضنهم الحزب، من أمثال إميل حبيبي وسالم جبران وسلمان ناطور وسميح القاسم. حيث تلتقي حتى اليوم مع أدباء فلسطينيّين كانوا يحضرون خصّيصًا إلى مدينة حيفا للقاء هؤلاء المبدعين والاستفادة من تجربتهم وسماع رأيهم في كتاباتهم. وقد رعى سلمان ناطور في السنوات الأخيرة مجلّة «الغد الجديد» التي لا تزال تصدر وتغطّي المشهد الثّقافيّ الفلسطينيّ. أعرب ناطور عن خيبة أمله من إغلاق المجلات الأدبيّة التي صدرت مثل «الكرمل- أبحاث في اللغة والأدب»، «الأسوار للأبحاث الفكريّة والثّقافة الوطنيّة» و«مشارف» التي حرّرها الكاتب إميل حبيبي وأصدرها عن «دار عربسك» بعد أن ترك العمل الحزبيّ.

أعماله وإصداراته:

وجدتُ نفسي بعد وفاة الكاتب سلمان ناطور أقوم بمراجعة ثانية لكتبه وإصداراته وأعماله. رافقتُ سلمان ناطور خلال السّنوات الخمس الأخيرة في مركز مساواة، ولكنني نشأتُ على كتب سلمان ناطور التي صدرت منذ عام 1971، وحصل لي أن قدّمتُ كتبه كهدايا لأصدقاء، أو تلقّيتُها كهدايا أيضًا. لكنكَ حين تقرأ مجموعته الكاملة بتواصلٍ تلحظ التّطوّر والتّغيّر السّياسيّ والفكريّ والأدبيّ اللذين مرّ بهما هذا الأديب الرّائع.

وتكتشف خلال مراجعة كتاباته أنّ أولى محاولاته الأدبيّة كانت في الشّعر، وقد اعتزل الشّعر في المدرسة بعد أن وبّخه مدير مدرسته على كتابته الغزليّة. لاحقًا، أصدر أوّل كتبه في مواضيع فلسفيّة، ثمّ كان الصّحفيّ والمعلّم والمرشد والأديب والمسرحيّ، كما لم يتردّد، في السّنوات الأخيرة، في اعتلاء منصّة المسرح لتمثيل نصّه. فمن يرافق مسيرته يلاحظ شغفه بالحياة الثّقافيّة بمختلف أشكالها. لقد وقف على المسرح وقدّم مسرحيّته «ذاكرة»، ثمّ عاد وطوّرها كعمل مسرحيّ بالتّعاون مع صديقه الممثّل والمخرج أديب جهشان. هناك من قابله على المسرح وهو يروى قصص الذّاكرة الفلسطينيّة، لكنّه قرّر أن يقف في آخر أعماله بنفسه على المسرح ليقدّم الشّهادات التي جمعها في مونودراما.

تكرّمتْ عائلته بتوفير نسختها الوحيدة من كتبه لمراجعتها وتخطيط اصدار ثانٍ لجزء منها. وخلال المراجعة المثيرة وجدتُ نفسي أراجع مقالات هامّة كتبتْ عن الأدب الفلسطينيّ في مراحل مختلفة، ومن بينها تلك المقدّمات التي كتبها إميل توما وعزّ الدّين المناصرة لبعض كتب سلمان ناطور.

إلتزم سلمان نشر كتبه من خلال دور النشر المحلّيّة لأسباب وطنيّة وسياسيّة تتعلّق بالتزامه الحزبيّ، وبسبب تحفظ دور النّشر العربيّة والعالميّة من مضامين كتبه، خصوصًا تلك التي انتقدت الأنظمة العربيّة بشدّة. إنّ ناطور الذي رفض على مدى سنوات طويلة زيارة مصر رافضاً التطبيع وموثقاً الذّاكرة الفلسطينيّة، لم يتردّد في محاورة الأدباء اليهود وقيادتهم إلى تحرّك سياسيّ مناهض للاحتلال. لقد كان من مؤسّسي حركة «أدباء ضدّ الاحتلال ومن أجل السّلام الإسرائيليّ الفلسطينيّ». ولعلّه من أوائل الأدباء الفلسطينيّين الذين طرقوا أبواب الأدباء اليهود من الأصول العربيّة، فتحاور معهم ووثق حواره في إحدى أهمّ النّوافذ على المهاجرين اليهود الشرقيّين في البلاد.

كما أعطى سلمان ناطور الشّباب الفلسطينيّ والفنّانين هنا في الدّاخل حقّهم في تصميم كتبه. فترى لوحات وأعمال الفنّانين عبد عابدي وشريف واكد وعيسى ديبي وندى ناطور، وخطوط كميل ضو وعلي الصّالح، تزيّن معظم أعماله الأدبيّة.

في مجموعة «تامر» رافق سلمان ناطور الشّباب في رحل التّعرّف على فلسطين ووضع النّصوص الأدبيّة لإصدارات هامّة تساهم في تعريف آلاف الشّباب الفلسطينيّ بوطنهم.

يصدر هذا الكتاب بالتعاون ما بين مركز مساواة ووزارة الثقافة الفلسطينية وعائلة ناطور، وهو يضمّ مختارات من أعماله التي توثق حياة شعبنا، بأساليب مختلفة، كالفلسفة والأدب الساخر والمسرح والفكر والتحليل.

نتعهّد بمواصلة تعميم أعمال سلمان ناطور، وبتشجيع الإبداع والثّقافة على الدّوام.

جعفر فرح
مدير مركز مساواة

ولدنا في الخطيئة

لماذا ولدت بعد حرب ما زالت مستمرة إلى ما لا نهاية وفيها منتصر ومهزوم ويريدونني أن أكون دائما أنا المهزوم؟

لماذا ولدت في وطن يتآكل يوما بعد يوم ويأكل أهله ساعة بعد ساعة؟

لماذا لم أولد في أثينا على الأوليمبوس فأرى معلما يتبعه تلاميذه الفقراء إلى أن يشرب كأس السم، فأتبعه معهم ولا أنتظر أربعة وعشرين قرنا؟

لماذا لم أولد هنديا أحمر يقاتل الغزاة برمحه وريش النسر وصراخه الذي يشبه عويل الذئاب؟

ستون عامًا- رحلة الصحراء

ميلاد

لم يتصور أهلنا عندما خططوا لمجيئنا أن مواعيدنا سترتبط بالحرب:

ولدت بعد حرب 48.

دخلت المدرسة يوم حرب السويس.

أنهيت الثانوية في حرب حزيران.

تزوجت في حرب أكتوبر.

ولد طفلي في حرب لبنان ومات أبي في حرب الخليج،

حفيدتي سلمى ولدت في الحرب التي ما زالت مشتعلة

عبثية حسابات الولادة والتاريخ!

عبثية إلى حدود الجنون أو الموت.

لكي تكون مسالما وإنسانيا ، ما عليك إلا أن تتخذ قرارا صارما بالتوقف عن الإنجاب تحسبا لوقوع حرب جديدة مدمرة.

كأن شهوتك وأطفالك هم جنرالات الحرب الذين يطلقون الطلقة الأولى.

رهيبة هذه الحياة التي دفعنا إليها أهلنا ، فهل نصفح لهم على هذه الخطيئة؟



مذكرات

ستون عامًا- رحلة الصحراء

كيف يشعر هذا الإنسان المهاجر أنه جزء من طبيعة لم يولد فيها؟

هل هذه نفسية شعب بلا أرض جاء إلى أرض بلا شعب؟

سأذهب إلى الجانب في عُقر داره

سأذهب وحدي وسأحمل ذاكرة جدي وأبي

لندن مربط خيلنا

هذه هي المدينة التي رسمت الجريمة

تأخذني إليها حكايا جدي وأبي وشيخ مشقق الوجه، قال لي والشرر يتطاير من عينيه: والله لو يصح لي لأفجرها عن بكرة أبيها

يصعب علي حتى اليوم أن أفهم هذا الحق الذي يكنّه هذا الجيل لبريطانيا العظمى

يبد أنه ينتقل بالوراثة، فما من شيخ عرفته إلا وشتم وسبّ ولكنه يتمنى أن يزور لندن ولو في آخر لحظة من حياته

في ذاكرة كل منهم صورة للإنجليزي نفسه الذي لا يتبدل

رجل في الثلاثينيات، وعلى رأسه قلبق ويلبس الشورت وبدلة بنية وسبّاطا أسود ويصرخ **hold up** ولا يعرف الضحك

لم أفكر بشيء، في الطريق إلى هذه المدينة الخبيثة، سوى الانتقام

أحسست في تلك اللحظات أنني سأصفي حسابا عسيرا مع لندن ومع الكابتن شيفر الذي حكم بلدنا ثلاثين عاما وتركها تنزف

لو يضع حدا لهذه المشاعر غلا لحظة الوصول إلى المعبر الأرضي

بوابة للأوروبيين، يجتازونها بلا سؤال ولا جواب، وبوابة أخرى لغيرهم وأنا معهم

أخذوا مني جواز السفر وطلبت مني شرطية أن أنتظر فانتظرت

أمرني ضابط اشقر بأن افتح الحقائب، ولما فتحت طيّر صوابه كيس الزعتر الذي أخرجه من حقيبتي بعصبية بالغة

قلت: ها هي لعنة الزعتر تنزل علي في بلاد الانجليز وتلاحقني إلى هنا

بعد لحظات وصل ثلاثة آخرون وأمروني بالوقوف جانبا

حضر كلب كبير وصار يشم الحقيبة تارة، وأطرافي تارة أخرى ولأني، لا أجيد الضحك بالإنجليزية فقد قهقهت فاغرًا فمي وأنا اقول:

هذه هي لعنة الزعتر

قلت للضابط:

This is zaater, Do you know what is zaater?

لو كان هذا الضابط الأشقر هو الكابتن شيفر الذي حكم بلدنا لما أثرتُ مخاوفه، فالكرمل هو وطن الزعتر، ولو كان هذا الضابط من مخلّفات أولئك الانجليز لعبّأ رئتيه برائحته الزكية

في لحظات كنت محاطًا بثلاثة ضباط آخرين أمروني بالوقوف إلى جانب الحائط، فوقفت

أرفع يديك!

رفعت

الكلب صار يشمني بلهف وأعلنت حالة تأهب قصوى في المطار

لندن في حالة طوارئ والجيش البريطاني في حالة تأهب والأسطول في الحرب حرّك بوارجه وأعلنت بريطانيا في الإذاعات عن تجنيد عام لطياري سلاح الجو

لماذا؟

خوفًا من كيس الزعتر

أخذوا الكيس وأمروني بالجلوس على مقعد خشبي وصار الضابط يحقق معي

من أين جئت؟

إلى أين أنت ذاهب؟

هل ينتظرك أحد في لندن؟

لماذا تحمل هذا الكيس؟

قلت: إذا قسا علي الدهر في لندن ولم أجد ما آكله فسألتهم الزعتر

Do you know what is zaater?

ابتعدوا عني وتركوني جالسا وحدي

تساءلت في صمتي ووجومي، كيف استعمروا بلادنا ثلاثين عاما وهم لا يميزون بين الزعتر المطحون والبارود؟ أم أنهم يخافون من الزعتر لأنه يقوي الذاكرة وهم يريدون مسحها عن بكرة أبيها؟

الأدون

في سوق الناصرة التقى الشيخ الذي نتحدث عنه تاجر بقر من أصل روماني يدعى بيرنباوم، ولما كان اسمه «لا يدور» على لسان الشيخ فقد اتفق على تسميته «الأدون» أي السيد، وهو لقب استحدث في عام النكبة حين تحول السيد إلى عبد والعبد إلى أدون، فسأله من أين أنت يا أدون؟

فأجاب بيرنباوم: أنا من صفورية، بلهجة عربية بداوية وفيها خبث؟

وسأله من أين أنت يا شيخ؟

فأجاب الشيخ الذي نتحدث عنه: أنا من رومانيا؟

وقالها بلهجة فيها كثير من الخبث، فضحك الأدون. ولم يصدق أن هذا الشيخ من أصل روماني، وسأله أن كان يسخر منه، فرفع الشيخ يده وحاول أن ينزلها قاصمة على رأسه قائلا له: يا ابن الكلب، هل تريدني أن أصدق أنك صفوري.

وتراجع الشيخ ومنذ ذلك الوقت قرر إلا يسأل أحدا منهم عن اسمه وعن بلده.

في يوم الذكرى يجمع الشيخ أولاده وأحفاده ليأخذهم الى صفورية ويمضي معهم نهارا كاملا، يأبى إلا أن يصوم في ذلك اليوم، أو يعلن اضرابا عن الطعام، لا يسمع به أحد، ولا يقرأ عنه في صحافة العالم، يذرف الدموع، يلاطف شعر أحد أحفاده الذي يلح عليه دائما أن يحكي لهم عن الأرض القريبة، أو اللي كانت قريبة، عن «الدربية» و «غرب البلاطية» و «قطعة الجامع» و «الذيل»، وعن «الشويلي ابو خضر».. ويحكي للطفل الصغير حكاية الأدون بيرنباوم ويشير بسبابه إلى «الفيلا» التي تطل عليهم ويقول:

- هذا بيتنا وعليه بيت الأدون!

قبل أن نغادر

ليس في هذا السفر ما يثير الدهشة وليس فيه ما يعلم عن مكان قديم أو جديد

ليس سيرة وليس مسيرة وليس رواية وليس أدب الرحلة والترحال

ليس وصفا لعبقرية المكان وليس مرحلة ولا قضية

ليس فيه ما يلفت النظر وليس حداثة ولا شعرًا

ليس فيه جديد وليس جديدًا

ليس عن الفلسطيني المشرد ولا عن الفلسطيني الباقي في وطنه

ليس عن الإنسان

ليس عن المكان ولا عن المنفى ولا عن الوطن

ليس عني وليس عنكم

هو نص لعلامات السؤال وعلامات التعجب

هو المكان الفلسطيني بلا حدود والزمان الفلسطيني بلا بداية ولا نهاية

هو الإنسان الفلسطيني بلا مكان ولا وطن ولا زمن ولا أمل ولا حلم

هو اللا مكان واللا زمان واللا أرض واللا سماء

هو نفي مطلق وهو فكرة مجردة وهو لا شيء

تماماً لا شيء

ومن هنا تبدأ الحكاية



نصوص

حديث الصيف: إلى أن يلتقي العرب

يستطيع الزعماء العرب طرح البيض العربي (البلدي منه والمصنع) في السياق الحضاري المعاصر بوصفه نقطة انطلاق لبحث مسائل فلسفية لم يجد لها العقل البشري اجابات شافية

يبدو أن المستجدات على الساحة العربية ليست سببا كافيا لالتئام الحكام العرب في مؤتمر قمة، ويبدو أن كل ما يواجه العرب ليس كافيا لتوحيدهم، وهذا أمر طبيعي ومفهوم في المشهد العربي الراهن، فليس هناك ما يدعو إلى اتفاق العرب سوى ألا يتفقوا! ولأن الهم العربي القومي اليوم هو أن يلتقي الزعماء العرب فان المهمة القومية الأكبر هي أن تجد الموضوع الذي يجمعهم في مؤتمر قمة، ويستطيع الانسان العربي الساذج والبسيط من أمثالي أن ينشغل يوميا في البحث عن أجندة تجمع الزعماء العرب دون أن تثير حساسيات قومية واقليمية، فما من لقاء عربي إلا وتفجر على موقف وقضية تافهة ومزاج عكر، ولا أكتمكم سرا أنني بعد جهد جهيد لم أجد ما يوحد الزعماء العرب سوى البيض، نعم البيض الذي نأكله ولا بيض لنا سواه.

كيف يستطيع أن يلتئم الزعماء العرب حول مسألة البيض؟

لا يخفى على القاصي والداني أن البيض يشكل المادة الغذائية الأكثر انتشارا في الوطن العربي وهو في منزلة القمح ولأن العالم يعاني من أزمة غذائية فان بحث مسألة البيض يجعلها قضية حياتية ومصيرية بالنسبة لمستقبل الفرد العربي في القرن الحادي والعشرين وهو بطبيعة الحال يخترق جميع الطبقات والشرائح العربية الاجتماعية، فالأغنياء بحاجة اليه لصنع «الكريمة» للكعكات الفاخرة والبوظة الجيدة بعد الأكل

والفقراء بحاجة إليه «للعجة» وهي أكلتهم الفاخرة، هذا على مستوى التنمية الغذائية وأما على المستوى الاقتصادي فإن البيض في التاريخ الاقتصادي العربي هو في مستوى النفط العربي إذ استعمل للمقايضة بدل العملات المصكوكة تماما كما يستعمل اليوم برميل النفط للمقايضة بدل الأسلحة والسيارات والذهب وقد يتفق العرب في مؤتمرهم أن يبقوا على المقايضة بالنفط في التجارة الخارجية على أن يكون البيض بمثابة العملة المتداولة في الوطن العربي تمهيدا لتوحيد العملات العربية، وسيكون ذلك بمثابة الترجمة العملية لاختيار اللون الأبيض واحدا من أبرز ألوان العلم العربي الأربعة.

في عصر ما بعد الحداثة القائم على ابراز تميز الخاص ضمن شمولية العام فإن الزعماء العرب يستطيعون طرح البيض العربي (البلدي منه والمصنع) في السياق الحضاري المعاصر بوصفه نقطة انطلاق (كموطيء القدم الذي بحث عنه أرخميدس ليحرك العالم) لبحث مسائل فلسفية لم يجد لها العقل البشري اجابات شافية وعلى رأسها السؤال التاريخي: من خلق قبل، البيضة أم الدجاجة؟ ثم هل هي مصادفة كونية أن الكرة الأرضية تتخذ شكلا بيضويا؟ إن البعد الفلسفي والفكري والفلكي للبيضة هو مسألة عربية لأن الغرب حين يطرح معضلة البيضة والدجاجة في أسبقية الخلق فإنه يتجاهل تماما دور الديك في هذه العملية والمجتمع العربي بوصفه مجتمعا ذكوريا، خاصة في محافل الزعماء والحكام، فإن اضافتهم لدور الديك ستكون بمثابة النقلة النوعية في تصحيح مسار الفكر البشري لإيجاد الجواب على هذه المعضلة الفلسفية التاريخية. ولأن الحكام العرب من الذكور فقط فيستطيعون بلا أي حرج مناقشة قضية أخرى هامة وخطيرة لها علاقة بالبيض وهي مسألة البيض والجنس. ربما أن الحكام العرب لا يملكون اضافات على النظرية الفرويدية في التحليل النفسي فالجنس في الفكر العربي السلطوي ليس مادة للتحليل النظري

لأنه حالة أرسطوطالية تماما كالمادة، إما أن تكون حالة بالقوة أو حالة بالفعل وليس هناك مكان للتحليل بل للانحلال، ولأن البيض قابل للانحلال وليس للتحليل فان مؤتمر القمة المزمع عقده قد يتخذ موقفا واضحا من الفرويدية التي أفسدت الغرب بأن بررت قتل الابن لأبيه، وهذا ما لا تسمح به الزعامة العربية وقد يكون أحد شعارات المؤتمر المستمد من الواقع العربي الراهن: «نعم للانحلال، لا وألف لا للتحليل!»

هذه المسألة حتما ستقود الحكام العرب إلى قضية لا تقل خطورة في مؤتمر البيض وفي سياق موضوعة البيض والجنس وهي تتعلق مباشرة بالحكم والنظام وبالذات بالدور الوظيفي للوزراء، ففي الماضي كان الملك يخصي وزراءه ليكون مطمئنا وفي هذا يلتقي تاريخ النظام العربي بكثير من أنظمة شعوب العالم، ولكن يبقى السؤال: أيهما أفضل وزير مخصي أم وزير عافيته معه؟ نظام الحاكم الأحد بطبيعة الحال يخصي الوزراء من كافة الصلاحيات فلماذا يترك لهم الصلاح الجنسي؟

لم تخولني الجامعة العربية الصلاحية لتوجيه دعوة لعقد مؤتمر القمة العربي القادم ولذلك فانني معفي من وضع جدول أعماله، ولو خولتني لأشغلت الحكام العرب عاما كاملا بما يجمعهم قلبا وقالبا، ان لم يكن على قاعدة التضامن العربي فعلى البيض العربي وإن لم يكن عليه فأضعف الإيمان على بيض البراغيث التي تأكلنا في ليالي الصيف الحارة.

حديث الصيف: آب اللهاب

ونحن نرقب هلاكنا على شاشات التلفزيون ونسرع لاقتناء المكيفات فنضاعف انتاج مصانعها وحرق الوقود، التي تطلق الغازات، التي تحرق الأخضر واليابس والصيف والشتاء

حين أطلق آباؤنا على هذا الشهر «آب اللهاب» لم يفكروا بثقوب الأوزون ولا بأي خلل في الطبيعة مصدره عسف الانسان وهمجيته مثلما نفكر نحن مع كثير من الرعب والخوف من المجهول، وبينما كانوا هم يعتقدون أن السماء هي مصدر هذا التوقد اللامحمول، نجزم نحن أن الإنسان هو السبب. أما هم فقد أقاموا الصلوات الخاصة والطقوس كشكل من أشكال الاحتجاج لعل السماء تغير من معاملتها الجافة والحارقة معهم، وقد فعلوا ذلك كما لو كانوا يتعاملون مع الانسان وليس مع السماء، ولكننا نحن بدلا من أن نرفع صوت الاحتجاج نبحث عن المكيفات، لا بل نفعل كل شيء الا الاحتجاج، ونفعل ذلك كما لو كنا نتعامل مع السماء وليس مع الإنسان، أليس في هذه الغطرسة ما يثير القلق؟ الثلوج تذوب عن قمم الجبال وتغرق بلدات عن بكرة أبيها فهل نستطيع أن نتصور ماذا سيحدث لو أن كتل الثلج تحركت من أماكنها ؟ يبدو لي في هذه الأيام الملتهبة أننا نتحرك نحو الانفجار الكبير أو نقترب من يوم القيامة!

يبالغ الصيف كثيرا في اشتداد حرارته، ومع أنني لست قدريا ولا جبريا إلا أنني أميل إلى الإعتقاد بأن الطبيعة «عافت حالها» من هذا المخلوق الذي يدعى الإنسان والذي يحرق الأخضر واليابس ويقطع الغصن الذي يقف عليه طمعا في الثروة والامتلاك، ولذلك فمن حقها أن تعاقبه، والغريب في الأمر أن الانسان لم يتعلم حتى من أساطيره التي تحدثت عن نهايات

كلية مأساوية مثل الطوفان وسدوم وعامورة التي تعيد أسباب الكوارث الطبيعية إلى سلوك الإنسان اللاأخلاقي المبالغ فيه. هذا الصيف مثل ذاك الشتاء يضعنا أمام أسئلة الطبيعة الكبيرة ويجعل أسئلتنا حول أنفسنا وسلوكنا صغيرة، فيركن الضعيف فينا إلى القدرية ويركن القوي المتسلط إلى الخديعة في اقتناص الفرص ويتخذ القرارات ويفرض الأحكام حتى يبدو لنا أن اللّه مع القوي والطبيعة مع القوي فنعمل بهذا على اشتداد قوته وعلى زيادة ضعفنا.

هل يترك لنا الصيف الملتهب فسحة للتأمل؟

لنفترض أن الحضارة البشرية اليوم هي تتويج لمسيرة الإنسان الحضاري التي بدأت قبل أقل من عشرة آلاف عام (حسب تقدير المؤرخين وعلماء الأنتروبولوجيا والجيولوجيا) وأن في صميم هذه المسيرة كان صراع بين الخير والشر وبين القوي والضعيف وبين قوى تشد إلى الأمام وأخرى إلى الوراء، فلماذا كانت الغلبة دائما لقوى الشر؟ اليوم وبعد هذه المسيرة قلما تجد مجتمعا عادلا، بالعكس ففي المجتمعات ذات الحضارة المتطورة والتكنولوجيا العالية جدا جدا، تسود مفاهيم الغاب أكثر من غيرها ويبدو أن عصرنة الحياة تجلب عصرنة في أساليب الاضطهاد والقمع والظلم ونحن نسلم بها كما سلم الإنسان في الحضارات القديمة بالعبودية البدائية وتجارة الرقيق، فهل هذا هو الثمن الذي ندفعه من أجل سيادة هذه الحضارة، وهل منبت الشر في الحضارة نفسها أم في القوى المتحكمة بها وهل يمكن لقوى الخير أن تنشيء حضارة بديلة ؟

يحترق الصيف على الكرة الأرضية وتذوب كتل الثلج على الجبال الشمالية، ونحن نرقب هلاكنا على شاشات التلفزيون ونسرع لاقتناء وتشغيل المكيفات فنضاعف انتاج مصانعها وحرق الوقود، التي تطلق

الغازات، التي تثقب الأوزون، التي تضعف الوقاية من أشعة الشمس، التي تحرق الأخضر واليابس والصيف والشتاء، فما الذي تغير بعد مسيرة استمرت حوالي عشرة آلاف عام؟

عندما يتغير العدان - كما كان يقول أجدادنا، أي عندما يتحسن الطقس، سوف ننسى معاناة هذه الأيام القاسية إلى أن يأتي شتاء مجنون فيضع حالة الطقس في العناوين الرئيسة ويتصدر نشرات الأخبار إلى أن يختفي هو أيضا، تماما كالحدث السياسي الذي يولد كبيرا ثم يصغر شيئا فشيئا وتماما كالموت وتماما كثورة الإنسان، إذن نحن أسرى هذه الجبرية التي تشل قدرتنا على الحركة مثل أيام الصيف الملتهبة التي لا تترك لنا فسحة للتأمل.

أليست هذه هي عقيدة الغلابة الضعفاء؟

هكذا تساءلت وأنا أشغل المكيف الهوائي وقد غسلني العرق ففتحت الشباك المطل على الوادي فصفعتني نسمة حارة فأغلقت الشباك ولم أنتظر إلى أن يجف العرق عن جسدي، بل انتصرت على الطبيعة بتكنولوجيا الحضارة دون أن أتحرك من مكانية، بواسطة الموجّه عن بعيد، أو المتحكم بالارسال، أو الفاعل تارك دون مساس، أو ما يسمى باللغة العربية المفهومة: الروموت كونترول، الذي شغل المكيف فأنعشني وعدت لمواصلة حديث الصيفة، في محاولة بائسة لتجنيد الثرثرة الدافئة مع برودة هواء المكيف لتجاوز قسوة آب اللهاب.

ذاكرة حيفا على بحيرة متجمدة

حيفا لا تعرف الثلج ولا تعرف الموسيقى الهادئة.

يندر أن يملأ الثلج حيزا من ذاكرتها، ولأن موسيقاها صاخبة، صخب الحياة، يندر أن يحضر فيها «موتسارت» سوى بحضور مطعم عربي جميل على شارع الخمر والعشق، شارع أبي نواس.

اختارت كاترين، مضيفتنا السنغالية الجميلة من معهد العدالة التاريخية أن نلتقي في قصر باروكي في مدينة سالزبورغ غربي النمسا، لنستعيد ذاكرة حيفا.

منتصف شباط.

هنا، في حيفا، كنا ننتظر عاصفة حذرتنا منها الأرصاد الجوية.

(نسميها عاصفة إذا أبرقت وأرعدت ونزل مطر فوق معدله السنوي.)

نحن هنا نحب العاصفة لأنها لا تؤذي وهي في الغالب تحضر مطرا غزيرا بعد خريف قاحل وجاف، فأهلا وسهلا بالعواصف غير العاصفة، واعذرينا، أيتها العاصفة القادمة، على غيابنا لأننا سنذهب إلى مدينة الموسيقى الهادئة والثلوج التي تتساقط بهدوء وتتراقص على أنغام موتسارت المولود هناك في بيت قديم في قلب المدينة.

كل ما تراه العين أبيض على الطريق من فيينا إلى سالزبورغ.

الثلج يغطي السهول والقمم العالية ولا يصمد على فروع الأشجار العارية.

ألمدينة الصغيرة تبدو بلا أفق ولا سماء.

خلفها سلسلة جبال عالية يكسوها الثلج وسماؤها غائمة والثلج لا يتوقف عن السقوط.

سائق التاكسي التركي لم يفهم من لغونا العربي سوى «السلام عليكم» ولا يفهم الإنجليزية.

اتصل بزميل له يجيد العربية وصرنا نتبادل الحديث عبره مع جهاز خليوي مفتوح.

لم تنبعث من مسجله موسيقى تركية بل سمفونية لموتسارت، معروفة حتى لمتذوق أمي مثلي يصغي إلى الموسيقى الكلاسيكية كخلفية لوقائع الحياة.

يبدو أن في بلد موتسارت لا يصغون إلا لموسيقاه، هكذا في محطة القطار وفي صالة الفندق، تماما كما أن الشوكولاته هي موتسارت وعلى الملابس وكل الهدايا التي تصنعها البلد وحتى الولاعة أو القداحة موتسارتية وتباع في حانوت عند مدخل البيت الذي ولد فيه.

كيف يمكن أن تقضي أربعة أيام في سالزبورغ دون أن تزور هذا البيت؟

الثلج وذاكرة حيفا هما اللذان أخّرا الزيارة إلى اليوم الرابع.

القصر الذي جمعنا والقائم منذ القرن الثامن عشر، ليس مجرد مكان جميل ويشي بالعظمة.

الرّخام والخشب الخمري واللوحات الكبيرة على الجدران وسقوف الغرف الملونة والصالات الكبيرة تنقلك إلى تاريخ ليس لك وإلى عالم لا تتوق إليه.

إنه يستفز زائرا مثلي جاء من بلد التقشف والقتال على الخبز فيسأل السؤال الساذج، أو ربما سؤال المحرومين: لماذا لا يكتبون على جدران القصر كم من عامل اشتغل في بنائه وكم منهم قتل أو جرح ومن أين المال لصاحبه الإقطاعي؟

مثل هذا السؤال يبدو ساذجا أو ربما خبيثا في قاعة المرمر التي تناولنا فيها عشاءنا وحضرت حيفا في حكايات «أبو العبد» العربجي الذي كان يقطع شوارعها على حنطوره من حارة الكنائس وحتى وادي الجمال.

القصر القائم منذ القرن الثامن عشر يقع على ضفة بحيرة تجمد سطحها وتراكم عليها الثلج فبدت ساحة كبيرة لا الشجر العاري يخرق استواءها ولا عمارات قديمة أو حديثة، فشدت إليها صديقينا محمود يزبك ومصطفى كبها ليسيرا عليها كأنهما يسيران على أرض مرج ابن عامر وهما لا يدركان أن تحت أقدامهما ماءا وحياة وسمكا تحت الجليد ولا يسمع خبطات الأقدام وقد يذهله، مثلما أذهلنا، لو يدرك أن رجلين صحراويين يمشيان على ثلج البحيرة كما لو كانا يمشيان على الرمل.

ذاكرة حيفا حضرت في القصر وكانت حكايات جيل يبحث في الكتب المفقودة وينبش في ما بقي من ذاكرات الناس الذين عاشوا في تلك الأيام ومنهم من بقي في وادي النسناس ومنهم من تفرق أيدي الحليصة ووادي رشميا وشارع الجبل.

أربعة أيام متواصلة لم تترك فسحة للتزلج على جليد الجبال ولا زيارة القلعة المطلة على سالزبورغ وتحفظ ذاكرتها كما يليق بمدينة عريقة ارتبطت بالموسيقى منذ أخذ موتسارت، الطفل ابن السنوات الثلاث، عبقرية والده الموسيقية.

ليس غريبا على هذه الطبيعة أن تنجب العباقرة.

للموهوبين في هذا الفضاء متسع للتأمل كي يصبحوا عباقرة.

هذا هو كل ما بيننا وبينهم، متسع للتأمل، ويعني مساحة لا محدودة من الحرية.

مساحة تمتد كامتداد سلسلة الجبال المتجهة إلى أفق بعيد ، فيكتب من يكتب بحرية ويعزف من يعزف بحرية ، وبحرية يضع الفنان على طاولته كل أسئلة الخلق والخليقة.

هكذا كانت حيفا على طاولتنا في الصالة الكبرى.

صارت مكانا قابلا للتفكيك.

صارت رزمة من الذكريات والحكايات ، لكل منها معانيها واستعاراتها ، وفي لحظة انقشاع خيل لي أنها تحولت إلى بحيرة متجمدة يذوب عنها الجليد شيئا فشيئا ليظهر ما في باطنها من حياة أو لتعود إليها حياتها في فضاء بلا حدود ولا قيود.

في هذا المشهد الدرامي علت حكاية الفلسطيني الغائب عن حيفا ؛ عباس شبلاق.

كان في الخامسة من عمره عندما حملته سيارة سوداء من بيته في وادي الصليب مع والدته التي حملت معها ماكنة الخياطة ووالده الذي حمل صندوقا خشبيا فيه مفتاح البيت وأوراق عائلية مهمة ، ومنها إلى نابلس واللبن الشرقية وامتد الترحال إلى سوريا ولبنان وتونس والجزائر، إلى كل مكان إلا إلى حيفا.

لندن صارت محطته الأخيرة، ومنها عاد بعد غياب دام أكثر من أربعين عاما ليتفقد البيت، فوجده قائما كما تركه وفي الطابق الأرضي تسكن عجوز ما زالت تحتفظ بأثاث البيت.

قالت له «سارة» التي تذكرت عائلته: هذا الأثاث لكم، أحتفظ به، اذا شئت فيمكنك أن تأخذه.

لم تقل له هذا البيت لك.

فقط ما كان في البيت من أثاث وأغراض لم تقدر على حملها والدته عند الرحيل.

على أحد الجدران علقت سارة صورة ابنها الجندي وابنتها.

«سأحكي لهما عن لقائنا»

قالت سارة وقدمت له القهوة العربية.

بعد عام ماتت سارة.

أعادني بيت عباس شبلاق في شارع البرج إلى بيت شاعرنا عبد الكريم الكرمي (أبي سلمى) في شارع البساتين بحي الألمانية.

طلب مني عندما التقينا في صوفيا أن أزور البيت.

ذهبت.

كانت تسكنه امرأة من أصل روماني.

قالت إن عائلة بولونية سكنته من قبل ولم يقل لها أحد إنه كان بيتا

لشاعر كبير هجرّ منه مبحرا على قارب وهو يحمل مفتاح البيت ومجموعة قصائد بخط اليد.

سقطت المجموعة في البحر وظل المفتاح.

بعد عام مات أبو سلمى.

جلس عباس شبلاق بيننا في الصالة الكبرى من القصر يستعيد ما علق في ذاكرته من حيفا قبل أن يعرف المنافي طفلا في الخامسة، وصرنا نحكي له ما حل بمدينته بعد غيابه عنها.

كانت الخواطر والحكايات تتوارد سمفونية السرد، هادئة أحيانا إلى حدود الصمت ومتوترة في أحيان أخرى إلى درجة الصخب.

الثلج الذي تراكم على سطح البحيرة المتجمدة وفي الحديقة استحضر «سنة الثلجة» في حيفا.

عام 1950 عرفت حيفا ما لم تعرفه في حياتها، لا قبل هذا ولا بعده، وصل ارتفاع الثلج إلى أكثر من متر والجرافات التي كانت تهدم بيوت حيفا العربية تعطلت لأيام معدودة لكي تجرف الثلوج التي تراكمت على الشوارع.

أعادتنا حكايات عباس شبلاق عن بيته الواقع على الحد الفاصل بين وادي الصليب والهدار إلى أيام حيفا الجميلة، إلى لياليها وسهراتها الصيفية والى صحفها وكتابها وشعرائها والى نواديها ومقاهيها، يوم كانت مدينة صيف وسهر وقبل أن تتبدل أسماء شوارعها وأحيائها ويصير شارع البرج «شارع التحرير»، أي تحريره من عباس شبلاق ابن الخامسة ومن أمه التي كانت تطرب كثيرا على لحن «مرمر زماني يا زماني مرمر».

عباس صار اسما حيفاويا كلله حبيبنا القادم من لندن بحكايته، مثلما تكلل المدينة قبة عباس الذهبية على منحدر الكرمل وشارع عباس الذي لا يزال يحتفظ باسمه.

أحب هذا الاسم الحيفاوي الكرملي ولا أعرف لماذا يأخذني إلى بغداد وإلى ألف ليلة وليلة في شطحات حنينية إلى أدب منفلت القيود والرقابة وإلى موسيقى تنساب كانسياب دجلة وبردة. يعيدني ذكر شارع عباس إلى بيت اميل توما الذي كنا نجلس على شرفته مع كأس من نبيذ أحمر ونطل على المدينة تستقبل السفن القادمة من الغرب ونراجع تاريخا قلما تجده في بطون الكتب.

يعيدني إلى علي عاشور الكاتب الذي كان يخبيء خلف ملامح وجه حزين سخرية لاذعة وقد فارق الحياة في منفى آخر، في براغ، بعيدا عن غزة، وطنه الأول، وبعيدا عن بيته في شارع عباس.

أعادني عباسنا القادم من لندن إلى عباس زين الدين الشيوعي الطيب (لا يزال يناضل) الذي دلني على جريدة «الاتحاد» يوم كنت يافعا أتسلى على حكايات «علي بابا والسندباد» ولا أعرف أنها من ألف ليلة وليلة وعلى أفلام الحرب على الهنود الحمر، فأدركت من الجريدة أن أمريكا «رأس الأفعى».

في قصر على بحيرة متجمدة عدت إلى حكاية عباس الفران الذي انتظر على رصيف شارع يافا عودة أهله من لبنان ومات وهو يبيع الخبز.

حدثت صديقنا القادم من مدينة الصخب والضباب عن الشيخ عباس الذي كان يحلم بإسقاط الطائرات البريطانية وأكله الضبع لأنه فقد الذاكرة - كما قال أهل بلدنا- ضحكنا على خفة ظله وحزنا على مصيره.

إنه كرملي كان يجوب شوارع بلدنا على حماره الأبيض وعلى خاصرته تتراقص رزمة المفاتيح، مفاتيح طائراتنا العربية كما كان يقول عندما نسأله: ما هذه المفاتيح يا شيخ عباس؟

لم يتوقف تساقط الثلج على مدينة سالزبورغ عندما حملنا حقائبنا وابتعدنا عن البحيرة المتجمدة لنركب الطائرة.

عبر شباك الطائرة الصغير تنظر إلى فوق فترى سماء زرقاء صافية وشمسا مشعة، وتنظر إلى تحت فلا ترى إلا الغيوم البيضاء تحجب الأراضي الواسعة التي يغطيها الثلج كتلك البحيرة المتجمدة.

عندما يذوب الثلج تعود الحياة من جديد إلى الأرض.

يعود إلى أشجارها ورقها الأخضر.

تعود إليها عصافيرها التي لا تحتمل البرد.

يخرج الفلاحون من بيوتهم ليحرثوا ويزرعوا.

على أرصفة المدن يجلس العشاق في المقاهي، في سالزبورغ على أنغام موتسارت وفي حيفا تصدح الفيروزيات من مقهى «فتوش» على شارع الحب والخمر، شارع أبي نواس، لتبدأ من هناك رحلة جديدة في ذاكرة حيفا.

حديث الصيف/ صديقي المحامي إكس !

والدي كان حداداً يكسب قوته من تصليح

بريموس، وهو يأتي لينفخ العجل

قلت لزوجتي مرة: حتى لو أنني امتلكت كنوز سليمان وأموال قارون، لبقيت كما أنا ، الميكانيكي الذي يساعد الناس ويكسب قوته بعرق جبينه، ولو انني امتلكت هذه الكنوز لقمت بتوزيعها على الفقراء والمساكين، ولأبقيت لي شيئاً قليلاً اهنأ به وأورثه لأولادي وأحفادي. وقالت لي زوجتي، وأعترف انها أذكى مني، لو انك تمتلك هذه الأموال والكنوز لتصرفت كما يتصرف من يمتلكها ، فالغني يمارس سلوكه الذي تحتقره أنت لأنه غني، وأنت الفقير تمارس حياتك وسلوكك الذي يحتقره هو لأنك هكذا ، وعندما تنتفخ جيوبك فسوف «تنتفخ شخصيتك ويكفينا طق حنك وشعارات فارغة».

وكان هذا الحديث يجري بيني وبين زوجتي هادئاً ثم يحتد ، ثم يحسم عندما نتطرق إلى سيرة صديق طفولتي المحامي «إكس» (أسم مستعار طبعاً)، وهو حقاً صديق. فقد ولدنا في الشهر ذاته قبل خمس وأربعين سنة ، كان والده صاحب دكان، أذكره شيخاً يلبس السروال الأسود ، ولحيته تتدلى كالشلال على صدره، يضع على رأسه قلنسوة بيضاء، ويجلس عند باب الدكان يسبح بسبحته السوداء إلى أن يأتي أحد ويطلب منه شيئاً من الحلوى أو الحلاوة وكان طيباً ميسور الحال أحبه أهل القرية وأنا أيضاً، لانه والد صديقي الذي أصبح فيما بعد المحامي «إكس» وأنا وصديقي كبرنا في الحي ذاته، والدي كان حداداً يكسب قوته من تصليح بريموس أو بيع علبة مسامير والموسم بالنسبة له كان يبدأ مع قدوم فصل الشتاء عندما يتهافت الناس عليه لتركيب المزاريب، وهو الوحيد الذي كان يتقنها في البلد، وأنا كنت أمضي ساعات

طويلة في المحددة أساعده وأبني أشكالاً غريبة عجيبة من قصاصات القصدير قبل أن يلقيها مع النفايات، وكان صديقي يحب أن يلعب معي في المحددة، وعندما وصلت إلى قريتنا الدراجات واشترى له والده واحدة قبل أن يشتري لي والدي، زاد تعلقنا ببعض، فأنا أحببت ركوب «البسكليت» واللعب معه وهو كان يأتي لينفخ العجل في المحددة أو ليصلح «الكادون» كلما سقط وانطعج أو انكسر سيخ فيصلحه والدي دون أي مقابل، علشان خاطري أنا.

وكان والدانا صديقين حميمين، وما أريد أن أقوله هنا ان طفولتنا كانت جميلة وسعيدة، وصداقتنا بدأت منذ نعومة أظفارنا واستمرت، وحتى اليوم ما زلت أعتبره صديقاً، رغم أنني ميكانيكي وهو محام كبير، ولا تتسرعوا بالحكم عليه، فهو يكفيه أن قوانين المهنة تتحكم به حتى تلك التي لا أفهمها أنا، وكما يقول هو أنه لا يفهمها أيضاً ولكن الناس لا ترحم ولا تقدر أنه تعلم كذا سنوات وسهر الليالي الطويلة من أجل تحصيل العلم وعندما يأتي إليه أحدهم للاستشارة ولا يدفع ثمنها، فيطير صوابه وهو يسمي ذلك قوانين المهنة وأنا أطلق عليها أسماء أخرى. وهنا نختلف في الرأي.

قالت له المعلمة: تعلم المحاماة فطار صوابه

وقال لي: إنه حمار في علم السيارات

أنهيت أنا وصديقي المدرسة الابتدائية في القرية، كنا نجلس مع بعض، على المقعد الثالث القريب من الشباك، وكنا نرفض أن يبعدنا المعلم عن بعض أو أن ينقلنا من موقعنا، ولا أستطيع أن أجزم انني كنت مجتهدا أكثر منه، لكنني أعترف أنه كان أذكى مني، وكان يبرز ذكاؤه في الحساب وأنا كنت متفوقاً في دروس الإنشاء، والمحفوظات وحفظت قصائد لا تعد ولا تحصى أما هو فكان يخربط عندما يقرأ:

أنا في الصبح تلميذ وبعد

الظهر نجار

ولي قلم وقرطاس

وإزميل ومنشار.

فكان دائماً يبدأ القصيدة «بأنا في الصبح نجار» فيقول له المعلم «تلميذ يا أبو عقل مخشب» وكنا نضحك.

وأنهينا المدرسة الابتدائية وانتقلنا إلى المدينة مع بعض لندرس في الثانوية، مع بعض أيضاً، وفي الصف ذاته وعلى المقعد الثالث القريب من الشباك. وهو في هذه الفترة ظهرت مواهبه في المقارعة والجدال وفي ذلك اليوم عندما قالت له مربية الصف أنصحك أن تتعلم المحاماة، لم تحمله الأرض فصار يرقص فرحاً وعاد إلى والده ليخبره وسر والده سروراً عظيماً وصار يردد قول المعلمة ومنذ ذلك الحين صار يقارع الجميع بحق أو بغير حق وعلى «الفاضي والملان» وأنا لم تقل لي معلمة الصف انني سأصبح ميكانيكياً، فهي لم تكن تملك سيارة، لأثبت لها قدرتي في تصليح السيارات، وشغفي الشديد في تفكيك كل شيء مركب، ولكن ميلي لهذه المهنة برز قبل أن أنهي الابتدائية، وأنهينا المدرسة فتوجه إلى الجامعة ليدرس المحاماة وأنا بحثت عن عمل في كراج، وأنهيت دورة لمدة ثلاث سنوات، عملت في النهار وتعلمت في المساء وسهرت الليالي الطويلة في تحضير الدروس، وعندما كان يعود مرة في الأسبوعين إلى القرية كان يأتي إلي ليزورني، أو عندما أعلم انه سيصل إلى بيت أهله كنت أنتظره أيام الخميس في الساعة الثامنة مساءً، فقد كان يأتي في قطار المساء الذي يصل إلى المدينة في السابعة وفي الثامنة يكون في البيت.

عندما أنهى دراسته اشترى سيارة وأنا أيضاً اشتريت سيارة. وصار محامياً، فتح مكتباً في المدينة ونجح وأنا بقيت أعمل في الكراج، لم أملك المال الكافي لأكون مستقلاً فقد بقيت، وما زلت أجيراً، يعني أعمل بأجرة عالية فأنا مدير العمل والخبير في شؤون «السوبارو» و «الرينو» و «الفيات» وأستطيع أن أفككها قطعة قطعة، وعندما أسمع هدير السوبارو أعرف حتى عن بعد عشرين متراً إذا كانت جلود الصبابات من صنع ياباني أو إسباني، وعندما قرر صديقي «إكس» أن يشتري سيارة استشارني واقترحت عليه أن يشتري سوبارو، وأنا بحثت له عن واحدة بحالة جيدة وأنا أبدل له السيارة في كل عام، وعندما قال لي مرة أنا أفهم في القوانين والمحاكم ولكنني حمار سيارات، قلت له: سلامة قيمتك، أتركها لي، وهكذا.

صرنا نلتقي مرة في الأسبوعين، وكلما صارت سيارته «تقطش» في طلعة جبل التفاح

كبر مكتب صديقي في المدينة وأشتهر والحقيقة أن معظم زبائنه من قريتنا، فهو محامي شاطر وهم يرفعون هاماتهم عندما يذكر اسمه وفصاحته وقدرته على أنه يستطيع أن يسحب أياً منهم من أية تهمة كما تسحب الشعرة من العجين، أو كما يقولون: ينزل المحكوم عن حبل المشنقة. وهو يعرف كيف يحصل الحق وكيف يقارع ضريبة الدخل ويلغي الغرامات والفوائد ويمسح الديون، ولذلك قرر أن يفتح مكتباً له في القرية يعمل به في ساعات المساء، وصار الزبائن يؤمونه ولا يهمهم أن ينتظروا ساعة أو اثنتين في غرفة الإنتظار الواسعة قبل أن يدخلوا إلى السكرتيرة التي تحدد لهم المواعيد وهي التي تتسلم منهم «أتعاب المحامي والرسوم» وتقطع لهم وصلاً وهم يخرجون من عندها يسبحون بحمد ربهم. وأما أنا ففعلت كما فعل صديقي، اشتهرت وأصبحت معروفاً حتى قيل عني

أن أصابعي من ذهب، وفتحت ورشة تصليح سيارات في البيت، أعمل بها في ساعات المساء، والحمد لله، على هذه النعمة، ولما أصبح صديقي المحامي «إكس» مشغولاً جداً ولما أصبحت أنا أيضاً مشغولاً جداً، فقد تأثرت علاقات الصداقة الحميمة بيننا، فلم يطرأ ما يعكر صفوها، لا سمح الله، ولكن الانشغال وضيق الوقت والتعب... كل ذلك قلل من لقاءاتنا فقط، صرنا نلتقي مرة في الأسبوعين أو الشهر، وصارت لقاءاتنا تقوم على حاجة كل منا للآخر فهو يتصل بي ويقول انه يشعر ان سيارته ليست على ما يرام، وربما أنها تحتاج إلى «عيار» أو أن صوت الموتور لا يعجبه أو أنها «تقطش» في طلعة جبل التفاح، فآتي إليه بنفسي وآخذ مفاتيح السيارة من السكرتيرة وأفحصها (أي السيارة) وأعيدها إليه وكأنها عروس في ليلة زفافها. وعندما لا أشتري لها القطع فقد كنت أسامحه بأجرتي، والحقيقة انني كنت دائماً أسامحه.

احتجت إليه مرة أو مرتين، في المرة الأولى طلبت مساعدته لي في استصدار رخصة لفتح كراج، وقد عبأ الاستمارات المطلوبة ووقع عليها، وأرسلتها أنا، وكان كلما التقينا يسألني هل حصلت على الرخصة فأقول له: حتى الآن، لا. فيقول: أولاد حرام، أي انه يشتم الحكومة وليس هذا من عادته، ولا يفعل شيئاً، وقد سمعت منه أكثر من مرة يقول: إن الناس لا تحس ولا تخجل. فيأتون إليه ويطلبون منه مساعدتهم في استشارة قانونية ولا يدفعون. حتى انه قال لي: ما يغيظني أن أقارب وأصدقاء يأتون لزيارتي ولا يتحدثون معي خلال السهرة إلا عن المحاكم والقضاء ومشاكلهم مع الحكومة، حتى يبدو لي أحياناً انهم لا يأتون إلي محبة بل لقضاء حاجة، وأنا لماذا أضيع ساعتين معهم دون مقابل، أحياناً يأتي الرجل مع زوجته وهي تحمل «كيلو قهوة» أو «طقم فناجين شاي» ويسهرون ويطرح الرجل كل مشاكله ويطلب مني أن أساعده في حل هذه المشاكل وعندما أقول له: تعال إلي وقت الدوام، أشعر أنه يشتمني في داخله ولا يأتي طبعاً، لأن

وقت الدوام يعني الدفع لدى السكرتيرة، والناس لا تحب أن تدفع.

عندما أسأله عن القضية يقول: قيد البحث،

ويشتم الحكومة ويحدثني عن وقاحة الناس

سمعته مرة يقول لي بعد أن ألقى علي محاضرة مطولة عن وقاحة الناس، سمعته يقول: هل تعرف ان أتعاب ارسال طلب لاستصدار رخصة كراج تصل إلى مائتي دولار. صدمت ولما أحس بصدمتي استدرك قائلاً وزاد الطين بله: ولكن علشانك وعلشان صداقتنا، فإنني سأدفع حتى الرسوم. وسكت، وفي المرة الثانية عندما طلبت منه أن يرفع شكوى على مؤسسة التأمين الوطني. توجهت إلى مكتبه وبعد أن شرحت له القضية قال لي: افتح الملف لدى السكرتيرة. وكنت أعرف منه أن فتح الملف لدى السكرتيرة يعني أن تفتح جيبك. فتوجهت إليها ووضعت على طاولتها خمسمائة دولار عداً ونقداً وهذا ما طلبته مني. وكلما اتصل بي صديقي المحامي «إكس» وطلب أن آتي لآخذ سيارته للتصليح كنت أسأله عن القضية فيقول: قيد البحث، لقد أوقفت جميع الاجراءات. وفي كل مرة يحدثني عن وقاحة الناس. وأنا أصلح سيارته ولا أطلب منه سوى ثمن القطع. وأقول له: يا أخي الناس بألف خير، الحياة يسر وعسر، والدنيا أخذ وعطاء، يا صديقي. وهو يسترسل في الحديث عن زبائنه وعن نفسه: أنا محامي معروف، سهرت الليالي الطويلة في الدراسة، وإلى آخره. قلت له: وأنا تعلمت واشتغلت وأنا الميكانيكي الوحيد في البلد، وأحياناً يأتي إلي أناس أعرف أن حالتهم سيئة فأسامحهم بتعبي، وأنا وقتي ثمين. وقال في البداية: انت أهبل. ثم قال: اليوم لا يوجد معنى للصداقة، الحياة كلها «بيزنيس»، أنا لست على استعداد أن أضيع ساعة من وقتي في سهرة تافهة. وبدأت أحس أن هوة عميقة تفصل بيننا، وان صداقة عمر طويل أصبحت على كف عفريت، وبما أنني لا أستطيع

أن أغير من طباعي وهو أيضاً ، فقد ابتعدنا عن بعض وصرنا نلتقي في المناسبات فقط.

في الشهر الماضي، احتفلت بخطوبة ابنتي، دعوت كل أهل البلد ، وفي البداية قررت عدم دعوة صديقي، ولكن بعد أن ألحت زوجتي قلت: سوف أدعوه، ووعدت زوجتي بأن ألقنه درساً لن ينساه، فإما أن يقطع علاقاته معي تماماً وإما أن يصلح من ذاته فيكون مثله مثل جميع الناس.

حملت بطاقة الدعوة وتوجهت إلى مكتبه. دخلت على السكرتيرة وقلت لها : أريد أن أفتح ملفاً. فاجأها كلامي هذا ولكنني أمرتها بنبرة جادة أن تفتح الملف، ووضعت على الطاولة خمسمائة دولار عداً ونقداً وقطعت لي وصلاً، وسألتني ماذا أكتب على الملف؟ قلت لها: دعوة لحضور خطوبة، وانتظرت إلى أن أذنت لي بالدخول، فدخلت وسلمت صديقي بطاقة الدعوة وقلت له: يوم الجمعة، ساعة واحدة فقط، من الثانية إلى الثالثة بعد الظهر. قال لي بعد أن عبر عن فرحه وسروره: آمل أن تسنح لي الفرصة. قلت له: سوف تسنح يا صديقي وغادرت.

هل تعتقدون أن صديقي المحامي «إكس» (الاسم مستعار طبعا) حضر خطوبة البنت؟

سأترك الجواب لكم، ولكن، هذا هو صديقي المحامي «إكس».

حكايات جدي «أبو سامح» [1]

المحظوظون، من تأجل موتهم للحرب القادمة

(1) في اليوم الأول للحرب، غزة 2014

أنا في الولايات المتحدة (نسميها بلغتنا الغاضبة الويلات المتحدة)

كل شيء فيها ضخم وكبير، البنايات والجسور والسيارات ومؤخرات الناس تطلب وجبة في المطعم. يتأخرون كثيرا في احضارها ولكن عندما تحضر يرعبك منظرها، فهي تكفي خمسة رجال.

قدمنا إلى أمريكا الكبيرة من كل بقاع العالم لنتحدث عن الصراعات في العالم وفي بلادنا.

يا امريكا يا امريكا! فيك الخصام وانت الخصم والحكم. ارفعي يدك الضخمة المنتفخة من دهن العالم وبترول العرب! ارفعيها، عن العالم وعنا، يتحقق السلام!

اقولها في عقر دارها، في مدينة ليست كبيرة وعلى ضفة نهر ليس كبيرا، كأن هذا المكان ليس في الويلات المتحدة.

(2) أنت القاتل والمقتول

قلنا لهم: معكم 30 ثانية او 10 دقائق. هكذا قال الجنرال.

يدمر البيت ويحمّل الضحية مسؤولية موتها

رهيبة هذه الجملة.

تصرف النظر عن المجرم الذي يقتل الأطفال

لو كان يهمه حياتهم لما قصف بيوتهم.

يقتلهم ويضع المسؤولية على آبائهم

الإنذار جزء من الجريمة، أيها الجنرال، أو هو المقدمة الأولى لها

أيهما افضل، أن يقصفوا مع انذار او بلا إنذار؟

موت أفضل من موت آخر؟

تموت واقفا أو نائما على السرير؟

تمشي أم تشرب كاس الشاي؟

أو أنت في الحمام؟

أو تلعب الشيش بيش؟

أوتقلب محطات التلفزيون؟

أو تلهو بالفيسبوك؟

أو تضاجع زوجتك؟

او تفرم البصل؟

أو تتثاءب؟

أو تقرأ رواية؟

ولماذا تسأل؟

هل يهم ماذا كنت تفعل إن كان لا يهم كيف تموت؟

(3) لا، لن تحملهم هذه الأرض

أم وثلاثة أطفال..وطائرة في السماء

الأول يبكي مرعوبا على يسراها

والثاني يبكي مرعوبا على يمناها

والثالث يبكي مرعوبا في حضنها

والأم تخفي الرعب

لا تبكي

تحلم بعرس الأول

في غزة تقصف الطائرة ولا تختفي مشاهد الاعراس في المخيلة او في البومات الصور التي تتناثر اشلاؤها في الردم

أطفال تمددوا على الرمل في شاطيء غزة

لم تنم أمهاتهم في هذه الليلة

هل نام قاتلوهم؟

تفتح الباب

الأم لا تطرق على باب ابنها لأنها تخشى أن يكون نائما فتوقظه

الأم لا تعترف بحريته في غرفته

ألأم تجيز لنفسها معه ما لا يجيزه أحد غيرها

هو منها ولها وحدها

الأم لا تطرق على الباب لأنها تحب أن تفاجيء ابنها لتثبت له سلطتها عليه

تعرف أنه ليس هناك

تغمض عينيها للحظة فتراه في كل الحالات المستحيلة

قاعدا واقفا في نفس الوقت

نائما يقظا

صامتا متكلما

على السرير

خلف الطاولة

على الأرض

يرفع صوت المسجل ويخفضه بلا حساب لشيء

ينظر إليها بعصبية

يحول نظره باستخفاف

يخلع قميصه

يرتديه

يطلب منها أن تخرج

يطلب منها أن تدخل

في لحظة يختفي ويترك الدموع في عينيها وأشياءه المبعثرة

تقول:

كان يحيّرني

كان عكازتي

خطيبته لليوم ما خلعت المحبس من إصبعها

ألأم التي فقدت ابنها تبحث عن أشيائه الصغيرة

عن خرابيشه في دفاتر المدرسة

عن رسائله القصيرة

عن ملابسه التي تنبعث منها رائحة العرق

تتناول قميصه وتقربه من وجهها وتشمه

تستنشقه لعله القميص الأخير الذي لبسه قبل أن يخرج

ألأمهات لا يغسلن ثياب أولادهن، بعد أن يموتوا

ألأمهات لا يرتّبن غرف أولادهن، بعد أن يموتوا

ألأمهات لا يصدقن أنهم ماتوا ولن يعودوا

الأمهات لا ينمن قبل أن يأتي أبناؤهن

تنتظر الأم عودة ابنها كما لو كانت تعرف أنه ذهب ليسهر مع أصدقائه

تنتظره حتى ساعات الليل المتاخرة

بين الحين والحين تقوم وتنظر إلى العتمة من الشباك

يهيأ إليها أنه سيأتي من العتمة

تسمع خشخشة وضربات أقدام

تسمع صرير الباب

تنتفض مذعورة وفرحة

يأتي ولا يأتي

يأتي ولا يأتي

لا تنام في تلك الليلة

لا تنام

من يزرع الخراب في أرض الآخرين لن يبقى في الأرض التي يقيم عليها

هل ستحرثون البحر إذا حرقتم التراب؟

رجاء! لا تنشروا صورا لجثث الأطفال الممزقة

من لا يعرف أن في غزة أطفالا فلن يهتز لمشاهد موتهم

جثث الأطفال النازفة تسر القتلة وإلا كيف يعتقدون انهم انتصروا؟

ولدت بعد حرب 48..دخلت المدرسة في حرب 56..أنهيت الثانوية في حرب 67..تزوجت في حرب 73...نحن اليوم في حرب 2014 وبعد 2009 وبعد 2008 وبعد 2006 وبعد 2000

يحضر ميزان الأخلاق ويسقط ميزان القوة

الدولة الديمقراطية العلمانية الواحدة من النهر إلى البحر!

أفق ما بعد تطاير الغبار!

(4) ليس مشرفا ان تكون

لو أراد العالم أن يمنع المجزرة، لنجح... ولو أراد العرب أن يمنعوا المجزرة، لنجحوا...لماذا سكتوا قبل خمسة وستين عاما؟ لا أخلاق

في الحرب. المعتدي يربح الحرب بقليل من الحق بين يديه المعتدى عليه يخسر الحرب بقليل من الباطل بين يديهفي هذه الحرب ليس مشرفا أن تكون عربيا ليس مشرفا أن تكون إنسانا ليس مشرفا ان تكون في هذه الحرب لا تبحث عن الشرف أبحث عن الإنسان الذي فيك! في هذه الحرب لم يبق شيء كما كان عليه حالة من التدمير والتفكيك الكلي في غزة أولا،

وفي كل مكان حولك في هذه الحرب، كل الأسئلة تطفو على السطح الحرب لا تصنع انتصارات الحرب تصنع الهزائم فقط أتفه المهزومين من يهللون للحرب في هذه الحرب سيكثر الراقصون عندما يعدون الجثث...

(5) استراحة قصيرة

هدنة إنسانية 12 ساعة، ليخرج أهل تل أبيب إلى شاطيء البحر ولينتشل أهل غزة الجثث من بين الأنقاض .المحظوظون من يتأجل موتهم للحرب القادمة .حقير هذا الزمن!

(6) يوميات آنا فرانك

في الحرب، أنا لا أشبّه ولا أقارن. كل ضحية عالم قائم بذاته. احاول ضبط انفلات مشاعري وأفكاري. أقرا في هذه الحرب رسائل الضحايا. غزاوي طيب ترك رسالة في جيبه: «أنا مدين بمبلغ عشرة شواقل لشخصين». ذكر اسميهما... ومات .شاب ذو ابتسامة دائمة على وجهه كتب على صفحته «يا ربي ارحمني! إلي من امبارح ما نمت. اقصفوا الدار وخلصونا»! ظلت ابتسامته على صفحته. ومات أنس يوسف قنديل.17 عاما. جباليا/ غزة. 2014 تموز التاريخ عالم قائم لذاته.. لم أنجح في ضبط مشاعري. رحت أبحث من جديد عن يوميات آنا فرانك..

(7) عودة المقاتل

عندما عاد المقاتل من عرس الدم ونفض عنه غبار المعركة والبارود، قدّمت له أمه الغبية التي شجعته على القتال، وجبة فاخرة: كتفا مقطعة

مشوية بالفرن وكأسا من النبيذ الاحمر.

لم يأكل، وعندما ألحت الأم الغبية قال لها:

-هذا الطفل له أم تبكي عليه.

قالت الأم الغبية:

-ولكن هذا كتف خروف.

قال المقاتل:

-رأيت كثيرا مثله هناك.

لم يشرب النبيذ فقد رأى كثيرا مثله هناك، وخرج.

(8) من هم؟

هم المحللون الذين يشيرون على الغزاة كيف يجعلون القتل أجدى.

..الذين لا يشاهدون إلا ما يرونه على شاشات القاتل.

..الذين لا يعرفون أو ينكرون أن الحرب بدأت قبل قرن.

..الذين يكرهونك لأنك عربي.

..الذين يتمنون أن تكون هناك ليسهل قتلك.

.. الذين حطم وجودك هنا حلمهم الكبير.

.. الرابحون من «مصائب قوم عند قوم فوائد».

.. الذين يعلقون العلم على سياراتهم ليشهروا عنصريتهم.

.. الذين يعتقدون أن على الغزاة أن يقوموا بمحو أرض عن بكرة أبيها.

هم الفاشست أو أشباههم.

أرجو يا صديقي ألا تكون واحدا منهم، لنحيا بسلام.

(9) من أنت ومن هم؟

لم

تنته الحرب بعد. عندما تنتهي الحرب سيستعد الطرفان للحرب القادمة. يقول المؤرخون إن هذا هو الأمر الطبيعي على مر العصور. المعتدي سيفكر بتطوير أساليب القتل والتدمير والمعتدى عليه سيفكر بأساليب الحفاظ على بقائه وعلى حياة أطفاله. والفلاسفة يوافقون على ذلك غيبا.

ويقول السوسيولوجيون:

إذا أردت أن تعرف مستوى أخلاقياتك فاسأل نفسك:

هل أنا مع من يطور أساليب النجاة ام مع من يطور أساليب القتل؟

مع المعتدي أم مع المعتدى عليه؟

أوقفوا المجزرة!

امنعوا الجريمة القادمة!

(10) السؤال المصوب إلينا

ماذا يفعل الإنسان الذي يكتشف أن لا أحد يهمه أمره ؟

يعمل على تمكين نفسه وتقوية إرادته ويوسع دوائر حريته ويعلن استقلاله.

لماذا يبحث قياديو شعبنا منذ مائة عام عن أوصياء؟ مرة بريطانيا العظمى ومرة المانيا ، مرة الأردن ومرة مصر ومرة روسيا ومرة أمريكا ومرة سوريا

ومرة إيران ومرة تركيا....

هذا السؤال يؤرقني كلما حلت بنا حرب لأن ما يشغلني في الحرب هو السؤال:

من يدفع الثمن؟

(11) إلى أين يعود الجنرال؟

يبدو أن هناك من يريد أن يعيد كل شيء إلى سابق عهده .

بالنسبة لهم ما كان هو ما سيكون .

ولكن ماذا عن الناس الذين فقدوا أعز ما عندهم؟ عيالهم ومالهم وآمالهم وأحلامهم وفرحهم ؟

ماذا ستقول يا سيادة الرئيس لام ثكلت اولادها وزوجها وليتيم فقد أهله ولأسرة صارت السماء سقف بيتها والظلام صار جدرانه ويفرش الأرض لينام؟

سيظل الجنرال الذي أصدر الأوامر بالقتل والتدمير يفخر ببطولاته على جثث الأبرياء ويفخر الآخرون به ويعود إلى زوجته يضاجعها في نهاية الأسبوع وفي بداية الأسبوع التالي يعود ليصدر الأوامر بالقتل والتدمير، كأن شيئا لم يكن.

سيظل الفاسدون والأغبياء والقتلة والسفهاء على مقاعدهم يمارسون الزنى السياسي وغيره كما كانوا في سابق العهد وليقنعونا أنهم ابطال فقط لأنهم نجوا من الموت .

سؤال شخصي لكل من يقرا هذه الكلمات :

هل انت بقيت كما كنت في سابق عهدك؟

هل تسأل كل الاسئلة؟

هل صرت تفهم الحياة بمعنى آخر ؟

هل تفهم الموت بمعنى آخر؟

هل صارت البطولة تعني لك كما كانت في سابق العهد؟

هل صار للعدل والاخلاق والكرامة والبقاء والمقاومة والجريمة لغة أخرى ومفردات صائبة؟

أعلنت هدنة بيني وبيني ليتسنى لي أن أبحث عما هو أجمل وأرقى وأعدل.

لا أعرف إلى أين ستاخذني ولكنني أعرف أن لا شيء سيبقى على سابق عهده.

سأسميها : ثورة الرجل العادي!

ثورة الرجل العادي!

الرجل العادي!

ثورة!

(12) في انتظار الجولة المقبلة..

هدنة؟

هدنة بين حربين؟

بين موت من قدّر له ، بمشيئة جنرال ، أن يقتل أمس أو أن يقتل غدا.

لتكن هدنة وليس في غزة فقط.

بعد هذه الحرب كل مكان صار غزة. وكل مكان يحتاج إلى هدنة .

في هذه الحرب قتلت ضمائر وجرحت مشاعر وانهارت قيم وانتشر الكذب وتطايرت السفالات وتخندقت العنصرية ومترست الكراهية.

هدنة؟

لتكن من أجل مراجعة الذات ومحاسبة الآخرين!

ستأتي الجولة القادمة، كيف تصمد وكيف تتقي الموت وكيف تضمن النجاة وكيف تستعيد قيمك وانسانيتك وكيف تحول الصحراء إلى جنة تجري تحتها الانهار لا في السماء بل على الأرض وكيف تنظف نفسك من النفاق ومن العنجهية ومن مزاعم البطولة الكاذبة ومن عنصريتك البدائية ومن أنانيتك المنفلتة ومن ذاتك المضطربة ومن وعيك المشوه ومن غضبك على الناس إلا على نفسك البائسة ومن تقديسك للقوة ومن احتمائك بسلاحك الفتاك ومن تبهمك لمرأى الأشلاء ومن بلادتك أمام مشاهد الخراب.

هدنة؟

كم نحتاج جميعنا إلى هدنة لنضع كل شيء في مكانه الصحيح ولنتخلص من الغوغاء وما هو ليس منا بل كالجرثومة التصق بخلايانا. نحن البشر الذين داهمتهم هذه الحرب من قريب أو بعيد.

(13) رسالة الغفران

لا أعرف لماذا تأخذني هذه الهدنة المفتعلة إلى ديوان الشعر العربي، لأقرا ليس قصائد الحماسة ولا الخيل والليل والبيداء تعرفني ولا البكاء على الاطلال، بل إلى امريء القيس في وصف حصانه وإلى عقلانيات أبي

العلاء المعري وإلى صعلكة الشنفرى وروحانيات ابن الرومي ووجدانيات الحلاج وفكر ابن عربي، وحتى فلسفة جبران خليل جبران وإيليا أبي ماضي، وإلى انسي الحاج وأدونيس وإلى الذين نعرفهم في شعرهم وحياتهم منا هنا ..

أعود إلى البلاغة العربية وإلى عهود التنوير وإلى ما قدمناه عبر التاريخ...

تعود إلى هناك فرحا وتعود من هناك حزينا...

ليش هيك صار فينا؟

هنا! حالة لا مثيل لها في التاريخ.

هنا! الوطن ليس دولة والدولة ليست وطنا، كما في كل مكان إلا هنا.

هنا! الوطن باق والدولة عابرة.

هنا! الوطن لك والدولة لهم.

هنا! تكون متفائلا فقط لأنك تتقن قراءة التاريخ وتثق بنفسك.

هنا! ليس أمامك إلا أن تعود إلى ذاكرة الحياة لا إلى ذاكرة الموت.

هنا! عش وسر الصديق! لا تمت! فموتك يسر العدا!

يسألونني في هذه الأيام: كيف الحال؟

أقول: عادي. تماما عادي. المليح عادي والعاطل عادي. وأخاف من المفاجآت لأن كل مفاجأة ستكون سيئة. الأفضل أن نبقى على العادي.

أشعر بحزن ما لأن سقف الأمل انخفض

تقول ندى في أعمالها الخزفية: المكسور له الحق في الحياة والمشوّه يمكن ان يكون جميلا.

ندى ترفع سقف الأمل فأفرح من جديد

شكرا لندى القيّمة على مزاجي اليومي

أنا هي والخريف

- 6 -

لم يتوقف هطول المطر في ذلك الأسبوع.

هبطت درجات الحرارة واشتدت الرياح وتحول الرذاذ الى برد ذاب بسرعة على الأرض التي أغرقتها المياه.

في الليلة الرابعة توقف المطر وهدأت الرياح وانتظر الجميع يوما صحوا لكن في منتصف تلك الليلة وبينما كان نائما استيقظ على ارتجاجات في الدار ثم سمع صوت انهيار قويا فوقف على رجليه والى جانبه زوجته التي قالت بصوت عال:

الله يحمينا ، الله يحمينا.

فتح الباب وخرج ولم تخف العتمة فظاعة ما شاهدت عيناه.

لقد انهارت الغرفة التي سكن فيها ابنه وزوجته وحفيدته الصغيرة.

صارت كومة كبيرة من الطين والتراب والحجارة وتطاير غبار كثيف ولم ينطلق من بين الردم صوت ولا حتى حشرجة.

للحظة خيّم هدوء تام ثم أطلقت زوجته صرخة دوّت في سماء القرية:

جاي يا غلمان، جاي يا غلمان.

الظلام الدامس خيم على المكان.

لم يعرف كيف يبدأ بإزاحة الركام وبماذا، فليس معه معول ولا ما يضيء به، وصارت زوجته تلطم على وجهها وجلجل صراخها وهي تطلب النجدة وتندب ابنها وزوجته وابنته.

في لحظات بدأ الناس يصلون ومنهم من حمل القناديل مع الشموع او قناديل الكاز واللوكسات، ولما أضاءوا المكان ذهلوا لمشاهدة البيت الحجري الجميل وقد انهار نصفه فبدأوا برفع الحجارة أولا.

في خلال ثوان انتظموا في دائرة حول الردم وصاروا يرفعون الحجارة ويتناولها الشبان ويلقون بها على الطريق ثم بدأوا يجرفون التراب والطين بحذر، بالمعاول ولكن بعد ذلك بأيديهم وبعد نصف ساعة ظهرت قدم ثم قدم أخرى وعندما تكشف جسد الابن كمال شق والده طريقه إليه وانحنى ليجس نبضه باليد الأولى ثم الثانية ثم وضع أذنه على صدره وصرخ:

الولد راح!

وظل الرجال يجرفون التراب إلى أن ظهر جسد زوجته. كانت هي أيضا جثة هامدة.

أزاح الرجال الجثتين ثم نقلاهما إلى البيت وسط عويل وصراخ النسوة اللواتي أحطن بالوالدة وبعد لحظات انهارت وأغمي عليها ولما استيقظت

صرخت بأعلى صوتها:

زينات، زينات.

ظل الرجال وفي مقدمتهم الجد يجرفون التراب والحجارة بحثا عن زينات وبعد لحظات سمعوا بكاء انبعث من بين الركام.

صرخ الجد:

انتبهوا أنها على قيد الحياة بحذر! بحذر.

ساد صمت قطعه بين الحين والآخر صرخات الجدة من البيت لكن التقط الجميع أنفاسهم عندما أزاحوا حجرا كبيرا عن السري الهزاز الذي كان بجانب الحائط.

حماها الحجر من تساقط الحجارة الصغيرة وسحبها جدها من السرير وحملها وهو يضمها إلى صدره ويصيح بأعلى صوته:

البنت عايشة، البنت عايشة، زينات، زينات!

لم يتمالك أحد شعوره فانفجر الرجال والنساء ببكاء مرير امتزج فيه الحزن على موت كمال وزوجته والفرح بإنقاذ الطفلة الصغيرة زينات ابنة العامين التي ستكبر مع جد انقلب عالمه وجدّة انهار عالمها تماما ولم يقو جسدها على الصمود ولا روحها على فقدان وحيدها ولم يخفف عنها ان طفلة من لحمه ودمه ظلت على قيد الحياة، ففارقت الحياة بعد ثلاثة شهور.

فجأة توقف قلبها عن النبض في يوم ربيعي مشمس ودافئ.

ذهبت ليس قبل أن تسأل زوجها :

لماذا لم تغير اسمه؟ قال لك الشيخ أن الاسم لا يلائمه، لماذا لم تغير اسمه؟

ذهبت وبقي الجد مع طفلة لا تعي ما يحدث ولا تعرف شيئا حولها.

بقي في غرفتين من البيت الكبير بعد أن أنهى الجناح القريب من الشارع وفي اليوم التالي أزال الرجال الردم، وجمعوا اشياء كمال الصغيرة وأساور زوجته لتبقى شاهدة على شاب في العشرين من عمره وزوجة أحبها سرا. رآها لأول مرة في ساحة البلد الغربية. كان واقفا مع اصدقائه ومرت من هناك. التفت فالتقت نظراته المراهقة بنظرات خجولتة وابتسامة انفرجت في وجه قمحاوي وعينين خضراوين ومضت لكنها أوقدت في صدره نارا ظلت تشتعل وتشتعل في لقاءات سرية تنوعت مواقعها لإبعاد الشبهات ولما يذهب كل منهما إلى بيته يبقى مع أحلامه وطيف الحبيب إلى أن تحقق الحلم وكان عرسهما أكبر ما عرفته القرية.

مع هذه الذاكرة والسؤال القاتل: لماذا لم تغير اسمه، بدأ الجد حياة جديدة بين يديه الطفلة زينات التي أصر هو على تسميتها ولم يذهب إلى منجّم ليسأل إن كان يناسبها ، من يعلم؟ ربما لو كان اسمها لا يناسبها لقتلت هي أيضا تحت الركام.

زينات الطفلة الجميلة ذات العينين الزرقاوين، ظلت على قيد الحياة.

فقد ابنه وزوجته وهي ظلت دافعه لمواصلة الحياة.

رفض أن يسلمها لأحد.

أصر على أن تبقى بين يديه ومعه في الليل وفي النهار.

طلب من مدير الجمارك أن يحيله على التقاعد المبكر. وافق المدير دون تردد.

الكل من حوله يعطف على الطفلة وعليه، يأتون إليه ويحضرون معهم الحليب والخبز والجبنة والبيض. يدعونه لتناول الغداء او العشاء، يحمل البنت على ذراعيه ويخرج من البيت إلى أصدقائه او أقاربه، تماما مثل جميع الأمهات مع أطفالهن الصغار.

يرفض أن يشفقوا عليه، أو على البنت، هو يغسلها وهو يطعمها ويسقيها وهو يحكي لها الحكايات ويهلل لها ويغني بصوت رقيق وحزن عميق ينبعث من صميم ذاته الصابرة.

كلما نظر إلى وجهها الملائكي اعادته إلى العالم الذي بحث عنه في شبابه، إلى تأملاته في الفلك ومعاينة النجوم اللألاءة في السماء، إلى الحكايات عن ملوك خراسان وخرافات الهند وإلى ابنه وحيده الذي كان يحلم مثله بالتحليق في الفضاء.

كم هي جميلة هذه الطفلة التي بين يديه، كأنها قادمة من تلك البلاد البعيدة التي زارها، من سمرقند وبلاد الشيشان، مثل عينيها رأى عيون أطفال في بخارى ومثل بشرتها البيضاء رأى في قرية قفقاسية نائية على الجبل. أميرة هي زينات من اميرات الف ليلة وليلة. ربما أنها الشيء الذي لا يعرفه والذي كان يبحث عنه في سفره إلى البلاد البعيدة خلف الجبال لعلها الحلم الذي لم يحلمه، أو هي الملاك الذي هبط عليه ليمتحنه، أو ليخلصه من شكوكه ويعيده إلى يقينيته فيسهل عليه قبول الحياة على علاتها.

زينات اسم جميل حمله معه من بيروت.

لم يكن اسما لفتاة أحبها، بل لطفلة صغيرة في العمارة التي سكن فيها. ربما رأى الطفلة مرتين او ثلاثة، ولكن كان يحب صوت أمها تناديها بلكنتها اللبنانية الرقيقة:

زينات، وَيْنك يا زينات؟

هل يذهب إلى المنجّم ليسأل إن كان اسمها يناسبها؟

هل صدق المنجم آنذاك عندما قال له بثقة كبيرة أن اللّه لن يوفق ابنك إن لم تغير اسمه؟

ماذا يعني لن يوفقه اللّه؟

هل هذا يعني أن ينهار عليه البيت ويقتله هو وزوجته؟

لو غير اسمه هل كان سينجو من هذا المصير؟

هل يحمل موت ابنه في ذمته وضميره؟

هل هو المسؤول عن موته؟

سيغير اسم الطفلة زينات دون ان يذهب إلى منجّم او قارئة الفنجان سيبحث لها عن اسم جميل من تلك البلاد الجميلة التي يتوق اليها.

عندما تكبر وتلعب في ساحة الدار سيناديها:

زينات، وَيْنك يا زينات؟

مثل الأم البيروتية، وَيْنك يا زينات؟

لا! هو لا ينطق مثل اللبنانيين، لا يتمتع بنعومة ورقة تلك الأم البيروتية.

كانت تنام على حكاياته وأغنياته، تستلقي على فرشتها وترقب حركاته وهو يحكي لها ما ينسجه خياله او ما يخطر بباله مما كان سمعه أو قرأه في رحلته الطويلة إلى بلاد الحكايات الجميلة (كما كان يسميها) وكان يمثل الحكاية بحركات خفيفة ومضحكة فتضحك الطفلة الطيبة وتقهقه وتطلب ان يعيدها.

كان يخترع الحكايات ولما تطلبها ثانية في اليوم التالي يحاول أن يتذكرها ولا يفلح فتتذكره هي التي سمعتها مرة واحدة، ويقبّلها في جبينها مبديا إعجابه بذكائها ويواصل الخلط في الحكايات والخربطة في الكلام ويقول كلمات لا تفهمها فتضحك وتطلب المزيد.

هكذا يتكلمون في بلاد الشيشان:

استا بندا كيرا ميرا شيكا بيكا زينات الحلوة بيسا درو.

تقهقه وتطلب المزيد إلى أن يداعب النعاس جفنيها فتطبقهما بعد مقاومة عنيدة ولكنها تستسلم فينظر إليها وينهض من مكانه بهدوء ويجلس على كرسيه خلف طاولة تراكمت عليها الكتب ويقرأ إلى أن يشعر بنعاس يغشي عينيه وعندها يخفض ضوء القنديل ويندس في فراشه.

لم يكن يتصور أن حفيدته ستحب البلاد التي أحبها وأمضى فيها عاما كاملا يبحث عن حكاياتها وأساطيرها واكتشافاتها وكان يحلم أن يعود إليها لكن داهمته هموم الحياة عندما وافق على الزواج وعندما أنجب ابنه الوحيد الذي فقده بعد عشرين عاما وترك له طفلة طيبة وسؤال والدته القاسي:

لماذا لم تغير اسمه؟

استقلال/ نكبة أو كيف توقفت عن كتابة الشعر؟

كانت حبات الأرز تتساقط علينا كزخ المطر والصبايا يحدجننا بنظرات الإعجاب

في طفولتنا نشأنا على الاحتفال السنوي بعيد الإستقلال مثلما نشأنا على حليب الضأن، ولأننا كنا نكره المدرسة والتعليم فقد انتظرنا بفارغ الصبر قدوم هذا اليوم، لأن الدراسة كانت تتعطل لمدة أسبوعين وأكثر بسبب انهماكنا جميعا بالاستعداد للاحتفالات.

كانت المدرسة تتحول إلى ورشة عمل شاركنا فيها بحماس في تنظيف ساحة المدرسة وغرس الأشجار والورود ورشق الجدران بالكلس الأبيض لتخفي آثار البول التي كنا نخلفها (في غياب المراحيض) والوحل الذي كان يخلفه الشتاء الماطر (من الشوارع غير العبّدة)، وكنا ننشغل بلا هوادة بتزيين الغرف ومد الحبال لتعليق الاعلام الصغيرة ونصب الأعمدة لترفرف عليها الأعلام الكبيرة، وكانت فرق الكشاف تستعد يوميا «للمارش الكشفي» الذي كان يجوب في شوارع القرية يحمس الناس للوصول إلى الاحتفال في ساحة المدرسة، ومن خلف الرهط يتراكض الأطفال الأصغر منا وهم يرقبون حركاتنا بإعجاب وانفعال، ولما نطوف في الشوارع كانت حبات الأرز تتساقط علينا كزخ المطر وزغاريد الأمهات تنطلق من الشرفات، والصبايا يحدجننا بنظرات الإعجاب، إلى أن نعود في ساعة بدء الاحتفال إلى ساحة المدرسة ونشق طريقنا بين الجموع ويشتد حماسنا طبلا وزمرا، فيقف الجالسون على أرجلهم يصفقون كأنهم يستقبلون فيلقا عسكريا عاد منتصرا من معركة «حياة أو موت».

كان معلم الرياضة يدرب فرقة رياضية على الألعاب الخفيفة وبناء الأهرامات بأشكال مختلفة تكتمل بأن يتسلق طالب، قصير القامة، نحيل البنية، على الأكتاف ويلوح بعلم الدولة وسط عاصفة من التصفيق.

كان المدير يقرأ نفس النص في كل عام وإلا كيف حفظنا خطابه عن ظهر قلب؟

في خلال أسبوعين كانت تتألف جوقة موسيقية لتنشد «بعيد استقلال بلادي غرد الطير الشادي»، وكلما اقترب موعد الاحتفال ارتفع ضغط الدم في شرايين مدير المدرسة فيروح ويجيء مهرولا ويصيح على هذا المعلم وذاك ويتنقل بين الغرف كأنه قائد عسكري يستعد لمعركة حاسمة، فيأمر بتعليق الأعلام في الغرف وصورة لرئيس الحكومة وأخرى لرئيس الدولة وقائد أركان الجيش ويأمرنا بأن نرسم ونلون ونعلق على الجدران ونكتب مواضيع الانشاء عن الدولة والاستقلال ويعدنا بجوائز «قيمة»، رأسمالها قلم حبر أو كتاب صدر عن «مكتب الإرشاد والتنوير»، ولا ينسى أن ينبهنا، بما لا يقبل التأويل، أن اللباس الموحد في يوم العيد هو القمصان البيضاء وبناطيل «الكاكي»، ولم يكن القميص الأبيض متوفرا في الخزانة إلا إذا حل هذا العيد بعد العيد الكبير، ويواصل المدير جولاته وصولاته في ساحة المدرسة متفحصا كل كبيرة وصغيرة، وإذا قبض على طالب يتسكع في الساحة، فيقوده إلى غرفته ليأخذ نصيبه من قضيب الرمان الذي كان له مكان مرموق على طاولته !!

بحضور الأهالي والضيوف من المجلس المحلي والوزارة، كان المدير يفتتح المهرجان، فيبدأ خطابه السنوي بقوله: «بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن زملائي المعلمين أحييكم وأحيي دولتنا إسرائيل الفتية في عيد استقلالها الثامن، التاسع، العاشر إلخ..» ويذكر الرقم، وكنت وما زلت أعتقد

حتى اليوم أن المدير كان يقرأ نفس النص في كل عام ويبدل الرقم فقط، وإلا كيف حفظنا خطابه عن ظهر قلب؟ وحين كان يتحدث عن معنى الحرية والاستقلال وإنجازات الدولة وعلى رأسها قانون التعليم الإلزامي، كان الجمهور يصفق، وعندها ينهي الخطاب بهتاف: «تعيش دولة إسرائيل»

ونردد بأعلى صوتنا:

«تعيش! تعيش! تعيش!»

ثم يبدأ البرنامج الفني، ومن كان محظوظا منا وأنعم عليه بالمشاركة في إحدى الفعاليات فقد أمضى يومه سعيدا لا تقوى الأرض على حمله، وأما الذين كانوا من الخائبين فقد انطووا على أنفسهم في إحدى الزوايا وبحثوا عن مبررات لعدم اشتراكهم، ردا على سؤال الأب الخائب الغاضب: «ليش ما اشتركت في شي؟ ابن فلان وابن فلان أشطر منك؟» ويصبح مقياس الشطارة الاشتراك في احتفالات الاستقلال، وأما أنا، وأعوذ بالله من كلمة أنا، ولأنني كنت أكتب الشعر في ذلك الوقت ولقبت بشاعر المدرسة، فقد كنت أكلف في كل عام بكتابة قصيدة للمناسبة، وكنت أخربش بعض الأبيات فيأخذها معلم اللغة العربية ويكتبها من جديد ويدربني على قراءتها وأحصد عاصفة من التصفيق محتفظا بلقبي دون منازع، وكان هذا المشهد يعود في كل عام، وأقسم أنني لم أقرأ القصيدة نفسها مرتين، خلافا لخطاب مدير المدرسة وربما تحديا له، وقد كان بيني وبين المدير ثأر يبدو أنني أحمله كالصحراوي أربعين عاما، وها أنا أبحث عن فرصة مواتية لأنتقم.

اعتقدت أن العشق العذري هو حق للشعراء الذين يحق لهم ما لا يحق لغيرهم

ألبسني مدير المدرسة تهمة الشعر وحرمني من كتابة الغزل فأفرغ شراعي من الهواء، فأنا لم ألقب بشاعر المدرسة لأنني كنت أكتب قصائد المناسبة، بل لأن المدير ضبط معي قصائد حب وغزل في الحصة الأولى من نهار خريفي جاف فقرأها على مسامع الطلاب وقال ساخرا:

«عندنا شاعر عذري ولا نعرف؟..عمت صباحا يا عمر بن أبي ربيعة!»

وانفجر ضاحكا فتراقص كرشه الكبير وقهقه الطلاب وأنا دسست رأسي بين ذراعي وامتقع وجهي وانتظرت نهاية الحصة لأخلص من ورطة القصيدة، لكنها لم تنته على خير، فقد استدعاني المدير إلى غرفته لتحقيق عشقي عبثي.

«لمن كتبت هذه القصائد؟»

سألني بنبرة محقق جنائي أمسك بطرف الخيط في جريمة قتل، وأما أنا فقد تملكت أعصابي وقررت أن أعترف كقاتل أخته على شرف العائلة أو عاشق لا يخشى البوح بسره كالعاشقين من شعراء الجاهلية، ظانا أن المدير، هو إنسان متحرر ويقدر علاقات الحب الصريحة، خلافا لأهل بلدنا الذين كانوا يحرمونها كما يحرمون شرب الخمر.

قلت له مستجمعا قواي:

«كتبتها لطالبة من مدرسة البنات»

فانتفض على كرسيه وقد باغتته هذه الوقاحة التي صدرت عني في زمن كان يقتل فيه الرجل على غمزة عين أو نظرة طائشة، وأنا اعتقدت أن مثل

هذا العشق العذري هو حق للشعراء الذين يحق لهم ما لا يحق لغيرهم، وإلا من أين يأتي الإلهام لكتابة القصيدة؟

وتركني المدير في غرفته وغاب، لكن ليس قبل أن يبلغني أنه سيوفد أحد المعلمين إلى أهل الفتاة لإطلاعهم على أمر هذه الفضيحة، وانصرف وبقيت وحيدا أطل من الشباك وأرقب موتي والعصي تنهال على رأسي، ومر في مخيلتي شريط لاشتباك دموي بين عائلتها وعائلتي ولبيوت تلتهمها النيران، وكان المدير يشعل النار في صدري كلما دخل إلى غرفته وحدجني بنظراته وقال :

«بعد شوي! الجماعة على الطريق !»

وكنت أهدىء من روعي حين أتساءل بسذاجة أقرب إلى الغباء:

«ما دخله في عشقي ومغامرتي العاطفية؟ هل الحب محظور على شاعر رقيق مثلي؟»

ولكن بعد ثلاث ساعات انهرت تماما واختمرت في نفسي الكذبة الكبرى مستعينا بها لتخلصني من هذه الورطة الدموية. قلت له:

«يا أستاذ! أريد أن أكشف لك بصراحة أنني لم أكتب هذه القصائد وهي ليست لي..»

وقهقه المدير وصار يرتج على مقعده كانه يجلس على كرسي الكهرباء، وقال وهو يحاول التقاط أنفاسه بعد أن باغتته السعال:

«ليش ما حكيت من البدايه ياحمار؟»

أمرني المدير بأن أنصرف فانصرفت وأنا أردد في نفسي:

«يبدو أن هذا ليس زمن العشق». فتوقفت عن كتابة قصائد الحب.

قال لي: «هل ما زلت تحفظ القصائد التي كنت تلقيها في عيد الاستقلال؟»

لم يبق لي حصة من الشعر سوى ما كان يأمرني مدير المدرسة إياه أن أكتبه على «شرف الاستقلال»، حتى إشعار آخر، فيأخذه معلم اللغة العربية ويكتبه من جديد وأقرأه أمام الناس وأحصد التصفيق، ويأتي المدير في اليوم التالي ليصافحني ويشجعني على الكتابة منبها إياي والآخرين من أن نكتب مثل هذا الشعر ولا أن «نتزعرن» في الكتابة، وقد أوكلت مسؤولية تربيتنا الأدبية إلى معلم اللغة العربية الذي كان واحدا من مجموعة معلمين أوفدوا من قرى المثلث للتدريس في دالية الكرمل، ولا أذكر أن معلم اللغة العربية أو أي معلم آخر «جاب سيرة الدولة بشيء عاطل» ولا نقل لنا شيئا من مواقفه الوطنية، ولكن طريقة تعليمه للغة العربية وقواعدها وأدبها وإخلاصه في تأدية رسالته التربوية كانت هي الجمرة التي ما زالت تبعث فينا دفء الانتماء العربي بالرغم من كل محاولات اطفائها. وبعد أن أنهيت المدرسة، فوجئت في أحد الأيام بمعلم اللغة العربية قادما إلى بيتي ويبدو عليه الاضطراب والهم، وقد كان أمرا غريبا أن يأتي معلم لزيارة طالب في بيته. قال لي:

«هل ما زلت تحفظ القصائد التي كنت تلقيها في عيد الاستقلال؟»

فاجأني بسؤاله وأثار شفقتي بالحزن الذي قطب وجهه فقلت:

«طبعا. لماذا تطلبها ؟»

وأخبرني أن أحد أبناء القرية أبلغ عنه أنه يحرض الطلاب ضد الدولة ويكتب القصائد القومية التي تمجد العرب وعبد الناصر، فاستدعي للتحقيق لدى المخابرات وقرروا طرده من سلك التعليم.

أعطيته قصائدي ووجدت منها ما هو بخط يده. قال وقد ارتسمت ابتسامة انفراج على وجهه:

«سآخذها لأثبت لهم أنني مخلص للدولة».

انصرف معلم اللغة العربية وأنا أخذت قرارا على نفسي ألا أكتب الشعر، ما دامت القصيدة تتحول إلى «شهادة حسن سلوك» تقدم للمخابرات.

في ذلك اليوم قررت التنازل عن كل الألقاب الشعرية وعن القصيدة ونذرت قلمي لفضح الفرية الكبرى عن معاني «الحرية والاستقلال» التي كان يلقننا إياها مدير المدرسة في الاحتفال السنوي، ويشهد علي قلمي أنني منذ ذلك الحين لم أكتب بيتا واحدا من الشعر.

قادتني القصيدة المحرّمة إلى عين غزال وأم الزينات وجبع واللجون وصفورية

كان والد معلم اللغة العربية الشيخ «أبو جمال» يملك بيارة كبيرة في قريته بالمثلث، ووصل إليها يوما وإذا بها مسيجة بشريط شائك وتحرسها دورية من حرس الحدود. حاول أن يدخلها فمنعوه وأخبره الشرطي أن البيارة ليست له وإذا وطأت قدماه عليها فسيقدم للمحاكمة بتهمة الإعتداء على أملاك الغير، فتوقف قلب الشيخ أبي جمال وسقط قرب الشريط الفولاذي الشائك، وأعيد محملا من بيارته ليدفن دون أن يترك وصية لأهله.

لم يحدثنا معلم اللغة العربية حين كان معلما، عن قصة أبيه، فقد سمعتها عنه عندما تناول القصائد من يدي وأقسم أن ينتقم من أولاد الحرام الذين خربوا بيته وقطعوا رزقه، ولم أفهم حتى اليوم لماذا لم ينتقم

من الذين قتلوا والده وسرقوا أرضه، وتساءلت في تلك اللحظة: هل يحملنا ثأر أبيه نحن الذين ولدنا في عهد الدولة الفتية؟

منذ ذلك الوقت صرت أغرب عن الأمور الكبيرة وأبحث عن الصغائر، عن الحقيقة الباطنية ودليل الحائرين.

وهكذا ادركت لاحقا بعد سنوات طويلة وغياب الطفولة المبكرة، أن الطفل الغريب الذي كان يقاسمني دون رغبتي «عروس اللبنة»، كان لاجئا مع أهله في بيت جدي، طردوا عام 1948 من قريتهم عين حوض، فلجؤوا إلى بيت جدي وعاشوا معنا عدة سنوات إلى أن سمح لهم بالعودة إلى أرضهم القريبة، لا إلى بيوتهم التي استولى عليها الفنانون، ثم قادتني القصيدة المحرمة إلى عين غزال وأم الزينات وجبع واللجون وصفورية وإلى مئات القرى التي قامت عليها الدولة «الفتية»، وتحول عيد الاستقلال من يوم فرح إلى يوم حزين اعتدت فيه أن ألتزم البقاء في البيت، أستعيد تفاصيل ذلك التاريخ من الذاكرة الفردية والجماعية وأكتب، خاصة عندما تحلق الطائرات في سماء قريتنا، في يوم الاستقلال لتبهج الأطفال في مكان ما أو لتقصف بهجة أطفال آخرين في مكان آخر وأيام أخرى، بل صرت أذهب إلى أبعد من ذلك في الكتابة، كأنني أخشى أن أفقد معلومة تجيبني على سؤال محير:

هل سأعود يوما إلى كتابة القصيدة؟



مقالات وفلسفة

مناخ الانتحار وغياب المنتحر

(ألقيت في مؤتمر علماء النفس، أم الفحم، أيار 2009)

لست باحثا نفسيا في سلوك النفس وفي خباياها، ولكنني ككاتب أحاور النفس البشرية، أؤنبها حين ترتكب الخطايا وأغازلها حين تتفنن في أصناف الحب.

أعتبر رسالتي في الحياة هي، أولا وآخرا، الدفاع عن حق هذه النفس في الحرية والأمان والعطاء، وعلي أن أعمل لخلق فضاء واسع لها كي تظل متوهجة، مشرقة دائما، خلاقة دائما، ودائما تدفعنا إلى التمسك بالحياة.

ان مأساتنا الكبرى، نحن العرب واليهود في هذه المنطقة، هي أننا أصبحنا نتفنن في تمجيد الموت والانتحار، واختراع الطقوس والمراسيم البكائية، ونتبارى أحيانا بحجم مآسينا، لكي نقيم الحق في الوجود على الموت وليس على الحياة، ونبرر موتا بموت أكبر.

نقيم طقوسا للموت أكثر من أي شئ آخر، ونمضي أياما طويلة مع الموت في صناعة ذاكرة الانتحار من فاجعة «مسادة» وحتى تفجير آخر باص، وقد يجادلني البعض بعبثية رهيبة: أي انتحار مشروع أكثر، وأيهما أفضل؟ وسننشغل، إذا ما اشتعل النقاش، في التنافس على تبرير القتل اللامشروع أخلاقيا، دينا وعقيدة.

سأذهب في حديثي هنا إلى مكانين قد لا يصل إليهما البحث العلمي، وهما: مناخ الانتحار وغياب المنتحر، وإذا كان البحث العلمي يعلمنا بأن دوافع الانتحار قد تكون اليأس أو الهروب أو الخلاص الوهمي والوصول إلى عالم آخر، فان مناخ الانتحار هو استساغة حالة الموت بتحويله إلى

شكل من أشكال البطولة. وقد فعل ذلك كثير من الأدباء بأن انتحروا أو أبدعوا في انتحار أبطالهم. وعليهم سألقي الضوء لأنني قادم من هناك.

انتحار الأدباء

يخون الأدباء رسالتهم الأخلاقية إذا اختاروا الانتحار، لأنهم بذلك يسهمون في خلق المناخ ليس فقط لأنهم يتفننون بعملية الانتحار ليجعلوها مشوقة كابداعهم، بل لأنهم في نهاية الأمر سيشكلون قدوة تحتذى وهم الأسماء اللامعة التي نحبها ونتمثلها، ونتعاطف حتى مع جنونها، أما هم فيرتكبون بانتحارهم جريمة كبرى، كجريمة امبيدوكليس الفيلسوف الإغريقي الذي ألقى بجسده في البركان كي يتحول إلى إله خالد دفعه اليه إحساس وهمي بالعظمة، أو الشاعر العربي عمر ابن كلثوم الذي قتله كبرياؤه القبلي فشرب الخمر حتى الموت.

لا يجوز للأدباء أن ينتحروا ولا يجوز لنا أن نمجد انتحارهم، بل لنقل أن فرجينيا وولف كانت كاتبة عظيمة ولكنها عندما وضعت على جسدها الأثقال وألقت بنفسها في النهر، أصبحت إنسانا غبيا، ولا يشفع للأمريكي العظيم أرنست همنغوي أنه أصيب بعجز عن الكتابة فأطلق الرصاص على رأسه، فسلك بغباء حتى خلافا لأبطاله الشجعان في «الشيخ والبحر» و «لمن تقرع الأجراس».

لقد كان رهيبا وحقيرا أن ينقل التلفزيون الياباني انتحار الكاتب العبقري يوكو ميشيما، حين أعد توليفة لانتحار معلن مسبقا على طريقة الهراكيري غارزا الخنجر في معدته ثم قام سياف بقطع رأسه، متوهما أنه بهذا سيحرر اليابان من سيطرة أمريكا، أو مثلما اعتقد خليل حاوي شاعر لبنان العظيم انه بانتحاره يوقف زحف الدبابة الإسرائيلية على لبنان في حزيران 1982.

لم يوقف أي انتحار زحف دبابة، لا في براغ ولا بيجين ولا في لبنان ولا في العراق ولا في فلسطين، لأن المنتحر لا يدرك بجهله أن الدبابة جاءت لتقتله وعندما يلقي بجسده تحت جنازيرها فقد حقق بذلك هدفها لا هدفه مهما كان ساميا وأصيلا.

الشجاعة أن تبحث عن وسيلة لتحطيم الدبابة شرط أن تبقى أنت على قيد الحياة. أو كما قال سقراط: الجندي الشجاع هو من يعرف كيف ومتى يدخل المعركة ويخرج منها حيا.

ترك الكاتب النمساوي ستيفان تسفايغ رسالة وانتحر مع زوجته في مهرجان جرى في ريو دي جنيرو بالبرازيل، قال في رسالته:

«العالم الذي أحببناه ولّى الى غير رجعة، ما عدنا الا أشباحا أو حزمة ذكريات».

هذه رسالة انتحار لا رجعة فيها، وهل يجوز لكاتب عملاق أن يقول لنا: ما عدنا إلا أشباحا، ثم ينتحر؟

المناخ الدافئ للانتحار الذي يخلقه الأدباء، بوعي أو بلا وعي، هو أن يشعرونا بأن العالم الذي أحببناه ولّىّ الى غير رجعة، أي أن لا معنى لحاضرنا ولا أمل في مستقبل أفضل، مثلما فهمها أحد عشر شابا قرأوا «آلام فرتر الصغير» وانتحروا أو مثلما فهمتها فنانة عظيمة في قامة مارلين مونرو وشاعر كبير مثل ماياكوفسكي.

أساطير ورسالة الموت

يرتكب جريمة كبرى من يحاول أن يقنعنا بأننا غرباء في هذه الحياة، وأن وجودنا لا معنى له ولا قيمة، وأن هذه الحياة هي الحياة الدنيا وكل ما فيها دنيء، وأن لا أمل في خلاص فردي إلا إذا تحقق الخلاص الكوني، وأن ما هو لنا ليس لنا وأن ما هو نحن فليس إلا مخلوقات بائسة.

ماذا يعني الجمع بين البطولة والانتحار؟

عندما تعلمت في المدرسة أسطورة شمشون الجبار أعجبت ببطولته ليس لأنه استبسل في مقاتلة أعدائه وانتصر عليهم بقدرته الساحقة بل لأن معلمة التاريخ أشادت ببطولته عندما انتحر وهدم سجنه عليه وعلى أعدائه، أي قام بعملية انتحارية من الطراز الأول، فأين انتصر هذا الرجل الجبار عندما انتحر لئلا يستسلم أو عندما قتل معه أعداءه، انه قاتل ومقتول فكيف يكون بطلا على لسان معلمة التاريخ؟ هكذا تساءلت فيما بعد، ولم أعثر على المعلمة لتجيبني. وسمعت شهادات لجنود وضباط بعد حربين على لبنان أن قائدا كان يأمر جنديا من جنوده ليتقدم إلى مهاجمة العدو وهو يعرف مسبقا أنه لن يعود، وكان يتفاخر ببطولة الجندي الذي أخذ المهمة على عاتقه، فأين البطولة في هذه العملية الانتحارية؟

قد لا نقدر، نحن الأدباء والفنانين، على منع أحد من الاقدام على الانتحار، فهذا دوركم أيها الأخصائيون النفسيون، مثلما لا نقدر على منع نشوب أي حرب لأننا عاجزون أمام الجنرالات والزعماء، ولكننا قادرون عبر رسائلنا الإنسانية على خلق مناخ يعمق حب الإنسان للحياة ويقوي روح المقاومة فيه ونوجه أنظاره إلى الجميل في هذه الدنيا فيحبها أكثر وبالتالي يحب نفسه، أو ليحب الحياة عبر حبه لنفسه.

نحن قادرون على نشر رسالة تمجد الحياة وتحتقر الموت، فلا نجعل البطولة رسالة انتحارية، بل صمودا ومقاومة وفيضا من الإنسانية.

انتحار الشباب

يقودني الحديث عن الانتحار إلى مكان آخر، إلى غياب المنتحر، فهو باقدامه على هذه الخطوة يكون قد أنهى مهمته وأنهى وجوده، لكنه يظل حاضرا يعذب الذين أحبوه وأحسنوا إليه وهو يسبب لهم موتا بطيئا وعذابا دائما، ولو أنه يعرف جحيمهم لما أقدم على فعلته النكراء.

معظم المنتحرين هم من الشباب في مقتبل العمر أو قبل خريفه، وعندما أسمع عن شاب تنازل طوعا عن الحياة، أفكر به للحظة قصيرة ثم أفكر بمن لا يمكن أن يغيب عن بالها. أفكر بأمه.

عندما يختار شاب درب الانتحار، يبدأ الباحثون النفسيون عملهم بتوجيه السؤال العلمي: لماذا؟ وهو سؤال ضروري مثل كل أسئلة المحققين في أسباب الجريمة، وأذهب أنا الى الأمهات والأهل والى ذاكرته، وأسأل: لماذا لم تفكر بأمك أيها المنتحر؟ وهو السؤال الذي أسأله أيضا لقاتل شاب : لماذا لا تفكر بأم الضحية أيها القاتل؟

إن أكثر ما أخشاه في الحديث عن الموت والانتحار هو تحويل الإنسان إلى رقم في احصائيات ورسومات بيانية، وقد يكون هذا شغل الاحصائيين والباحثين ولكننا نحن الأدباء نرفض الأرقام ونبحث عن الإنسان من وراء الرقم، وفي هذا السياق حتى وإن تعددت الأسباب فيبقى الموت واحدا، والأم هي الأم ومنذ سقط ثلاثة عشر شابا قبل تسع سنوات وأنا أهجس بالأم التي فقدت ابنها وتفتقده، كلما أسمع عن موت شاب، انتحارا أو قتلا، يعود إلي مشهد الأم التي تدخل إلى غرفة ابنها بعد

غيابه الأبدي.

سأقرأ هذا المشهد كما كتبته قبل تسع سنوات دعوة للحفاظ على أرواح شبابنا واليهم :

فكروا بأمهاتكم قبل أن تموتوا!

فسحة من التعايش بين الألم والفرح

على الشاشة الصغيرة مشهد دموي من ليبيا. جثث شبان مكتوفي الأيدي ممددة على الأرض. كثرت في ذلك الأسبوع مشاهد الألم والموت. لم تعد تحتمل، ولأن أسهل الطرق للخلاص منها هو الضغط على زر الموجّه (ريموت كونترول) فقد ضغطت لتغيير المحطة.

على شاشة التلفزيون الإسرائيلي كان وجه الديكتاتور الليبي يملأ الشاشة على وقع موسيقى الكترونية وهو يردد بإيقاع منتظم: «بيت بيت، دار دار، زنكة زنكة». مشهد يثير الضحك بقدر ما يؤلم، عقبه خبر آخر على نفس الشاشة: طفل فلسطيني في العاشرة من عمره بين يدي شرطيين إسرائيليين من الوحدات الخاصة يجرانه بعنف إلى سيارة عسكرية وأمه تحاول أن تنزله من السيارة ولكن الشرطة تنتصر عليها وتغيب السيارة مع الطفل دون أمه.

يبدو لي أحيانا، بل في معظم الأحيان، أننا، نحن الذين نعيش في هذا الشرق، محكوم علينا بالمعاناة والألم، فما نخلص من حالة حتى تأتينا حالة أصعب، وأقسى ما فيها أننا أدمنّا على عذاب صامت وعلى بكاء ليس فيه دموع ونكتفي بأن نطلق زفرة أو تنهيدة في انتظار الصدمة القادمة. نعزي أنفسنا أحيانا بأن هذا هو قدرنا. حالة من التسليم والخنوع تنسجم تماما والروح القدرية التي تستولي شيئا فشيئا على هذا الشرق أو

نبرر عجزنا بأن «الكف لا يلاطم المخرز» فنختزل أنفسنا إلى مخلوقات هشة لا تملك القدرة على مواجهة قوة عاتية تضرب كموج البحر الهادر.

فرحنا لما شاهدناه في ميدان التحرير بالقاهرة، ليس فقط لأن الإنسان المصري البسيط والأعزل من أي سلاح انتصر على الإذلال، بل لأنه أعاد إلينا شيئا من ثقتنا بانفسنا وأعاد إلينا حلما كنا فقدناه أن لا بد أن يستجيب القدر لمن يريد الحياة. كانت حناجر المصريين تطرد اليأس وتبعد عنا ألم سنين، فعشناها أمام شاشة التلفزيون كأننا هناك نهتف ونغني، إلى أن عدنا إلى مشهد الجرافة تهدم بيتا وتقتلع زيتونة وطفل صغير يتلوى بين ذروع الجنود بعد أن اختطفوه من حضن أمه.

أنا فلسطيني لم يهجر من بيته. لم أعرف اللجوء إلا في بيت جدي حيث استضاف عائلة بأسرها من قرية عين حوض عندما كانت في طريق الرحيل عام النكبة وأمضت معنا ست سنوات إلى أن سمح لها بالعودة إلى الأرض القريبة من القرية، لكن لم يسمح لهم بالعودة إلى بيوتهم التي احتلها الفنانون.

لم أفهم عندما كنت طفلا لماذا لا يعودون إلى بيوتهم كما كنت أعود من المدرسة إلى بيتي. ولما كبرت وزرت بيوتهم القديمة والتقيت فنانين لا يؤلمهم أنهم يسكنون في بيوت ليست لهم أصبحت أفهم الألم على نحو يختلف عما كنت أفهمه صغيرا.

ألم الروح أقسى من ألم الجسد، لأن ألم الجسد إن مضى لا يترك أثرا وألم الروح يبقى حتى بعد أن يمضي. يختبيء ثم يظهر من جديد في الذاكرة والحلم والوعي.

ولدت في قرية جميلة على جبال الكرمل ولم أغادرها إلا لأيام قليلة منذ رأيت النور قبل اثنين وستين عاما ، ولا أعرف سر هذه الإقامة الدائمة في بلدة لا توفر لي شروط حياة تشبع رغباتي في تناول وجباتي اليومية الروحية ، فليس فيها مسرح ولا سينما ولا عروض موسيقية ولا مهرجانات. ألجأ إلى المدينة القريبة التي أحبها ، إلى حيفا ، التي تطغى عليها ثقافة أخرى ولغة أخرى، أتقن ثقافة الآخر الإسرائيلي جيدا ولكنها ثقافة القوي، ثقافة من يسبب لي الألم والمعاناة، فيحزنني أن هذا هو قدرنا نحن الباقين في وطننا ، ولا أخلص من شعوري بأن أحسده على قدرته الفائقة أولا على التعايش السلمي مع الخطيئة التي ارتكبها قبل ثلاثة وستين عاما ولا يزال وثانيا على ما يتوفر له من امكانات لصناعة ثقافة راقية يلف بها العالم.

محزن ومفرح أن أذهب إلى المدينة التي أحبها.

أحزن عندما أرى معالمها العربية تتآكل يوما بعد يوم وتختفي بيوت الحجر والأقواس لتحل محلها عمارات القصدير والزجاج العالية والرمادية بلا لون ولا شكل وتستحضر ذاكرتها يوم كانت منارة ثقافية فأطفأها غزو جاء من الغرب جهة البحر، يدّعي أنه يحمل حضارة لكنه دمر المدينة بهمجية بالغة.

أفرح لأنني أرى المدينة التي أحبها تستعيد نكهتها الثقافية الفلسطينية بمراكز ومسارح ومقاهي وصحف وقصائد وروايات وبين الحزن والفرح نحاول أن نبني حالة مستحيلة من التعايش، لا لشيء إلا للحفاظ على البقاء.

أفضل ما يوفره لنا هذا الواقع هو متسع للتأمل وللتفكير بالحياة، وعندما نكتب تراوح كتابتنا بين التراجيدي والكوميدي وبين الجاد

والساخر، فنتفنن بالجدية إلى حدود العبث ونتفنن بالسخرية إلى حدود العبث أيضا.

نبكي على حالنا ونسخر من حالنا.

وقد أدركت هذه الحالة قبل ثلاثين عاما عندما قررت أن أبحث عن الذاكرة الفلسطينية لدى الجيل الذي عاش النكبة وعرف ما معنى الخوف والتشرد والموت. ذهبت إلى هذا الجيل ليجيبني على سؤال قاس واجه كل أبناء جيلنا، نحن الذين ولدنا بعد النكبة، والسؤال هو: كيف حدث أن تركوا بيوتهم وقراهم وتحولوا إلى لاجئين بين ليلة وضحاها؟

كنت أعتقد أن هؤلاء الناس سيحكون لي كل شيء وسيفرغون ذاكراتهم بقصص وحكايات وشهادات من مصدرها الأول، ولكنهم صدموني عندما امتنعوا عن الحديث.

قال لي البعض: إن ما حدث لهم هو جرح مفتوح ولا يرغبون بأن نضغط عليه كي لا ينزف، ليس فقط لأن ألم التشرد موجع ولا يحتمل بل لأنهم يشعرون بالذنب عندما يسألهم أبناؤهم لماذا هربتم.

كان أمامهم خياران: الموت أو الرحيل، فاختاروا الرحيل لأنهم انحازوا إلى الحياة.

وقال آخرون: إنهم يخافون من الحاكم العسكري ومن السلطة الإسرائيلية.

كانوا مسكونين بملاحقة الحاكم العسكري رغم مرور أكثر من عشر سنوات على إلغاء الحكم العسكري. وعندما نطقوا وبدأوا

يسردون رواياتهم انكشف عمق الجرح وبشاعة الجريمة التي تعرضوا لها. لقد كبروا مع هذا الألم إلى أن فارقوا الحياة. حاولوا في البداية إخفاءه عن أبنائهم وأحفادهم لكي لا يتعذبوا هم أيضا، لكنهم كانوا يقولون لنا: أفعلوا كل شيء لكي لا يحدث لكم ما حدث لنا.

هل نجحنا؟

نحن أيضا فشلنا ونشعر بالذنب لأن جيلنا لم يضمن لأبنائه حياة أفضل، فمشاهد القتل ظلت تتكرر ولا تزال حتى كتابة هذه السطور في غزة والضفة الغربية وفي الجليل والمثلث نستيقظ كل يوم على مشروع جديد يهدد بترحيلنا وعلى قانون يضعنا أمام خيار الولاء للدولة الصهيونية أو التنازل عن وطننا وكان آخرها التحكم بذاكرتنا ومنعنا من إحياء ذكرى النكبة.

لماذا نواجه الألم بالسخرية؟

أتساءل أحيانا عندما تقسو علينا السياسة وأكتشف أن هذه هي الطريق الوحيدة التي تبقينا على قيد الحياة فنتجاوز الوجع أو نضعه جانبا وننشغل بما يضمن لنا استمرار الحياة.

نحن الفلسطينيين ككل شعوب الأرض نبني ذاكرة ولنا رواية تتشكل يوما بعد يوم وما سمعته من أهلنا كان الدعائم الأولى لذاكرتنا الشفوية عن الرحيل والموت، ولكنني رفضت أن تكون ذاكرة للموت فقط بل ذاكرة للحياة ايضا، عن حياة الناس في قراهم قبل أن تهدم، عن أغانيهم وسهراتهم، عن مواسمهم وحصادهم وعن عشقهم للارض.

إن من يبني ذاكرته على الموت فقط سيجد نفسه وأبناءه وشعبه أمام خيارين: إما الانتحار أو ارتكاب الجريمة، فلا نحن نريد أن ننتحر ولا

نريد أن نرتكب الجريمة ، كما فعل الإسرائيلي الذي بنى ذاكرته على الموت فقط منذ خراب هيكله وحتى الهولوكوست وواصل مشروعه حتى اليوم وهو يرتكب الجريمة تلو الأخرى ويمارسها بأبشع أشكالها في صيغة الاحتلال.

كم هو مؤلم أن ترتبط حياتنا بالحروب. ما أن ننتهي من حرب حتى نبدأ التفكير بالحرب القادمة. نعرف أنها ستأتي عاجلا أم آجلا لكن لا نعرف أين ستقع ومن هي الضحية القادمة منا أو من أهلنا ، والأشد إيلاما أن تقرن تواريخنا الخاصة والشخصية جدا بالحرب فنذكرها في سياق حرب مدمرة. أنا على سبيل المثال ولدت بعد حرب 48 ودخلت المدرسة في حرب السويس عام 56 وأنهيت الثانوية في حرب حزيران 1967 وتزوجت في حرب أكتوبر 1973 وولد طفلي في حرب لبنان 1982 ومات أبي في حرب الخليج.

سبع حروب كان جيلنا شاهدا عليها ، من نجا منها يعرفها بتفاصيلها وضحاياها وهي تعود إلينا في كوابيس الليالي القاسية. وعندما نصرخ «كفى للحروب» فاننا نقولها بكل جدية وألم، نحن نقصد ما نقول.

هل نستطيع أن نتحدث عن الم جماعي؟

هذا هو الألم الجماعي، إنه ألم الفرد في سياق الجماعة وهو مجموع آلام الأفراد وهو الذي لا ينتهي عند الأنا إلا إذا انتهى عند الآخر.

ما الذي يخفف الألم الجماعي إذا لم ينته وما الذي يخفف ألم الفرد؟

لا شيء أمام الجماعة إلا الأمل بأن مستقبلا أفضل ينتظرهم للخلاص ولكي يأتي هذا المستقبل ما عليهم إلا أن يقاوموا ويناضلوا وأن يعيشوا على فسحة الأمل وجدوى النضال، والألم الفردي يخففه البحث عن

بديل للموت وعن حياة تتجدد.

أعيش في قرية يؤمن أهلها بأن الجسد فإن ولا قيمة له وأن الروح خالدة وتنتقل من جسد إلى جسد بعد الموت. وما وجدت سبيلا لتخفيف ألم الموت والفراق أفضل من عودة الروح.

قبل عشرين عاما توفي والدي وكان شاعرا تأثرت به وأحببته كثيرا أنه أبي ولأنه أنجبني إلى عالم الشعر والأدب. حزنت وتألمت كثيرا على فراقه ولكنني سرعان ما تغلبت على هذا الألم عندما لجأت إلى عقيدة أهل بلدي حين أقنعوني بأن أبي لم يمت بل ولد طفلا من جديد. وأنا صرت أنتظره كل يوم فأخرج إلى ساحة البيت وأجلس مع قهوتي أنتظر طفلا يأتي ممسكا بيد أمه ويقترب مني ويقول لي: أنا أبوك، هل تذكرني؟ فأضمه إلى صدري ويكون نهاري سعيدا ويتحول ألمي إلى فرح عارم.

أنا لا أعد سنوات غيابه بل أعد سنوات هذا الطفل الذي أصبح اليوم في العشرين من عمره لكن المحزن انه لم يأت بعد. بين هذا الفرح وهذا الحزن أواصل الحياة وأكتب عن الفرح وعن الألم. عن الموت وعن الحياة. وعن الهزيمة وعن النصر وعن اليأس وعن الأمل. لا أسميه انفصاما بل شكلا من أشكال التعايش القسري. هو قدرنا وما علينا إلا أن نتمرد على القدر.

دالية الكرمل، آذار 2011

في غرفة الطوارىء

أمضيت ليلة في مستشفى الكرمل بحيفا في غرفة الطوارىء.

ليست المرة الأولى التي أمضي فيها الليل في مستشفى، وأنا لست من النزلاء «ثقيلي الدم» في مستشفيات البلاد. لا أحب المستشفيات مثلما أنني لا أحب الفنادق.

«اضطرابات في القلب». قال الأطباء.

أياما عديدة كنت أشعر باضطراب في القلب. لم يشبه مقدمات النوبة القلبية التي عرفتها قبل ثماني سنوات ولا الاضطرابات الخفيفة العابرة التي تأتي بين الحين والآخر.

اشتد الالم في الصدر وتضاعفت النبضات فأدركت أن الحالة «مش مزحة».

في خلال دقائق كانت عملية إجرائية غير عادية تجري بانتظام مثالي.

«إيناس» تنقلني بسيارتها إلى الطبيب. تبدو متوترة وخائفة. أحاول طمأنتها.

الدكتور فؤاد يجس النبض، يطمئن ان هذا مجرد اضطراب وليس نوبة قلبية.

استدعاء سريع لإسعاف العناية المكثفة، زعيق: «وي، وي، وي وي».

يقترب الصوت. يطمئن إلى حد ما ويثير خوفا ما في آن واحد.

أستلقي على ظهري. أسلاك. أضواء صغيرة في الأجهزة تشتعل وتخبو. صفير متقطع بين الحين والحين. لا أرى سوى ثلاثة مصابيح في السقف.

حاولت تجاهل الأوجاع التي خفت بعد تناول الأسبرين وصرت أتابع في ذهني طريق السيارة دون أن أرى أية علامة في الخارج، لا شجرة ولا بناية.

أعرف هذا الطريق من القرية إلى المدينة منذ خمسين عاما. كل طلعة ونزلة ومنعطف.

كم هو رائع أنني كنت هناك بسبب اضطراب في القلب وليس لكسر في الظهر أو العنق لأن «طجطجة» السيارة كادت تفكك كل أعضاء جسدي.

اكتشفت في هذه السفرة المضطربة أن شوارع بلادنا تنفع للدبابات، «كما يليق بدولة عسكرية» وليس لسيارات الإسعاف.

المهم وصلنا بالسلامة.

بين الستائر

رائحة المستشفيات كرائحة الفم الكريهة ورائحة الموت ممتزجتين.

الشاب الذي قادني على السرير المتحرك ضاعف سرعته بعد أن تجاوزنا البوابة الزجاجية الأولى ثم الثانية والثالثة وفي كل مرة يقول للحارس: اضطراب في القلب. كأنها شيفرة للسماح له بالدخول أو مثل الرقم السري في بطاقات الاعتماد.

لماذا نسميها غرفة الطوارئ؟

سؤال له علاقة باللغة في لحظة غموض بين الحياة والموت. هل هذا هو الوقت الأنسب لشرح معاني اللغة والدلالات؟ سأسميها غرفة التصنيف، هنا تصنف: إصابة، قلب، سكري، ضغط دم، ومن هنا تذهب إلى الأقسام أو إلى البيت أو إلى غرفة الثلاجات.

بحثت عن تسمية أجمل: غرفة الاستقبال! مثل غرفة الفندق الأولى. المستشفى فندق درجة صفر مهما كان حديثا ونظيفا، لانه يخلو من بركة السباحة والطعام فيه لا يؤكل وفيه «الضيف أسير المعزب»، كل مسؤول يتحكم بوقتك ونومك وأكلك وشربك من عامل النظافة وحتى مدير القسم.

يبدو أنني كنت محظوظا في ذلك اليوم إذ لم تكن الغرفة مكتظة ووجدوا لي حيزا في غرف الستائر وسريرا نظيفا وحضر طاقم سيارة الاسعاف لتسليم الجثة - عفوا لم أقصد ولكنها مجرد صورة خطرت على بالي بشكل عشوائي- أي لتسليمي وفقا للتعليمات لطاقم المستشفى، وتبادلوا الأوراق الثبوتية وودعني طاقم الإسعاف الذي كان رائعا واستقبلني طاقم المستشفى الذي كان رائعا أيضا.

بدأ غرز الإبر لامتصاص الدم في أنابيب صغيرة والإرتباط بأجهزة الكترونية وتعليمات صارمة: لا تحرك ولا ترفع رأسك! ثم أسئلة كثيرة، وبعد دقائق استقر كل شيء وبقي فقط القلب في حالة اضطراب استدعت تناول المزيد من الأسبرين وأدوية أخرى مهدئة، وأخذ كل من تواجد دوره ليؤدي وظيفته على أكمل وجه، وأنا تفرغت للتمعن بالغرفة والإصغاء إلى الأصوات القادمة من غرف الستائر.

اللغة العربية كانت سيدة الموقف، فالأطباء والممرضات والممرضون تكلموا العربية مع بعض ومعي، وكانوا من حيفا ومن الفريديس ومن

المغار. شعور بالإعتزاز أن العرب حاضرون بقوة في هذه المرافق. تعرف كثيرين منهم ويعرفونك حتى وإن لم يكن أي لقاء في الماضي.

غرفة الطواريء لا تعرف العنصرية، على الأقل في هذا المستشفى الحيفاوي.

لغات كثيرة: العربية والعبرية والروسية ولهجات كثيرة في الكلمات وفي أنات المرضى وصرخات بين الحين والآخر، كلها تثير العطف وتزيل الحدود والحواجز.

قلت في نفسي: لو أن العالم يتحول ليوم واحد إلى غرفة طواريء لكي يعرف كل أبناء البشر قيمة الحياة. فقط ليوم واحد وبعدها سنفكر بشكل مختلف.

طلبت أن يفتحوا الستارة لكي أطل على ما يحدث في غرفة الطواريء كمن يشاهد مسرحية وهو جزء منها.

الطاقم الطبي يثير الإعجاب بهدوئه وتعامله الإنساني مع المرضى.

بين الحين والحين يصل «ضيف» جديد محملا على سرير متنقل.

لا يهمك من يكون وإلى أية لغة ينتمي، بل تفكر بألمه وفي تلك اللحظات يرتفع منسوب الشفقة في قلبك على عجوز شاحب الوجه يئن بصوت خافت ولا يعرف إلى أين يأخذونه وإن كان سيخرج حيا من هناك. أو على طفل كسرت يده وهو يلعب على «النطاطة» كما يقول.

غرفة الطوارىء لا تعرف الهدوء والسكينة.

غرفتي الستائرية مفتوحة على طول غرفة الطوارىء وتسنى لي أن أرى كل ما يحدث في الممر المؤدي إلى غرف الستائر.

على يساري استلقى شيخ في السبعينات من عمره، شيخ ورع من بلدنا أعرفه رياضيا ويحافظ على رشاقته وقد فقد الوعي بعد أسبوع مرهق - كما قال لي- لكنه يقبل كل طاريء بإيمان ورضى.

الصوت القادم من هناك...

في حيّزي الضيق بين الستائر لم يكن ما يبعث على الطمأنينة سوى لمسات «ندى» التي جلست بجانبي طول الوقت وهي تخفي قلقها متظاهرة بأنها قوية وتحاول أن تقنعني بأن ما حدث هو أمر عابر، وكذلك «مراس» الذي لم يستطع أن يخفي قلقه، فكان متوترا، لكنه متأهب

لتلبية كل طلب وخدمة.

بين الستائر يحضر الغائبون في البال، الأولاد والأحفاد أولا، ثم الأصدقاء، وفي لحظات تغمض عينيك فترى كل من تحبهم ويأخذك هذا الحب إلى تفسير آخر للصلاة: «وترى الملائكة حول العرش...»، تنتفض لتعود إلى المكان الذي انت فيه وعلى يمينك عجوز في التسعين من عمرها، فقدت الذاكرة منذ عشر سنوات، لا تعرف أولادها، نجت من براثن النازية، زوجها مات قبل نصف سنة، كان يعتني بها ولما ذهب انهارت تماما ولم يبق من ذاكرتها سوى ألحان الأوبرة التي كانت تنشدها في شبابها. فقط لحن رتيب لا يتغير. لم تتوقف عن إطلاق نشيدها بصوتها الاوبرالي العالي. في البداية ضايقني وخشيت أن أمضي الليلة في هذا

الجحيم ولكنني عندما تمعنت بصوتها الجميل وعرفت قصتها من ابنها الذي لم يكن محرجا أو على الأقل لم يتظاهر بذلك، بل كان يتحدث مع أمه كما لو كانت طفلا صغيرا، بحب وعطف واحترام، عندها صرت أحب صوتها، وعندما كانت تتوقف لدقائق ويخيم سكوت تقطعه أنات خفيفة أو سعال شديد يأتي من أرجاء الغرفة، كنت أتمنى لو أنها تعود للغناء، فتصدح بقول اعتقدت في البداية أنه روسي ولكن قال لي ابنها إنها بولونية الأصل ولا يفهم كلماتها الغامضة.

أصغيت لها جيدا فاكتشفت أن كلماتها عبرية مشوهة بلكنتها البولونية وليست جملا مفيدة بل كلمات منفردة تطلقها ملحنة بطبقة عالية.

عندما انتصف الليل نقلوها من هناك وكانت تصدح بغنائها العشوائي وصار الصوت يبتعد إلى أن اختفى تماما وخيم على الغرفة للحظات سكون مخيف كسكون المقابر، كسره رجل احتل مكانها. الرجل شرب كمية كبيرة من الدواء لتسكين الأوجاع.

وصل لوحده وعندما حضرت زوجته لاحقا صارت تؤنبه وتوبخه: «لماذا استدعيت سيارة الاسعاف ولم تتصل بنا لنحضرك إلى المستشفى؟ سيكلفنا ثمانمائة شيكل، من سيدفعها؟» هو كان يئن ويقول بصوت باك: «ولكنني كنت أتالم كثيرا. كل جسمي يؤلمني.»

المراة لم تتوقف عن البهدلة.

أنا لم يكن يعنيني أن أصغي إلى هذه الطوشة العائلية.

لا أعرف كيف استسلمت للنوم واستيقظت في اليوم التالي في حيز ليس هو مكاني الطبيعي.

كان عليّ أن أنتظر ست ساعات لاتحرر من هذا المكان مع كثير من التنبيهات: لا تفعل، لا تاكل، لا ترهق، لا، لا، لا!

مع هذه اللاءات سأمارس حياتي مكرها إلى أن يزول تماما اضطراب القلب.

فليعذرني من سأقول لهم «لا» بعد اليوم.

وهنا عرفت الحد الفاصل بين الحلال وبين الحرام...

أنا ذاهب إلى المستقبل...

هكذا سأواصل رحلة الصحراء.

ولأن المستقبل يبدو سرابا في هذه الرحلة، فسننطلق من ماضينا الجميل وعليه نبني أحلامنا.

شكرا لمن قرر أن يجمعنا اليوم في هذا المكان وأن يعيدنا إلى ما كان.

نعود إلى الماضي، لا لنبكي عليه، بل ليشحننا كي نمضي ونمضي ونمضي نحو حياة افضل.

في هذه الساحة كنا نرسم ملامح مستقبلنا ونمارس مراهقاتنا الطفولية بعذرية صافية كالعسل.

في هذا المكان وعلى الساحة الترابية كان يبدأ نهارنا بتحية صباحية وتمرين «الثمن حركات ثم العشرة والقرفصاء» وتفتيش الأظافر وفي أحيان كنا نخطف جلدة بقضيب رمان تمر كومضة نور لكن تحرق كلسعة النار، يوم كنا لا نعرف إلى أين يأخذوننا في «سنابل من حقول الأدب» أو في احتفال كاذب بعيد الاستقلال.

هنا سئلت لأول مرة: ماذا تريد ان تكون في المستقبل؟ وأجبت بعفوية: شاعرا سأصير وكاتبا. ضحكوا على سذاجتي، وربما اعتبروها غباء لأن الشعر لا يطعم الخبز، والسؤال اللعنة الذي يربكني حتى اليوم هو:

شو بتشتغل اليوم؟ وعندما اقول إنني اكتب، يعيدون السؤال: بس شو بتشتغل؟ شغل! وظيفة!

أنا موظف في سلطة الأدب. أنا عامل في مناجم الثقافة. أحفر وأحفر بحثا عن كنوز من الفحم أو الذهب وأعتقد أنني حتى الآن لم أعثر على الجوهرة المنتظرة.

هنا في هذا المكان تشكلت صورة وطني الأولى. تحت شجرة وارفة، كنت أطل على بساتين الخوخ والرمان في الوادي وعلى أفق يمتد من ساحة أبو إبراهيم إلى كنيسة عسفيا وإلى ما استطاع النظر أن يحقق.

هنا كان ارتباكي الأول بين حفنة الترمس من دكان أبو رامز وبين البفلا الطويلة من حانوت أم نايف وبين قضيب القرمش من دار أبو عزيز.

هنا عرفت الحد الفاصل بين الحلال وبين الحرام، بين أن تقطف الخوخ والمشمش والتفاح من أرض الغير لتأكل، وهذا حلال، وبين ان تملأ جيوبك بالخوخ والتفاح والمشمش، وهذا حرام وألف حرام.

هنا بدأ عشقي الأول للشعر وللغة العربية عندما حفظت امرأ القيس:

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل وهنا كتبت قصيدتي الاولى:

أنا من جبال الكرمل بلدي عليها جاثية

من قرية عصرية فيها المباني الراقية

الكل يعرف اسمها بين القرى متباهية

لا شك أنك قد عرفت فقريتي هي دالية

هنا بدأت رحلة الصحراء لأنني صرت أسأل كل الأسئلة الصعبة: من كان هنا من قبل؟ كيف جئنا إلى هذا العالم؟ بأي حق يقتلون ويشردون ويرثون؟ من نحن؟ من أنتم؟ ماذا يعني الموت؟ ماذا تعني السعادة؟

مضى أكثر من خمسين عاما ولم أعثر على جواب كما لم اعثر على الجوهرة المنتظرة.

يحزنني أن هناك من يؤيد أن يحول وطننا الدافىء إلى منفى وغربة.

اختفت تلك السهرات والقعدات التي أشهرنا فيها حبنا لبعض.

لم نعد نجيد التفكير بالسؤال الصحيح، بل صرنا نتفنن باجابات كاذبة بلغة مكسرة وتفكير لا تعرف من أين يبدأ وإلى اين ينتهي.

سرقتنا الأجهزة الصغيرة ودوّختنا اعلانات الاستهلاك الرخيص وصرنا عبيدا لها بدلا من أن نكون نحن أسيادا عليها.

هل ياتي يوم فنعلن نحن البشر أننا الأسياد على الأرض، وعلى الآلة وعلى التكنولوجيا؟

هذه هي ثورة الإنسان العادي التي أنتظرها وهي جوهر الحياة وجوهرتها.

هذه هي رحلة الصحراء، سعي مضن لملامسة قيم الأخلاق. رحلة متواضعة حد الفقر. بسيطة حد السذاجة. جميلة حد الأناقة. سامية حد السماء. وصلبة حد الفولاذ.

قريتي وطني الأول، ومنها أخرج إلى العالم الكبير وأعود إليها. أحملها معي إلى كل مكان. وما تقدمه لي في هذه الأمسية من حب وعطف يزيل الكثير من شقاء العمر ويشحنني بطاقات لمواصلة الرحلة.

أنا في وطن صغير يحب أبناءه.

أنا من هذا المكان الذي يتغنى بالثقافة والمعرفة والعلم.

شكرا لك يا عزيزي أبو يوسف لأنك تخلق الفرص لكي يزداد حبنا لهذا المكان.

سأواصل رحلة الصحراء، والعطاء مع الكبير والصغير منكم كأنها مسيرة الربيع نحو فرح دائم ومقيم وسلام عادل وشامل وحقيقي.

لي أولاد وأحفاد، قد لا يعرفون كم أحبهم.

هم معي في السراء والضراء وفي النهار والليل.

يفرحون معي ويحزنون معي.

يتعبون معي ويرتاحون معي.

يحلمون معي ويتحدون معي:

ندى، إيناس، إياس، مراس، غدير، سلمى، مي، ريف، ليام، وأم سميح التي تمنحني الطمأنينة وحب الحياة.

شكرا

تأملات في عبقرية الموت:

لا تدفنوني هناك!

عبقرية الموت، أنه يزيل عن الإنسان في القبر كل الصفات التي اكتسبها في حياته لكي يعود إلى التراب مادة هيولية تغذي هذا التراب وتتغذى به

حين أقف على أرض المقبرة أحزن مرتين: في الأولى على الفقيد وفي الثانية على مكان دفنه. للحزن على الفقيد ما يبرره ولكن الحزن على المكان عصي على الفهم.

الحزن على المكان أصعب وأقسى، ليس لأن المقبرة مكان مهمل، فمسألة النظافة لها علاقة بثقافة المجتمع .

إذا كانت النظافة دليلا على ثقافة مجتمع فلا الأحياء تهمهم النظافة وبالطبع لا تهم الأموات المدفونين فيها.

لن يأتي أحد ، سائحا كان أو مسؤولا بلديا أو حكوميا أو مواطنا ، إلى ميت في المقبرة ويسأله إذا كان راضيا عن النظافة.

الأموات يرضون بكل شيء، حتى بالإهمال .

الأموات يحمدون الله على هذه النعمة.

الأموات، بطبيعة الحال لا يحتجون ولا يرفعون أصواتهم وبطبيعة الحال أيضا ليس لهم أعداء.

(بما أن اثارة مسألة النظافة في المقبرة هي «كثرة غلبة وسفسطة حكي»، فسنهملها كما أهملنا عشرات المسائل غيرها).

عندما نقف على أرض المقبرة في حضرة أمواتنا يصفعنا السؤال: من أجاز لنا أن نقيم الشواهد على القبور فنبنيها من حجارة ورخام ونسيجها كأنها أضرحة الأولياء والأنبياء والقديسين والأباطرة والملوك؟

هذه ليست مسألة ذوق وثقافة ولا تخص الأموات، انها مسألة أخلاق وقيم إنسانية وكرامة الأحياء والأموات على حد سواء.

يحلو لنا أن نفتتح مراثينا وتعازينا بقولنا «ان الموت حق وكل ما عليها فان»، لنذوّت العقيدة/ الحقيقة أن كل أبناء البشر متساوون أمام الموت وأن الموت هو حكمة الحياة وهو عبرتها وهو درسها الأخلاقي الأول، فإذا كان الموت كذلك فلماذا لا نساوي بين الأموات على الأقل؟

كل الأموات في الأرض لهم نفس الشكل فليس بينهم جميل ولا قبيح وليس فيهم غني ولا فقير وليس فيهم مثقف ولا أمّي وليس فيهم ابن أصل وابن زنديق.

كل الأجساد في التراب جماجم وهياكل عظمية لو جمعتها مع بعض لما تعرفت على هوية أحد منها، وهذه هي عبقرية الموت، أن يزيل عن الإنسان في القبر كل الصفات التي اكتسبها في حياته لكي يعود إلى التراب مادة هيولية تغذي هذا التراب وتتغذى به.

العقيدة التوحيدية استوعبت هذه العبقرية مثلما استوعبتها العقائد الهندوسية والفيثاغورية وحكمة الشرق في ممالك الحضارات القديمة، ولكننا نحن هنا في هذه القرية الصغيرة نتمرد على حكمة خلدت آلاف

السنين، بتأثير ما نراه على هامش أم ربما أنها أدركت كل العبقريات إلا عبقرية الموت.

من أجاز للأغنياء أن يبنوا القبور الرخامية على أمواتهم، في مكان ليس ملكا لهم، فهم أغنياء ويملكون المال الكافي لشراء قطعة أرض في أي مكان خارج المقبرة وهناك بإمكانهم أن يبنوا لأمواتهم القصور والهياكل والأضرحة وليس لأحد الحق في معارضتهم.

من أجاز لأصحاب الجاه والزعامة الدنيوية والفضلاء والنبلاء وأصحاب الفخامة والسيادة أن يبنوا قبرا في مكان فيه متسع للفقير كما للغني وللعبد كما للسيد وللرجل كما للمرأة وللإنسان العادي كما للزعيم.

لا يحق لأحد أن يعبر عن حبه لفقيده على حساب الآخرين، فبناء القبر في المقبرة العامة ليس تعبيرا عن محبة ولا عن تقدير ولا عن احترام، أنه استيلاء على ملك عام، وإعتداء على الأرض وحشر الأموات في صراع هم في راحة منه وفي غنى عنه.

عبقرية الموت أن تتذكر وترى في مخيلتك عزيزا عليك ذهب من الدنيا، ليس بهيئة هيكل عظمي في الأرض وعليه حجر من رخام، بل أن تراه كما كان حيا في ملامح وجهه وقامته وضحكته وصوته، ولذلك فإن الوقوف عند قبره يشوه خلقته في الذاكرة والمخيلة.

لا أعرف قبور الذين أحبهم، أبي وجدي وأقاربي وأصدقائي المدفونين هناك في هذه المقبرة ولم أقف عند أي قبر لأنني لا أريد أن أفكر بهم كهياكل عظمية، بل أخلد في ذاكرتي صورهم كما عرفتهم أحياء وأعزي نفسي عندما يشتد علي فراقهم بأنهم عادوا إلى الحياة ثانية في مكان آخر، وما يشرفهم ويشرفني بهم أنهم رجعوا في مماتهم إلى

الأرض التي أنبتتهم كما كانوا في حياتهم متواضعين لا يبحثون عن جاه ولا عن «شوفة نفس» ولا يعتدون على أملاك الغير ولا يثقلون على أحد، ولأننا نحترم أخلاقياتهم وتواضعهم فلم نبن لهم قبورا من رخام ولا من حجر يابس، وعندما نذهب إلى المقبرة فإننا نعرف أنهم هناك كما تركناهم، فنذكرهم بفضائلهم ومكارمهم ونعرف أن أحدا لا يزعج اقامتهم بسؤال قاس: لماذا تقبعون تحت الرخام؟ ومن أجاز البناء عليكم؟ وكيف تنظرون الى رخامكم؟ وعندها لا نجعل أعزاءنا موضع خلاف بين التواضع والتكبر وبين المسموح والممنوع وبين الإيمان والإلحاد وبين الدنيا والآخرة.

سنحرر الأموات، كل الأموات، من هذا اللغط اذا دفن هناك كل الناس مثل كل الناس، لا فرق بين فقير وغني ولا بين كبير وصغير ولا بين وجيه ووضيع. أما إذا ظل هذا التمييز بين الأموات كما هو بين الأحياء، فالأفضل أن نقيم مقبرتين، واحدة لأصحاب الشأن في مماتهم كما في دنياهم أو في قبورهم كما في قصورهم، وواحدة لعامة الناس المتواضعين في مماتهم كما في حياتهم، فتكون مقبرتنا الجديدة الجميلة والطيبة، للفقراء والمتواضعين، للطيبين المعطائين، للبسطاء الذين يريدون العودة إلى الأرض مثلما جاءوا منها، بهدوء وبساطة ويخلدون بأفعالهم الحميدة وسيرتهم الطيبة وبما أعطوا لا بما أخذوا، فمع هؤلاء ادفنوني بعد موتي، لا تدفنوني هناك بين شواهد الرخام والحجر اليابس.

نشرت في نشرة جمعية «تموز» دالية الكرمل، صيف 2007

«ليش هيك صاير فينا؟»

شكوك في سؤال الهوية

اعترف أول...

تنزل الهواجس متلاحقة على من تجاوز مثلي الخامسة والستين فتعيده إلى الماضي تارة وتأخذه إلى الغيب تارة أخرى، فيغضب ويشتم ويضحك ويبكي ويزفر ويشهق ويرتبك حين يُسأل: كيف حالك؟ وأنا أجيب بلغتي العامية السهلة: «كل شيء عادي، المليح عادي والعاطل عادي!».

حالة من الإدمان القسري على كل ما هو عادي. وأقول برضى كل صباح: إنني أصغي بخوف شديد إلى مكبر الصوت في البلد حين يعلن بصوت جهوري مثير للرعب والأسى: «انتقل إلى رحمته تعالى... » ويذكر اسم من انتقل في ذلك الصباح، وإذا لم يذكر اسمي فتغمرني سعادة ما بعدها سعادة لأنني أتأكد بيقين تام أنني ما زلت على قيد الحياة.. تغمرني السعادة فقط لأنني ما زلت على قيد الحياة. هكذا صار سقف أمنياتي: فقط أن أبقى على قيد الحياة.

هل حقا هذا هو سقف امنيات كل من تجاوز الخامسة والستين في هذا الزمن التعيس وفي هذا الوطن المنحوس؟

أوقن تماما أن الناس من أبناء جيلي في العالم البعيد، في فرنسا وسويسرة وأستراليا مثلا، هم أكثر تفاؤلا وانفتاحا على الحياة. وأما في عالمنا القريب، في العراق وسوريا ولبنان ومصر وهنا، مثلا، فهم أكثر تشاؤما وانغلاقا.

يحدث هناك...

«شو صاير فينا نحن العرب؟»

أمة عريقة تعد حوالي أربعمائة مليون ذكر وأنثى، لها تاريخ يمتد آلاف السنين ولها فضاء واسع من بحر إلى بحر ولها أرض في باطنها كنوز لا تعد ولا تحصى ورجالها يعتزون بفحولتهم ونساؤها يفاخرن بذكائهن، وحل بهم من دَرَسَهم وتعلّمهم على علاتهم ويفعل بهم ما يشاء ومتى يشاء على سراط «إجاك يا بلوط مين يعرفك!» فاختزلوا حديثهم وخطابهم من «المنزلة بين المنزلتين» إلى كل التفاصيل الدقيقة عن ومن ثقافة النكاح. منذ قال فيهم الشاعر «يا أمة ضحكت من جهلها الأمم...» تحكّم بهم الافرنجي الأجنبي والغازي والسابي وصانع الديكتاتور الأبي الذي تفنن في صناعة العربي الغبي القاتل باسم الله والثورة والذي صار عنوان المرحلة وصار صورتَنا في الوعي الكوني ونحن صدقنا أننا الأمة الأغبى وأن ليس في جعبتنا إلا هؤلاء ولسنا قادرين إلا على صناعة الجهل.

هؤلاء ليسوا وجهنا! ونحن لسنا كما يريدنا أغبياؤنا وأعداؤنا ومصاصو خيراتنا من «أورشليم- القدس» وحتى واشنطن. في ألف عام لم يغب العقل العربي الذي أنجب الكندي والفارابي وابن عربي وابن سينا وابن رشد والمعري والمعتزلة وابن خلدون وحتى محمد عبدو والكواكبي ومارون عبود واليازجيين والبستانيين وجبران خليل جبران وكمال جنبلاط وطه حسين ومحمود امين العالم وادوار سعيد والقائمة طويلة وليس لها نهاية، وأما الذين يقاتلون بالخناجر والبواريد الأمريكية والإسرائيلية لينَصّبوا علينا أولياء وأدعياء، فانهم يريدوننا أن نمسح هذه الهويات وهذه الاسماء من سجلاتنا وذاكرتنا الجمعية. في هذه الظروف أن نعود إلى مرجعياتنا الفكرية العقلانية المذكورة أعلاه هو ما يبث فينا شيئا من

الأمل ونستعيد به الثقة بالنفس ويقوي عزيمتنا وإرادتنا للعمل من أجل الخلاص من حالة الاحباط التي ألمت بأصدق الناس مع هويتهم وانتمائهم القومي والإنساني.

إن أفضل هدية تقدمها لأعدائك هي أن تفقد الصواب وتغيّب العقل.

يحدث هنا...

هنا! هو هذه البقعة الصغيرة التي لا تكاد تظهر على خارطة الكرة الأرضية ولكنها تشغل العالم بأسره منذ أكثر من ستة عقود.

هنا! من النهر إلى البحر حيث ارتكبت خطيئة كبرى قبل أكثر من ستة عقود ولا تزال الخطيئة تصنع الخطيئة.

هنا! يحدث اليوم أن طغمة فاشية تتحكم بهذه الجغرافيا وتحكمها بالنار والحديد على رقاب البعض ممن لهم الأرض وبالحسنى واللين مع آخرين يرتكبون الجريمة تلو الجريمة ولهم الحكم.

هنا! يحرق الفاشست طفلا حيا ويشنقون سائقا في حافلته وهنا تصبح المساجد ميدان قتال لتصبح الكنس ميدان قتال أيضا (خلافا لكل الشرائع) على سراط ما ساد قبل ثلاثة آلاف عام ونيف: «العين بالعين والسن بالسن».

هنا! لا يتورع رئيس حكومة عن الإعلان أن من لا يقبلها دولة يهودية فلينصرف من هنا ، هكذا بكل صلف.

هنا! الفاشيون يصولون ويجولون بحماية ورعاية الدولة.

هنا! تعلن ولاءك للدولة بقانون رغما عنك، والدولة تزعم أن أرضك ليست لك ولغتك ليست لك وأنت لست لك، وهنا المهاجر هو ابن البلد وأنت؟

هنا! حالة لا مثيل لها في التاريخ.

هنا! الوطن ليس دولة والدولة ليست وطنا، كما في كل مكان إلا هنا.

هنا! الوطن باق والدولة عابرة.

هنا! الوطن لك والدولة لهم.

هنا! تكون متفائلا فقط لأنك تجيد قراءة التاريخ وتثق بنفسك.

هنا! ليس أمامك إلا أن تعود إلى ذاكرة الحياة لا إلى ذاكرة الموت.

هنا! عش وسُرَّ الصديق! لا تمت! فموتك يسُرُ العدا!

يحدث في أبو سنان...

أبو سنان قرية جليلية مثل كل قرانا. جميلة ككل قرانا وأهلها طيبون. في مساء بارد وماطر تفجر فيها غضب ونار ودم بين أناس من أهل البلد، بين جيران ومعارف وأصدقاء. لا يهم السبب في اشتعال النيران وضرب الخناجر والقاء القنابل، فكل ما يقال عن كوفية أو شعار هنا وشتيمة هناك هو عود ثقاب أشعل النار. وهل تشتعل النار إلا في الحطب اليابس والقش وفي الهشاشة؟ ما حدث في أبو سنان كان له مثيل في بلدات عربية أخرى ويمكن أن يحدث في كل بلدة ان لم يكن بين طوائف فبين حمائل أو حتى في العائلة / الحمولة الواحدة بين فخذ وفخذ، فكيف تراكم

هذا الحطب القابل للاشتعال؟

أبو سنان تعرف كيف تضمد جراحها وستخرج من محنتها بقدرة ألواعين من اهلها، وهم كثر، ولكنها تفتح الباب على كل الأسئلة. هل نحن شعب واحد بكل طوائفه؟ الاجابة العامة والجاهزة بسيطة جدا: نعم! هذا صحيح قوميا ولغويا وحضاريا وبكل المعايير، ولكن السؤال الأصعب: هل كل من ينتمي إلى هذا الشعب يشعر أنه ينتمي إلى هذا الشعب؟ في الماضي حاولت السلطة الصهيونية أن تنزع عنا تعريف الهوية بادعاء أننا لا نشكل أقلية قومية بل طوائف ومللا ويمكن ربطها متى تشاء وحلها متى تشاء ولم تنجح. وفي عام 1976 جاء يوم الأرض ونسف هذه النظرية من جذورها فادركت السلطة أنه يستحيل طمس الهوية موضوعيا لا بل محاولات الطمس تزيدنا اصرارا على تأكيد الهوية الفلسطينية باعتبارنا شعبا واحدا، فتخلت عن هذا النهج واتبعت نهجا آخر وهو العمل على تبديد الاحساس الفردي بالهوية، وهل هناك طريق أقصر وأفضل من تأجيج المشاعر الطائفية والدينية؟ لقد كان المعروفيون العرب الدروز أول ضحايا هذا النهج بفرض التجنيد الاجباري عليهم عام 1956 ثم بكل مشاريع الدرزنة ومناهج التعليم، وواصلت هذا النهج مع المسلمين البدو، لم تفرض عليهم التجنيد ولكنها جندتهم بالإغراء بعد أن صادرت أراضيهم وربطت اقتصادهم ومعيشتهم بها، وهذا شكل من أشكال التجنيد الاجباري أيضا، وواصلت مع الطوائف الأخرى الإسلامية والمسيحية بالجذب نحو الخدمة العسكرية والخدمة المدنية ووظائف «أمنية» أخرى وعاما بعد عام صار يتبدد الإحساس بالإنتماء إلى «الشعب» ليحتل محله الإنتماء إلى «الديانة» وإلى العائلة وإلى الذات الفردية في نهاية المطاف. كيف تعرف نفسك؟ مسلم عربي أولا؟ أم عربي مسيحي ثانيا؟ ام درزي اسرائيلي ثالثا؟ في الاستطلاعات كنا نجيب بجرة قلم أو كبسة زر على هذه الاسئلة دون أن ترتجف لنا يد. وصرنا

بيننا وبين أنفسنا نستعملها بسيولة الماء. وفي الواقع الراهن، وما يحدث هنا وحولنا، أن تكون عربيا فهذا ليس مشرفا لا في نظرك ولا في نظر الآخر، وأن تكون فلسطينيا ليس مشرفا أيضا (هذا هو الواقع المؤسف والمحبط) ومن يبحث عن الشرف فسيعود في أحسن الأحوال إلى انتماء حيادي أو يعود إلى الشاعر الذي قال: لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم!!

المشكلة ليست في أبي سنان فقط. المشكلة في كل شعبنا. هل نحن نتصرف كشعب حقا يناضل من أجل الحرية؟ كيف نقاتل من أجل الحرية ونحن ننتهكها ونحتقرها و«نلعن ابوها» في قرانا وبيوتنا ومع أنفسنا؟ لقد حان الوقت للمراجعة الذاتية. لإعادة النظر في مسلماتنا وفي مفرداتنا وفي فكرنا وسلوكنا. حان الوقت لنكون صريحين مع أنفسنا، لنتكلم بصراحة وجرأة، لنضع حدا للقمع الذاتي وللجلد الذاتي وللتخوين والتكفير وللاحتقار فقط لمجرد الاختلاف!

يحدث في باقة الغربية...

الصديق الشاعر والصحفي علي مواسي من باقة الغربية مدرس للغة العربية والكتابة الإبداعية في مدينته. اختار رواية علاء حليحل لمناقشتها مع طلابه. قامت الدنيا ولم تقعد. أتهم بأنه يفسد أخلاق الطلاب من بعض صفحات في الرواية ادعوا أنها تخدش الحياء العام، وهاجموه على المنابر وهددوه وأجبروه على الإستقالة من عمله.

هذا يحدث اليوم في باقة وقبله منعوا أمل مرقس من الغناء في كفر قرع ومنعوا عرض «وطن على وتر» في عكا وشنوا حملة شعواء على الفنانة سناء لهب والقائمة طويلة وكل ذلك باسم الأخلاق والدين والحقيقة

وكأنهم هم الاوصياء على عقائد الناس وأخلاقهم.

خطير جدا هذا التراجع في مساحة الحرية المتاحة للكلمة والفكر. يبدو المشهد وكأن عصابات ملاحقة الفكر تسرح وتمرح بيننا، كلها «تتمرجل» على مثقفينا ومبدعينا لتعيدنا إلى العهود الظلامية وإلى جحيم الكبت والاقتتال والجهل.

إن ما يخدش الحياء حقا هو أننا في القرن الواحد والعشرين نمنع طلابنا من قراءة رواية أدبية ومشاهدة مسرحية وحضور حفلة غنائية، وما يخدش الحياء هو أننا نهدد مثقفينا ونشن عليهم حملات تحريض لو أن السلطة تقوم بها لأقمنا الدنيا عليها ولم نقعدها.

في السنوات الماضية عندما كان يتعرض أحدنا لمضايقة من حاكم عسكري أو شرطي أو يُستدعى للتحقيق حول كتاب أو مسرحية أو قصيدة، كنا نثور ونحرك العالم ضدهم واليوم يأتي من ينصبون أنفسهم أولياء على فكرنا وعلى إبداعنا ويمنعون ويحرضون ويهدرون دمنا مدعين أنهم أولياء اللّه على الأرض.

الثقافة والإبداع والفن والحرية والفكر، خارج قبضة القمع مهما كان القامع عنيفا ومهما كان يملك سلطة أو أسلحة.

في نهاية الأمر سيكون السؤال: أنت مع القمع أم مع الحرية؟ ويعقبه سؤال توضيحي: أنت مع قوى الظلام أم مع المتنورين؟ ويعقبه سؤال عملي: أنت مع الحياة أم مع الغيب؟

يحدث في الجليل...

بعد القدس، المواقع الفلسطينية ذات الحضور الإعلامي الأكبر في عالمنا العربي من المحيط إلى الخليج هما البعنة ومجد الكروم، قريتان من قرى الجليل على الطريق بين عكا وصفد، وبعد محمد عساف يأتي هيثم خلايلة ومنال موسى. أراب أيدول. أعترف بأنني لا أتابع هذا البرنامج ولم أر أية حلقة كاملة ولكنني أهتم عبر الانترنيت واليوتيوب بأن اتابع نجاحات منال وهيثم. وأقول إن أداء هيثم الأخير لأغنية وديع الصافي «يا ابني» هز مشاعري وأبكاني . وأنا بحسي الفلسطيني الفطري أريد لهما أن يتألقا ويلمعا ويصلا إلى القمة ليس فقط لأنهما جديران بالقمة (على الأقل قمة الأراب أيدول) ولكن لأنهما في كل الأحوال وعلى كل الجبهات يمثلان قضية عادلة ليس لأن احدا انتدبهما بل لأنهما قادمان من بطن هذه القضية ومن أكثر مواقعها حساسية، من الداخل المربك والمرتبك والذي أسقطت ارتباكاته عليهما أيضا وصارت رحلتهما في بيروت مثيرة للجدل مثلما أن مجرد بقائنا هنا مثير للجدل.

ليس عاديا أن يشارك فنان من الداخل في برنامج عربي فضائي مثل هذا البرنامج وفي بيروت التي تبعد عن عكا مسافة ساعة ونصف ولكننا لا نستطيع الوصول إليها حتى في عشر ساعات وقد وصل هيثم ومنال في طريق التفافي شرعي ومعروف ولهما منذ بداية البرنامج حضور لافت وجميل ومؤثر.

نحن نناضل من أجل التواصل مع امتنا العربية ونعتبر كل الوطن العربي من المحيط إلى الخليج فضاءنا القومي والثقافي، وهذا لا يتناقض مع بقائنا في وطننا، بالعكس إنه يعززه ويثريه ونحن أيضا نسهم في بناء الحضارة العربية وإثراء ثقافة العرب في الأدب والسينما والمسرح والموسيقى ولكن إشكالية وجودنا تحت النظام الإسرائيلي الذي يطبق علينا شكلا من

أشكال الاحتلال تلتبس على كثيرين من أشقائنا في أجزاء أخرى من فلسطين وفي الوطن العربي وقد لا يفهم احيانا سلوك فردي أو جماعي وعلاقة ما مع هذا النظام مثل أن تشارك في نشاط تحت مسمى «عربي يهودي» أو تعمل في جهاز تعليم أحد أولى أهدافه التربية على الإخلاص للدولة وللصهيونية أو يكون لك مندوبون منتخبون في البرلمان الاسرائيلي الذي هو أهم مؤسسة سلطة لهذا النظام الذي نناضل لإسقاطه وهو يهدد بترحيلنا.

أثيرت من هنا قضية متعلقة بمنال موسى حول خدمة مدنية وفي سياق ما عسكرية- وكان لغو كثير حول ما قيل وما لم يقال- أخذت في البداية طابع الوشاية والقيل والقال وكان واضحا أن إثارتها عند بعض الأوساط غير الصحفية المهنية كان للدس وللتأثير على سير نجاحات منال في البرنامج ولكن كانت أوساط مهنية صحفية اعتبرتها قضية مثيرة للجدل ومن حق الجمهور الاطلاع عليها لمعرفة الحقيقة ومن بينها صحيفة الحدث الفلسطينية والكاتب الصحفي المعروف احمد زكارنة. كتب بمهنية وتساءل أكثر مما أجاب وهذا حقه وواجبه كصحفي، فلماذا يتعرض لهجمة عدائية من مقربين إلى منال؟ أحمد زكارنة الصحفي المحرر في صحيفة الحدث ومعد برنامج ثقافي واسع الاستماع في إذاعة فلسطين هو من أهم المطلعين على ثقافة الداخل والمدافعين عنها وعنا وفي مواقعه لا يوفر اي جهد للتعريف بهذه الثقافة وابطالها. انه محرر لصحيفة حديثة العهد ولكنها من أكثر الصحف العربية مهنية واحترافا وهو من أجرأ واصدق صحفيينا وكتابنا. قد لا تتفق مع كاتب في الرأي او التقييم أو في قراءة مشهد وهذا لا يعني أن تأخذ كلماته إلى ما هو أبعد من التعبير عن الرأي بحرية واستقامة. كل إنسان يظهر في الحيز العام يحق لأي انسان آخر أن يراه كما يشاء وأن يعبر عن رأيه فيه كما يراه وأن يسأل عن أصله وفصله وهكذا الفنانون والادباء والسياسيون

وغيرهم. طبعا هناك حرمة لخصوصياتهم لا يجوز لأحد اختراقها ومن يرسم حدودها هو الشخص نفسه وقد قرأت ما كتبه أحمد زكارنة عن منال موسى ولم ار فيه اي تحريض او تخوين او مس بها وبفنها وأدائها فلماذا التحريض على صحفي يؤدي دوره المهني بإخلاص؟

هذه المسألة تفتح عدة ملفات علينا أن نناقشها في حوارنا الثقافي الوطني: أولا: كل مسالة العلاقة بالعالم العربي. ثانيا: كل ما يتعلق بنا وبالتطبيع. ثالثا: كل ما يتعلق بنا وبمقاطعة إسرائيل. رابعا: ما شأن القبيلة بجدل مهني؟ لماذا يتجند ابن العم أو الخال للدفاع عن مطرب أو كاتب او ممثل أثيرت حوله زوبعة بحق أو بغير حق؟

ليكن حوارنا حضاريا لكي نبقى حضاريين!

اعتراف آخر...

لا أحد يستطيع أن يدعي أنه قيّم على الأخلاق وعلى الوطنية وعلى القيم الإنسانية. لا أعرف إنسانا أخلاقيا ولا اعرف إنسانا وطنيا ولا أعرف انسانا إنسانيا لأنه لا يوجد مخلوق كهذا، لا لشيء إلا لأن الأخلاق هي قيمة مثالية والوطنية قيمة مثالية والإنسانية قيمة مثالية ولا تتجلى كاملة في أحد ولا يستطيع أحد أن يجسدها بكاملها. نحن نطمح لتحقيق هذه القيم. أنا لست أخلاقيا بل اطمح لأن أكون ولست وطنيا بل أطمح لأن أكون ولست إنسانا بل أطمح، فكل الذين يوزعون ألقابا في هذه القيم، بغض النظر أن كانت صحيحة أو مزيفة، يرتكبون مخالفة غير اخلاقية وهي أنهم يتصرفون بما هو ليس لهم ويضعون أنفسهم في مواقع حكم لم يمنح لهم.

أعترف بأنني لا أدعي أنني صادق ولكنني أعمل كل ما بوسعي لأن أقول الصدق.

«ليش هيك صاير فينا؟»

تشرين الثاني 2014

ماذا يكتب الروائي في زمن الدم؟

السؤال الذي يسبق هذا العنوان: هل ينتظر الروائي في الكتابة إلى أن يجري الدم ويختفي؟

تاريخنا العربي دموي، وسيظل هكذا ما دام قول أبي تمام «السيف أصدق إنباء من الكتب»، دستورا في حياتنا ومصدر وحي وانتصار على عمورية. ولو انتظرنا إلى ما بعد الدم لما كتبنا رواية ولا وصفنا حالة. والمأساة في حياتنا، نحن الكتاب العرب، إننا لسنا مرفهين بحيث نكتب عن الحدث في زمن ما بعد الحدث ولا نملك الوقت والخيال لإعادة انتاج واقع دموي متخيل خارج دائرة العنف والموت الواقعيين، والواقعيين جدا جدا.

أتمنى لو أنني أستطيع الكتابة روائيا في خلق ووصف حالة عربية إنسانية تخلو من كل الإشارات والرموز التي تدل على عنوان عربي. أن اكتب عن ديكتاتور بلا هوية محددة إلا صفة القمع والقتل ولا يحضر في مخيلتي اثناء الكتابة ديكتاتور عربي لا يزال على عرشه أو استبدل بآخر في السنوات الخمس اللعينة الأخيرة أو قبلها وأخشى مما بعدها. في هذه الحالة تشدني الكتابة نحو اختزال عناصرالديكتاتور في الرواية بشخص محدد فتفقد الكتابة بعدها الإنساني المطلق والكوني. هذه الحالة من اغتصاب الواقع للكتابة تقود إلى الكتابة الروائية التسجيلية أو التوثيقية التي تكتسب شرعيتها الفنية من لغتها وصياغتها وعمق النظر إلى المشهد الدامي.

أنا اميل إلى هذا النوع ليس فقط في ما أكتب بل أيضا في ما أقرأ.

في زمن الدم يحق للروائي أيضا الا يكتب. هو بحاجة إلى التامل في الواقع الدموي، إلى معايشته بمشاعره واحاسيسه وإلى وقت وجهد للبحث عن الزاوية التي يريد ان ينظر منها إلى واقعه. يحق له أيضا ان يتأنى في الكتابة لكي يحضر في ذهنه ووجدانه ايقاع الكتابة. فالزمن الدموي له إيقاع يختلف عن أي زمن آخر. هو صاخب وصارخ وهمجي وفوضوي والكتابة فن السلاسة وتتابع الصور والمشاهد بمنطق وانتظام وضرورة.

في زمن الدم يحق للروائي أن يعفي نفسه من الكتابة الروائية لكي يتجند بجسده وروحه في المعركة لوقف الزمن الدموي. عليه ألا يفعل ذلك اضطراريا بل اختياريا بارادته وقراره. لا أن يساق إلى المعركة، بل يندفع إليها، وبهذا يغني تجربته ويشحن مشاعره ويرهف أحاسيسه وعندما تحين لحظة الكتابة يندفع إليها أو تدفعه هي كشلال أو كنبع منفجر.

الكتابة في زمن الدم أولا لوقف شلال الدم، ثم تأتي عناصر الرواية.

من الأحد إلى الأحد

من العودة إلى الدولة الواحدة مرورا بالقدس

كان أسبوعا مثيرا. موضوعيا هو مرهق إلى حد ما. لكن، ذاتيا لم يكن مرهقا بالنسبة لرجل مثلي ينفعل حين يلتقي صديقا لم يره منذ 45 عاما، أو رفيقا بعد 30 عاما. هكذا في كل مرة أكتشف مظاهر الختيرة وليس بتعب الجسد أو العقل أو حساب السنين.

كان أسبوعا زاخرا بدأ يوم الأحد في 29 بادارة جلسة شيقة في مؤتمر «زوخروت» الدولي عن حق العودة..كان مثيرا ولافتا. ملخصه: لا حديث عن حل دون الاعتراف بالنكبة وحق العودة. مشجع أن يقال هذا في قلب تل أبيب على أنقاض قرية الشيخ مونس وفي متحف أرض إسرائيل.

الأربعاء في رام الله. مؤتمر القدس- ثقافة وهوية، إدارة الندوة الأدبية لكتاب وشعراء فلسطينيين كتبوا نصوصا للقدس وعنها.

الخميس مواصلة المؤتمر في رام الله وكتابة بيان القدس الثقافي وتقديمه. شعور بالأمل أن شيئا جميلا يقال عن القدس، نادرا ما يقال في مئات المؤتمرات عن هذه المدينة المعذبة: القدس عبر الإنسان الذي يعيش فيها والمبدع الذي صنع ثقافتها.

الجمعة في مجد الكروم : يوم دراسي موفق حصيلة جهد كبير مع طاقم رائع من مساواة وجمعية المنار. الثقافة الفلسطينية. قلت: نحن لا نتواصل مع ثقافتنا، نحن متوحدون وأينما تحضر الثقافة تهرب الهمالات.

السبت في حيفا. على سطح بناية في شارع طبريا 15 ، أمسية بعنوان:حكاية حيفاوية.. باللغتين العربية والعبرية. ما هي حكايتنا عن هذه المدينة الطيبة؟ إنها حكاية حيفا قبل النكبة حين كانت منارة حضارية وحكاية الغائب عنها والمغيب لا الحاضر فيها فقط، وحكاية من يحب مدينته ويعشقها لا من يمسح وجهها الجميل.

الأحد : فندق العين في الناصرة. محاضرة عن الدولة الديمقراطية الواحدة لمجموعة من الشبان الجامعيين العرب القياديين. بحث عن حل يقوم على العدالة والإنصاف. دولة ديمقراطية من النهر إلى البحر.

اليوم الاثنين، مراجعة لما كان في الأسبوع الماضي واستعداد لأسبوع ثقافي جديد ، يبدأ غدا بأمسية حيفاوية أخرى عن كتاب لحيفا وعنها وسأقرا : ذاكرة حيفا على بحيرة متجمدة..

هل يفترض أن يشعر من بلغ الخامسة والستين بالارهاق بعد أسبوع كهذا؟ موضوعيا! ربما. ذاتيا : لا! بدأت نهاري في الرابعة صباحا وخرجت ماشيا على قدمي إلى قمة من قمم الكرمل لأستقبل شمسا دافئة ونسمة تأتي تارة من البحر واخرى من الصحراء.

ذاهب إلى المستقبل..

أنا فلسطيني لم يهجر من بيته.

عرفت ما معنى اللجوء في بيت جدي.

عائلة «أبو الهيجا» من قرية عين حوض كانت في طريق الرحيل عام النكبة. استوقفها جدي وعرض عليها اللجوء في بيته إلى أن «تمضي

الغيمة السوداء».

أمضت العائلة معنا في البيت نفسه ست سنوات.

لم أكن أفهم لماذا لي جدان وجدتان وأعمام كثيرون وأولاد يقاسمونني رغيف الخبز المطلي باللبنة أو الزيت والزعتر وحبة الحلوى.

سمح لعائلة أبي الهيجا بالعودة إلى الأرض القريبة من القرية، لكن لم يسمح لأفراد العائلة بالعودة إلى بيوتهم التي احتلها الفنانون اليهود.

لم أفهم عندما كنت طفلا لماذا لا يعودون إلى بيوتهم كما كنت أعود من المدرسة إلى بيتي. ولما كبرت وزرت بيوتهم القديمة والتقيت فنانين لا يؤلمهم أنهم يسكنون في بيوت ليست لهم، عندها أصبحت أفهم الألم على نحو يختلف عما كنت أفهمه صغيرا.

ألم الروح أقسى من ألم الجسد، لأن ألم الجسد إن مضى لا يترك أثرا وألم الروح يبقى حتى بعد أن يمضي. يختبيء ثم يظهر من جديد في الذاكرة والحلم والوعي.

في مدينة أحبها..

ولدت في قرية جميلة على جبال الكرمل ولم أغادرها إلا لفترة قصيرة منذ رأيت النور، ولا أعرف سر هذه الإقامة الدائمة في بلدة لا توفر لي شروط حياة تشبع رغباتي في تناول وجباتي اليومية الروحية، فليس فيها مسرح ولا سينما ولا عروض موسيقية ولا مهرجانات.

ألجأ إلى المدينة القريبة التي أحبها، إلى حيفا، التي تطغى عليها ثقافة أخرى ولغة أخرى.

أتقن ثقافة الآخر الإسرائيلي جيدا ولكنها ثقافة القوي، ثقافة من يسبب لي الألم والمعاناة، فيحزنني أن هذا هو قدرنا نحن الباقين في وطننا، ولا أخلص من شعوري بأن أحسده على قدرته الفائقة أولا على التعايش السلمي مع الخطيئة التي ارتكبها قبل سنين طويلة، ولا يزال. وثانيا على ما يتوفر له من امكانات لصناعة ثقافة متطورة يلف بها في كل العالم.

محزن ومفرح أن أذهب إلى المدينة التي أحبها.

أحزن عندما أرى معالمها العربية تتآكل يوما بعد يوم وتختفي بيوت الحجر والأقواس لتحل محلها عمارات القصدير والزجاج العالية والرمادية بلا لون ولا شكل وتستحضر ذاكرتها يوم كانت منارة ثقافية فأطفأها غزو جاء من الغرب جهة البحر، يدّعي أنه يحمل حضارة لكنه دمر المدينة بهمجية بالغة.

أفرح لأنني أرى المدينة التي أحبها تستعيد شيئا من نكهتها الثقافية الفلسطينية بمراكز ومسارح ومقاهي وصحف وقصائد وروايات وبين الحزن والفرح نحاول أن نبني حالة مستحيلة من التعايش، لا لشيء إلا للحفاظ على البقاء.

أفضل ما يوفره لنا هذا الواقع هو متسع للتأمل وللتفكير بالحياة، وعندما نكتب تراوح كتابتنا بين التراجيدي والكوميدي وبين الجاد والساخر، فنتفنن بالجدية إلى حدود العبث ونتفنن بالسخرية إلى حدود العبث أيضا.

لجيل اختار الحياة...

نبكي على حالنا ونسخر من حالنا.

أدركت هذه الحالة قبل ثلاثين عاما عندما قررت أن أبحث عن الذاكرة الفلسطينية لدى الجيل الذي عاش النكبة وعرف ما معنى الخوف والتشرد والموت.

ذهبت إلى هذا الجيل ليجيبني على سؤال قاس واجه كل أبناء جيلنا، نحن الذين ولدنا بعد النكبة، والسؤال هو: كيف حدث أن تركوا بيوتهم وقراهم وتحولوا إلى لاجئين بين ليلة وضحاها؟

كنت أعتقد أن هؤلاء الناس سيحكون لي كل شيء وسيفرغون ذاكراتهم بقصص وحكايات وشهادات من مصدرها الأول، ولكنهم صدموني عندما امتنعوا عن الحديث.

قال لي البعض: إن ما حدث لهم هو جرح مفتوح ولا يرغبون بأن نضغط عليه كي لا ينزف، ليس فقط لأن ألم التشرد موجع ولا يحتمل بل لأنهم يشعرون بالذنب عندما يسألهم أبناؤهم لماذا هربتم.

كان أمامهم خياران: الموت أو الرحيل، فاختاروا الرحيل لأنهم انحازوا إلى الحياة.

وقال آخرون: إنهم يخافون من الحاكم العسكري ومن السلطة الإسرائيلية.

كانوا مسكونين بملاحقة الحاكم العسكري رغم مرور أكثر من عشر سنوات على إلغاء الحكم العسكري. وعندما نطقوا وبدأوا

يسردون رواياتهم انكشف عمق الجرح وبشاعة الجريمة التي تعرضوا لها. لقد كبروا مع هذا الألم إلى أن فارقوا الحياة. حاولوا في البداية إخفاءه عن أبنائهم وأحفادهم لكي لا يتعذبوا هم أيضا ، لكنهم كانوا يقولون لنا : أفعلوا كل شيء لكي لا يحدث لكم ما حدث لنا.

هل نجحنا؟

نحن أيضا فشلنا ونشعر بالذنب لأن جيلنا لم يضمن لأبنائه حياة أفضل، فمشاهد القتل ظلت تتكرر ولا تزال حتى كتابة هذه السطور في غزة والضفة الغربية وفي الجليل والمثلث. نستيقظ كل يوم على مشروع جديد يهدد بترحيلنا وعلى قانون يضعنا أمام خيار الولاء للدولة الصهيونية أو التنازل عن وطننا وكان آخرها التحكم بذاكرتنا ومنعنا من إحياء ذكرى النكبة وإشهار الولاء المستحيل.

نقصد ما نقول

لماذا نواجه الألم بالسخرية؟

أتساءل أحيانا عندما تقسو علينا السياسة وأكتشف أن هذه هي الطريق الوحيدة التي تبقينا على قيد الحياة فنتجاوز الوجع أو نضعه جانبا وننشغل بما يضمن لنا استمرار الحياة.

نحن الفلسطينيين ككل شعوب الأرض نبني ذاكرة ولنا رواية تتشكل يوما بعد يوم، وما سمعته من أهلنا كان الدعائم الأولى لذاكرتنا الشفوية عن الرحيل والموت، ولكنني رفضت أن تكون ذاكرة للموت فقط بل ذاكرة للحياة أيضا ، عن حياة الناس في قراهم قبل أن تهدم، عن أغانيهم وسهراتهم، عن مواسمهم وحصادهم وعن عشقهم للأرض.

إن من يبني ذاكرته على الموت فقط سيجد نفسه وأبناءه وشعبه أمام خيارين: إما الانتحار أو ارتكاب الجريمة، فلا نحن نريد أن ننتحر ولا نريد أن نرتكب الجريمة، كما فعل الإسرائيلي الذي بنى ذاكرته على الموت فقط منذ خراب «هيكله» وحتى الهولوكوست وواصل مشروعه حتى اليوم وهو يرتكب الجريمة تلو الأخرى ويمارسها بأبشع أشكالها في صيغة الاحتلال.

كم هو مؤلم أن ترتبط حياتنا بالحروب. ما إن ننتهي من حرب حتى نبدأ التفكير بالحرب القادمة. نعرف أنها ستأتي عاجلا أم آجلا لكن لا نعرف اين ستقع ومن هي الضحية القادمة منا أو من أهلنا، والأشد إيلاما أن تقرن تواريخنا الخاصة والشخصية جدا بالحرب فنذكر مناسباتنا، الطيبة والقبيحة، في سياق حرب مدمرة.

عشر حروب كان جيلنا شاهدا عليها، من نجا منها يعرفها بتفاصيلها وضحاياها وهي تعود إلينا في كوابيس الليالي القاسية. وعندما نصرخ «كفى للحروب» فاننا نقولها بكل جدية وألم، نحن نقصد ما نقول.

مساق السنين الضوئية

هل نستطيع أن نتحدث عن الم جماعي؟

هذا هو الألم الجماعي، إنه ألم الفرد في سياق الجماعة وهو مجموع آلام الأفراد وهو الذي لا ينتهي عند الأنا إلا إذا انتهى عند الآخر.

ما الذي يخفف الألم الجماعي إذا لم ينته وما الذي يخفف ألم الفرد؟

لا شيء أمام الجماعة إلا الأمل بأن مستقبلا أفضل ينتظرهم للخلاص

ولكي يأتي هذا المستقبل ما عليهم إلا أن يقاوموا ويناضلوا وأن يعيشوا على فسحة الأمل وجدوى النضال، والألم الفردي يخففه البحث عن بديل للموت وعن حياة تتجدد.

أنا ذاهب إلى المستقبل بعزيمة وثقة بالنفس! أعرف ما سيعترضني ولكنني أعرف من ماضيّ أن الأصعب صار من ورائنا. محنة المعتدى عليه ليست اصعب من محنة المعتدي. الصراع في نهاية الأمر على نهوض الأول وانهيار الثاني.

أنا مع سيرورة التاريخ، والتاريخ يتقدم نحو تحقيق ذاتي، ربما بمسافات سنين ضوئية، ولكنه يتقدم نحو العدالة والحرية وكرامة الإنسان. فلنسر مع التاريخ لا ضده!

ثقافة لذاتها، ثقافة في ذاتها

ثقافة الداخل: عن المنفى في الوطن

شهادة ألقيت في افتتاح مؤتمر الثقافة الفلسطينية بعد أوسلو، جامعة الخليل 8 كانون الأول 2010

جئتكم من جبال ووديان الكرمل الذي ظل يحترق أربعة أيام متواصلة.

هامات الشجر الأخضر تحولت إلى لهب حارق وسرعان ما صارت حطبا وعيدانا سوداء، وضعتنا نحن الناس العاديين أمام عجز قاتل، كنا ندركه تماما، مقتنعين أننا لا شيء أمام الطبيعة حين تغضب ولكنها وضعت هذه الدولة المنتفخة أيضا أمام حقيقتها، وهي أنها لا شيء أمام الطبيعة حين تغضب.

لا نشمت لإشتعال النار، فالأرض أرضنا والشجر شجرنا والطيون طيوننا وهكذا الثعالب والعقارب والنحل والفراش وما ليس منا ولنا هو ما يقيمونه على هذه الأرض الطيبة من هشاشة وزيف وطقوس للموت ونصب للهمجية وكره لأصحاب البلاد المقيمين عليها والمبعدين عنها.

من حقنا نحن أهل هذه الأرض أن نتهمهم بارتكاب جريمة بحق الإنسانية على احتراق الكرمل أيضا لأنهم احتلوا هذه القطعة من الجنة ولم يصونوها.

***

مشهد الداخل الثقافي هو مشهدنا نحن الذين بقينا في الوطن على أرضه وتحت سمائه، وكان علينا أن نحافظ على أنفسنا وكان علينا أن نحافظ عليه أو على ما تبقى من فلسطينيته، ترابا وحجرا وتراثا ولغة.

صحونا من هول النكبة وإذا بنا على الخط الأمامي في المواجهة السياسية والفكرية والحضارية ضد الصهيونية، مقطوعين عن أمتنا الأم ولا نتواصل إلا عبر أثير مشبوه ومربك وقصائد تتسلل إلينا من فضائنا الكبير اعتبرناها شيفرة العلاقة الحميمة بيننا وبين أهلنا وشعبنا وامتدادنا الأفقي.

كان على هذه القصائد أن تزاحم في وعينا ما اندس فينا من أشعار لحايم نحمان بياليك المهاجر من بلاد الصقيع وشرنيخوفسكي وغيرهما ممن صاغوا هوية المستوطن الجديد. وأنا الذي ارسلني أهلي يافعا إلى حيفا لم يقل لي أحد إن بيت شاعرنا القومي أبي سلمى، المهجر من حيفا الدافئة، لا يبعد عن مدرستي أكثر من خمسين مترا.

هكذا وجدنا أنفسنا في وطننا لكننا منفيون فيه. نصارع لنبقى ولنحيا أولا ولنعيد تشكيل هويتنا وثقافتنا ثانيا.

هي ثقافة المنفى لأن ثقافة الوطن لا تكتمل إلا بثلاثة: على أرض هي لك ووسط شعب هو لك وفي نظام هو لك ولنا أرض وشعب وأما النظام فهو عدو فرض حاله علينا وحد من حركتنا وقولنا ولا يربطنا به سوى ما ييسر أمر يومنا، يسلب منا نصف جهدنا وأكثر ولا يعطينا إلا فتات ما بقي عنده من صرف على حاله.

كتبنا عن الأرض وغنينا لها كما يليق بها ويليق بنا ونظمنا القصائد النارية دفاعا عن شعبنا وحبا له، كل ذلك في غياب مؤسسة توفر ما على المؤسسة أن توفره.

هي ثقافة بلا مؤسسة ولا مشروع. رومانسية إلى حدود العبث، ساخرة حد البكاء ومقاومة بلا هوادة. وما أدل على منفويتها أكثر من صرخة شاعرنا: سجل أنا عربي ورقم بطاقتي خمسون ألف، فأين تجدون على الكرة الأرضية شاعرا يقول لحاكمه سجل أن أنا هو أنا، إلا اذا قال له حاكمه وهو يجلده: أنت لست هو أنت. والبيت ليس بيتك.

أين تجدون على الكرة الأرضية جماعة أصلانية تعلن ولاءها لوطنها وشعبها صباح مساء كما يعلن فلسطينيو الداخل: نحن جزء لا يتجزأ من شعبنا الفلسطيني وأمتنا العربية وهنا وطننا ولا وطن لنا سواه.

نعلنها للجلاد الذي يهدد بترحيلنا ونعلنها لشعبنا منذ وضعتنا وثائق أوسلو في خانة الشأن الاسرائيلي، ونعلنها لأمتنا العربية التي حشرتنا أنظمتها في الغيتو الصهيوني ثقافة وانتماء لكي لا نكون جزء من مشروع ثقافي عربي وحدوي.

حررونا من قسم الولاء المصطنع فهو يؤسس لثقافة المنفى، ولنكن مدماكا من مداميك المشروع الثقافي العربي الوحدوي، كما ينبغي أن نكون.

لتكن مؤسسته الثقافية مؤسستنا، كما ينبغي أن تكون.

ليكن الوطن العربي من محيطه إلى خليجه فضاءنا، كما ينبغي أن يكون.

ولتكن علاقتنا ليس تواصلا بل وحدة وتلاحما وانصهار.

الذات لا تتواصل مع ذاتها.

الذات متحدة بذاتها.

الأنا يتواصل مع الآخر، وهل أنا الباقي في الكرمل فلسطينيا وعربيا هو الآخر حين يلتقي بابن الخليل والقدس ودمشق والقاهرة؟

علينا أن نكون كما ينبغي أن نكون.

سنفكك معضلة الإنتماء الثقافي حين نزيل من وعينا الحدود والحواجز والخطوط والجدارات والوثائق المزيفة. حين ننظر إلى وحدة الثقافة لا إلى أجزائها. وحين نشحنها بفكر تنويري، متحرر وخلاق أصيل.

ثقافتنا في الداخل ثقافة منفى لكنها ذاكرة وطن. هي ذاكرة الأدب وأدب الذاكرة.

لم نكن مرفهين في ستين عاما لكي نكتب رواية خيالية عن قصص حب عذري أو إباحي أو علم خيالي أو ثرثرة أدبية لأننا منشغلون حتى

العظم بواقعنا الأغرب من الخيال وبهمنا الوجودي الذي يستحوذ على مشاعرنا ووجداننا وأقلامنا أيضا فتصدر عنا الرواية التسجيلية أو الواقعية النمطية التي نجلد بها أحيانا حين نواجه بالسؤال: لماذا لا تخرجون من واقعكم؟ ومنهم من يسألنا ببراءة لأنه يريدنا أن نكون طبيعيين في واقع مستحيل ومنهم من يريدنا بخبث أن نتخلى عن دورنا التاريخي. ونحن ماضون في عصف ذاكرتنا لصياغة رواية نواجه بها أولئك الذين زيفوا رواية هذا الوطن وسيرته.

مشهدنا الثقافي في الداخل يستعيد ما كانت عليه فلسطين قبل النكبة، ويوثق ما هي عليه اليوم. وما كانت فلسطين صحراء وجبالا جرداء بل منارة ثقافية شعت على الشرق والغرب بما ابدعته من ادب ومسرح وموسيقى وفكر تنويري كان يقود إلى بناء شرق عربي حداثي ينافس أوروبا التي دمرتها حرب مصالح وعنصريات أوقعت خمسين مليون ضحية.

وحلت النكبة لتوقف هذا المد الحضاري.

نكتب عن حيفا وعكا والقدس ويافا بما نشرته من أدب وبما أنشأته من ورشات ابداعية وبما شيدته من عمارات وبما زرعته من زيتون ولوز وتين ورمان.

نكتب عن رحلة الصحراء التي قطعها الإنسان الفلسطيني ولا يزال يمشي بين صواب وتيه وبين ياس وأمل وبين تراجع ثم تقدم ثم تراجع وتقدم، دون كيشوتي الارادة وسيزيفي المنال، وهو أنا وأنتم في ما نأكل ونشرب ونتأمل ونغضب ونحلم ونتألم ونقاوم .

انه أدب عن موت الإنسان لكن عن حياته أيضا.

لا نتوقف عند ذاكرة الموت بل نبني ذاكرة الحياة معها لكي لا ننتحر أو نرتكب الجريمة.

هذا هو درس الثقافة بعد أوسلو، أو ردا عليها لكي تكون ثقافتنا ثقافة وطن وذاكرة وطن.

***

احترق الكرمل وقبل أن تخمد النار بدأ المسؤولون عن احتراقه يتراشقون التهم ويستخلصون العبر.

انتقلت النار إلى مكاتبهم ووزاراتهم ومسؤوليهم ولن يخمدها أن علقوا تهمة احتراقه برقبة طفل عربي من أهله وهو منها براء.

كلهم مدانون بارتكاب الجريمة، ليس فقط لأنهم أهملوا وناموا في ساعة الحراسة، بل لأنهم منذ ستين عاما وأكثر تعاملوا مع طبيعة بلادنا بثقافة ليست ثقافتها.

فتحوها بمفاتيح الثقافة الأوروبية استعلاء على الشرق وإمعانا بحق القوة لا قوة الحق.

لقد جعلوا شجرة الكينا بطلا ثقافيا نسجوا حولها الأساطير عن قدرتها في تجفيف المستنقعات التي وصفوا بها بلادنا وانهارت هذه الأسطورة قبل سنوات عندما اكتشف خبراؤهم أن تجفيف الحولة أحدث خللا قاتلا في الطبيعة واعترفوا بخطئهم وخطيئتهم وبدأوا يعيدون المياه إلى ما بقي من أرض الجليل التي بنوا عليها مستوطناتهم وفنادقهم.

وجعلوا شجرة الصنوبر الأوروبي بطلا ثقافيا فقلعوا أشجار الزيتون

والسنديان والتين والرمان التي زرعها أهلنا وغرسوا أشجار الصنوبر الإبرية واليوم، بعد الحريق، اكتشف خبراؤهم أن هذا الشجرالأوروبي لا يتناسب وطبيعة بلادنا لأنه سريع الاشتعال وأوصوا باقتلاع ما بقي منه على قيد الحياة.

هذه هي عبرة الصنوبر وانهيار الأساطير في ما قالته طبيعة بلادنا لفاتحيها من الغرب.

فليعرفوا طبيعة بلادنا وليسألوا أهلها عن مفاتيحها.

التيار الواقعي: درزي عربي فلسطيني

النقاش الذي افتعلته السلطة والمقربون منها حول تعريف هوية الدروز القومية، يكاد يكون قد انتهى هذه الأيام حين يكون موضوعه «الدروز عرب أم لا» ولا يصدق اليوم من ينكر على الدروز انتماءهم لأمتهم العربية. ولكن النقاش اليوم هو «هل الدروز فلسطينيون أم لا؟» وهو نقاش مفتعل أيضا في محاولة لسلخ أبناء الطائفة الدرزية عن شعبهم العربي الفلسطيني، وبالطبع وسط المناخ الشوفيني المعادي لكل ما هو فلسطيني والمخيم على هذه البلاد تصبح المعركة من أجل اثبات هذه الهوية هي أمر على غاية من الصعوبة، والصعوبة لا تكمن في صحة الحجج والبراهين بل في تجاوز عقدة الخوف والتخلص من عملية غسل الدماغ والترسبات التي تتركها عملية التربية الرسمية وتأثير وسائل الإعلام، وحين يتعمق النقاش مع القوى التي تتنكر لإنتمائها لشعبها الفلسطيني يظهر عمق تأثير هذه التربية عليهم إذ تغطي على وعيهم القومي، ومنطق تفكيرهم.

الإنتماء الطائفي لا يلغي الإنتماء القومي، وليس هناك قومية لا تتشكل

من مجموعات طائفية أو مذهبية أو دينية، يجمعها اللغة الواحدة والتاريخ المشترك والأرض أو الوطن والتراث والعادات والتقاليد والحضارة وبُنى تحتية وفوقية واحدة، وهكذا بالنسبة للشعب الفلسطيني، والذي يشكل من طوائف عربية، وما ينطبق على الدرزي في شفاعمرو، وفي البقيعة وعسفيا وكفرياسيف، وفي جولس ودالية الكرمل وبيت جن ينطبق على غيره من العرب في طمرة وسخنين والناصرة.

التجنيد الإجباري في الجيش والمفروض على أبناء الطائفة الدرزية لا يلغي هذا الإنتماء، بل ينشر العدمية القومية في اذهان ومشاعر الشبان الدروز وهذا من اهدافه، والمسألة الأساسية متعلقة مباشرة بوعي الشاب الدرزي، الذي يقاد للخدمة العسكرية، وهناك العشرات من الشبان الواعين الذين يتهربون من هذه الخدمة او يرفضونها جهرا معلنين حتى في المحاكم العسكرية: «نحن جزء من الشعب الفلسطيني ولا يمكن أن نخدم في الجيش الذي يقمع شعبنا في المناطق المحتلة» ورفض الخدمة في هذه الحالة ليس لأسباب ضميرية انسانية وحسب، بل لأسباب قومية أيضا وهذا حق لا تعترف به السلطة فهي ترفض الاعتراف بالحقوق القومية المشروعة والعادلة لكل أبناء الشعب الفلسطيني.

الشاب الذي يرضخ للتجنيد، لا يزيل عنه إنتماءه إلى شعبه فهو لا يستطيع «التخلص» من هذا الإنتماء، لا يستطيع أن يتخلص من لغته وثقافته وعاداته وتاريخه وموروث أجداده وآبائه، لمجرد أنه حمل السلاح الإسرائيلي أو ليس بزته العسكرية، إنما هو يرضخ لقانون مجحف ويسقط في العدمية القومية، ويتحول إلى أداة كالسلاح الذي بين يديه دون وعي وإدراك لما يفعله، وإذا كنا نسمع أحيانا عن سلوك لا إنساني يقوم به مثل هؤلاء الشبان في أثناء خدمتهم ويتنافى هذا السلوك مع قيمهم القومية وحتى الدينية فلأنهم تحولوا إلى أدوات طيعة بعد أن سحقت

شخصيتهم. ولذلك فإن المعركة هي بالأساس ضد سياسة السلطة ولكن على وعي هؤلاء الشبان، وكرامتهم القومية، والصعوبة هنا في الثمن الذي يدفعه هذا الشاب وعليه أن يقرر هو بنفسه أي السبيلين عليه أن يختار: إما الاستسلام ومسح شخصيته وأما الرفض والسجن ومواجهة السلطة، وعندما نتحدث عن شاب بين هاتين النارين، فيجب إلا ننسى أنه ما زال في الثامنة عشرة من عمره، ولم تكتمل تجربته في الحياة وانه وليد تربية منهجية مدروسة ومكلفة استمرت على الأقل 12 عاما، وأنه أمام تحديات حياتية قاسية ومستقبل غامض وفي مجتمع تصل في قدسية الأمن حدود الميثولوجية والغيبية.

تراهن السلطة في مواصلة سياستها على وعي الشاب الدرزي والقوى التقدمية أيضا يجب أن تراهن على هذا الوعي، والتوعية ليست عملية ميكانيكية مثلما أن طمس الوعي ليس عملية ميكانيكية، ولذلك فإن هذه المسألة ليست مسألة درزية فقط، إنما هي قومية ووطنية من الدرجة الأولى.

بالرغم من كل ممارسات السياسة الإسرائيلية لتعميق العدمية القومية بين أبناء الطائفة الدرزية، إلا أن جذوة النضال الوطني بينهم لم تنطفئ، وحتى في سنوات الخمسين كانت قوى واعية تناضل ضد الحكم العسكري ومصادرة الأرض وفي عام 1956، عندما فرض التجنيد الإجباري، اتسم نضال هذه القوى بطابع جماهيري، ويحكي شفيق زاهر من عسفيا وهو من الفوج الأول الذي استدعى للخدمة، وقد آثر مع ثلاثين شابا السجن على هذه الخدمة. يحكي عن مظاهر الاحتجاج أنها كانت عنيفة في السجن وخارجه، ولم يتوقف نضاله ضد التجنيد حتى هذه الأيام، وفي عام 1977 جعل من بيته مقرا للجنة المبادرة في عسفيا، وعقدت فيه اجتماعات شعبية حضرها العشرات من أهالي

القرية وعندما حاولت السلطات تجنيد أبناء أسرته في الجيش، وحاولت بالقوة والارهاب والاعتداء على حرمة البيت سحبه الى سلك الجندية، اصطدمت قوات البوليس بمقاومة عنيفة، دافع فيها كل أبناء الأسرة بشرف عن حقهم في الحفاظ على كرامتهم وحرية ضميرهم ومشاعرهم القومية والوطنية.

في عام 1956 تشكل وفد من قرى الكرمل والجليل، من معارضي الخدمة الإجبارية. وتوجه إلى الكنيست للتظاهر وتقديم عريضة احتجاج، ووقع على عريضة أخرى حوالي 1500 مواطن، أرسلت إلى السلطات وحكومة بن غوريون كما يقول الشيخ فرهود فرهود، ابن قرية الرامة الجليلية وهو من أوائل المناضلين ضد التجنيد ومؤسس لجنة المبادرة الدرزية، هذه اللجنة التي اخذت على عاتقها النضال المثابر ليس فقط ضد التجنيد وإنما ضد كل سياسة السلطة تجاه الطائفة الدرزية. ومن الرامة انطلقت أصوات أخرى في ذلك الوقت فصوت سلمان شحادة ونديم القاسم ثم سميح القاسم الذي أعتقل في عام 1960 لرفضه الخدمة العسكرية وكتب إلى رئيس الدولة «إنني كعربي أؤمن بعروبتي أرفض حمل البندقية» وفي عام 1972، أقيمت لجنة المبادرة الدرزية التي كانت واضحة في مطالبها وتحدياتها: «رفض الخدمة الإجبارية وعدم السماح للسلطات بالتدخل في الشؤون القومية والدينية للطائفة الدرزية، يقول نبيه القاسم في مؤلفه «واقع الدروز في إسرائيل» (ص111): «كان لولادة هذه اللجنة الدرزية الأثر الكبير على احتضان بوادر الوعي الملتزم بين الفئات الدرزية وتنشيطها ودعمها وتوحيدها. وتعتبر ولادة هذه اللجنة دلالة تحول إيجابية وثورية ومصيرية في حياة الطائفة الدرزية في إسرائيل إذ أنها قادت حركة الوعي القومي العربي بين أبناء الطائفة الدرزية، وكانت الصوت العربي الدرزي المسموع في كل مناسبة قومية، وأقامت الندوات والاجتماعات في كثير من قرانا العربية في المثلث والجليلين

والقدس» وما قامت به لجنة المبادرة الدرزية وقوى أخرى، غير منظمة في اللجنة في العقدين الآخيرين، يشهد على فشل سياسة السلطة من جهة، وعلى تعمق الوعي القومي لدى الدروز من جهة أخرى، وجاءت أحداث الجولان والعدوان على لبنان عام 1982 ومعركة الزابود دفاعا عن أراضي بيت جن في عام 1988 ثم الإنتفاضة لتؤكد على الحقيقة التي أشرنا إليها سابقا وهي أن الدروز بالرغم من خدمتهم العسكرية في الجيش، وبسبب هذه الخدمة هم اكثر من يعاني من سياسة التمييز العنصري والاضطهاد القومي والطائفي ومن جهة أخرى أصبحت الهوية: أنا درزي عربي فلسطيني، ترسخ اكثر فأكثر في وعي ووجدان المزيد من أبناء الطائفة الدرزية.

أطلقنا على التيار الذي يحمل هذه الرسالة، «التيار الواقعي» لأن تعريف هذا التيار للدروز في إسرائيل، هو من صميم الواقع والحقيقة والتاريخ.

دائرة الطباشير الفلسطينية

يا جنرال، مدرْعتك آلة جبارة/ تستطيع أن تطحن غابة/ وأن تقتل مائة إنسان/ لكن، بها خطأ واحد/ تحتاج إلى سائق../ يا جنرال، الإنسان كائن مفيد/ بإمكانه أن يطير وأن يقتل/ ولكن، به خطأ واحد/ يستطيع أن يفكر/

(برتولد بريخت)

«الاتحاد» 1993/7/30

في الرابع عشر من شهر آب، تحل ذكرى وفاة الشاعر والمسرحي الألماني برتولد بريخت (1898 - 1956) وإذا كان هناك مبدع نجح في رفع قضية الإنسان إلى المستوى الذي يليق بالإنسان، فهو برتولد بريخت.

ما أحوجنا في هذه الأيام الى كلمات هذا المبدع، عن الحرب والسلام، عن الحياة والموت، عن الأسياد والعبيد، عن الجنرالات والناس البسطاء، عن الفقر وعن العدالة وعن الظلم وعن الحرية. كتب قصائده ومسرحياته بين حربين عالميتين وفي خضم الحرب الثانية والحرب الباردة التي قسمت العالم إلى معسكرين متصارعين وإلى مجتمعات اذدنبت خلف هذا وذاك، قسمت الإنسان والفكر والحضارة، تماما مثلما وردت في دائرة الطباشير القوقاسية وحد سيف الملك سليمان، وهما قصتان سنعود إليهما لاحقاً.

أعود إلى برتولد بريخت وأنا اتابع مجريات السياسة في منطقتنا كما يرسمها سياسيو المنطقة بتصريحاتهم وجولاتهم وقراراتهم وحتى نواياهم. ويبدو لي أ منطق السياسة العالمية، الأمريكية بشكل خاص، يريد أن يحكم بين الأطراف المتنازعة، بسيف سليمان وفكر القاضي «أزدك» بطل مسرحية بريخت، دائرة الطباشير، كل ما يفعله هذا الأزدك الأمريكي هو أن يحشر الأطراف المتنازعة في عقدة القرار المصيري: من هي الأم الحقيقية؟ هكذا في كرواتيا والبوسنة، وهكذا في لبنان وفي الصومال وفي كوريا وفي فلسطين الكبرى أو أرض إسرائيل الكبرى (لا تهم التسمية الآن).

يبدو لي أن جميع الصراعات عبر التاريخ البعيد والقريب، حلّت وفقا لسيف سليمان ولذلك فهي لم تختف ولم تنته، لأن هذه القسمة تنتهي بأمرين: الأول أنها وإن كانت تبدو عادلة ومنطقية إلا أنها مثل نتائج

الحرب، فيها طرف منتصر تماما وطرف منكسر تماما، والأمر الثاني أنها تأخذ بعين الاعتبار الحق الشرعي لإحدى الوالدتين، وهي تبرز حكمة وذكاء القاضي. لكن في الحالتين لم تكن مصلحة الطفل هي الأمر الأهم لا في نظر القاضي ولا في نظر الوالدتين اللتين وافقتا على هذا الشرع.

السياسة الإمريكية - الإسرائيلية التي تقوم بالأساس على هذا الشكل من أشكال التحكيم، تخطئ خطأ فادحا لأنها لا تأخذ بعين الاعتبار مصلحة فلسطين - أرض إسرائيل، بشقيها العربي واليهودي، ولذلك فان جميع الأطراف تلجأ إلى إدعاءات تاريخية جغرافية وأمنية لتعزز قدرتها على الشد اللامجدي بيد الطفل لتأخذ أكبر قسط منه بعد تمزيقه وقصمه.

سياسيو اليوم، ليسوا اذكى من الملك سليمان، ولا مدوني التوراة، فليس صدفة ان القصة التاريخية تحكي عن «امرأتين زانيتين» أي أن هناك تغييبا للجانب الأخلاقي في هذه القضية، الطفل ليس له أب شرعي، والتحكيم بين زانيتين يسهل على القاضي اللجوء إلى تشريع لا يقوم على قاعدة أخلاقية، ولا على عدالة تأخذ بعين الإعتبار في الدرجة الأولى حياة ومستقبل الطفل المتنازع عليه وكذلك مشاعر الأم التي فقدت ابنها. وليس صدفة أن تنتهي القصة التوراتية بالاستنتاج التالي «ولما سمع جميع اسرائيل بالحكم الذي حكم به الملك خافوا الملك لأنهم رأوا حكمة الله فيه لإجراء الحكم» (الملوك الاول، الإصحاح الثالث).

يبدو لي أن السياسة الأمريكية قائمة على هذا الدرس من التوراة، تترك «الزانيتين» تتصارعان لتأتي في نهاية الأمر مهددة بالسيف وتثبت ان «حكمة الله فيها لإجراء الحكم». هذا ما سيحاول أن يطرحه وزير

الخارجية الأمريكي، كريستوفر في زيارته القريبة إلى المنطقة. وإذا كانت الولايات المتحدة في السنوات الأربعين الماضية، حاولت أن تثبت أنها هي شرطي العالم فالتغير في سياستها، إنها تريد أن تثبت بأنها قاضي العالم في النظام الجديد، هي سليمان الملك وهي أزدك القوقاسي.

اعتمد برتولد بريخت في مسرحيته أسطورة صينية قديمة، ولا شك أنه كان يعرف القصة التوراتية عن الملك سليمان، ولكنه آثر الأولى فقوقسها (حولها الى قوقاسية) لأنها لا تتجاهل القاعدة الأخلاقية، وهي أن الأم البيولوجية تخلت عن الطفل باختيارها وبسبب أنانيتها، ولذلك فإنها فقدت الحق الأخلاقي في المطالبة بالطفل بعد أن ربته الخادمة «جريشا»، وكان طبيعيا أن يختار هذه الأسطورة لأن بريخت هو مبدع ينطلق من الإنسان ويضعه هو في مركز الدائرة، أما الخطأ في هذه الأسطورة أيضا فهو أنها لا تأخذ حياة الطفل ومستقبله بعين الإعتبار بل تصفية النزاع بين الأم البيولوجية والأم المربية.

لقد كتب بريخت هذه المسرحية في عام 1945 أي مع نهاية الحرب العالمية الثانية وبداية الحرب الباردة التي استهدفت تقسيم العالم ورسم الحدود بين الدول والمجتمعات الأوروبية التي خرجت ممزقة من هذه الحرب، وقد ثبت أن اعتماد هذا الشكل من التحكيم لم يقدم للعالم إلا المزيد من سفك الدم والحروب الصغيرة والكبيرة، وما زلنا حتى اليوم ندفع ثمنا باهظا لهذه السياسة، فأي دائرة يمكن أن ترسم اليوم لحل الصراع القائم في منطقتنا إذا كنا نريد العودة إلى ذكرى الشاعر والمسرحي الألماني الكبير برتولد بريخت؟

احتجت إلى الكثير من المعاناة الفكرية في محاولة الربط المنطقي بين دائرة الطباشير القوقاسية وبريخت من جهة وبين القضية الفلسطينية

والصراع الإسرائيلي العربي من جهة أخرى، واجتهدت في محاولة رسم دائرة الطباشير الفلسطينية، باعثا في الذاكرة المواقف الفلسطينية التي تصدر عن القيادة في تونس وفي المناطق المحتلة، منطلقا من الرؤيا الواقعية التي تميزت بها هذه المواقف في السنوات الأخيرة، خصوصا بعد اجتماع المجلس الوطني في الجزائر عام 1988. ويبدو واضحا أن الشعب الفلسطيني بما يطرحه، يرسم دائرة الطباشير الجديدة، ليس بمنطق أزدك القوقاسي الذي يتجاهل مصلحة الطفل وإنما بمنطق يأخذ بعين الاعتبار حياة هذا الطفل ومستقبله ورفاهيته. وفي هذا الاسبوع، استطاعت ليلى شهيد، مندوبة فلسطين في باريس، أن تعطي التعبير الصحيح عندما قالت «ان فلسطين واسرائيل وجهان لعملة واحدة، ولن تكون هناك إسرائيل من دون فلسطين ولا فلسطين من دون إسرائيل». واضافت ليلى شهيد: «نحن مرتبطون بحبل سري يجعل تاريخنا أقرب إلى تراجيديا إغريقية منه الى نزاع سياسي. لقد تبادلنا الرفض خلال سنوات طويلة وعلنيا إلى أن نقبل ببعضنا البعض» («الاتحاد» 93/7/25).

الآن الدائرة أوضح، فهي أوسع من أية دائرة طباشيرية رسمت في التاريخ، هي تعني أن يوضع الطفل والوالدتان في قلب الدائرة، وبدلا من أن يشدّا في يديه إلى الخارج، تأخذ كل منهما بيد وتعمل الاثنتان سوية من أجل مستقبل هذا الطفل. في الآونة الأخيرة طرحت اقتراحات مختلفة لإقامة كونفدرالية أردنية - فلسطينية وإسرائيل منذ سنوات تؤيد هذه الكونفدرالية على أمل أن تحتوي الدولة الأردنية الهاشمية الدولة الفلسطيني، في جزء من الضفة الغربية، لأنها، أي إسرائيل، تطمح بالإستيلاء على الجزء الآخر!

لماذا كونفدرالية مع الأردن؟ لأن هناك من يعتقد (في الجانب الإسرائيلي، والعربي أيضا) أن الصراع بين اليهود والعرب هو ظاهرة خالدة، أي لا

يمكن أن يجتمع اليهود والعرب تحت سقف واحد، حتى في ظروف سلام، هذا الإدعاء الذي روّج له آباء الصهيونية، له أسبابه التاريخية الذاتية، خصوصا لدى أولئك الذين لم يتخلوا عن عقلية «الغيتو» اليهودي، ولكن ليس له ما يبرره تاريخيا ولا موضوعيا، لأن تجربة الحياة اليهودية - العربية المشتركة عبر حقب التاريخ أثبتت حقا أن الشعبين هما وجهان لعملة واحدة. ومع ذلك فإن مستقبل الشعبين لن يقوم فقط على التجربة التاريخية بل على نظرة مستقبلية شاملة ورصينة، تعتمد بالأساس على حق شعبي المنطقة في الحياة الكريمة والحرية والمساواة وعلى تطلعات صادقة لجعل هذه البلاد بشقيها الفلسطيني والإسرائيلي مركزا حضاريا واقتصاديا وسياحيا عالميا.

بناء على هذا، وضمن دائرة الطباشير الفلسطينية - الإسرائيلية ما يجب ان يطرح هو كونفدرالية فلسطينية إسرائيلية. هذا الطرح يبدو للوهلة الأولى طوباويا، إذا ما أدرج ضمن رزنامة للسنوات القريبة القادمة، ولكن، إن من يفكر للمدى الأبعد فلا بد أن يصل ألى هذا الشكل من أشكال التعايش السلمي.

إن التفكير بمفاهيم سلمية في العلاقات بين شعوب المنطقة لا يمكن إلا أن يؤدي إلى خلق شكل من العلاقات على نمط ما يتبلور الآن في أوروبا الغربية، حتى قبل خمس أو ست سنوات كان الحديث عن ألمانيا موحدة يعتبر ضربًا من الهذيان، وحتى قبل عشر سنوات لم يكن الفرنسيون والبريطانيون يفكرون بفتح الحدود بينهم كما هو اليوم، ولم تكن افكار معاهدة « ماستريخ» إلا حبرًا على ورق الكتاب والمفكرين والحالمين بأوروبا أفضل.

الشعب الفلسطيني يستطيع أن يطرح دائرته الطباشيرية على الإسرائيليين والرأي العام العالمي، فهو شعب يفكر «بغده كما يعيش أبدًا» وهكذا الإسرائيليين أيضا، وإلا كيف نجحوا في إقامة دولتهم حتى بعد ألفي عام من التشرد؟

من هناك حتى ثورة النعناع

على خط المواجهة

.. ضائقة اليهود منحتنا حقا أخلاقيا بأن نأخذ جزءًا من أراضي الفلسطينيين حين كنا نعد خمسين ألف وهم أكثر منا بعشرة أضعاف، لقد استولينا على جزء من أراضيهم لنقيم دولة يهودية..

م .ب. يهوشواع

عن العنصرية والتأتأة والمطر الخريفي ندوة «بيت الكرمة» حول «دور الكاتب في مكافحة العنصرية»

- حيفا 85/10/22

يسرني أن اتحدث عن دور الكاتب في مكافحة العنصرية وتعميق التفاهم بين أبناء الشعبين، هذا الدور الذي لا يمكن أن يتعزز إلا إذا كان الكاتب صريحا مع نفسه ومع غيره، حادا في رؤياه للماضي والحاضر والمستقبل، واضحا في صياغة أفكاره وكلماته وأعماله.

وأن تكون هذه المناسبة تحت رعاية وزير المعارف والثقافة فإنها ستتسع أكثر لقول الصريح والحاد والواضح خصوصا وأننا أمام خطر جسيم إذا تفشى وغلب فلن يحيد عن عربي ولا عن يهودي يطمح كل منهما، أو كلاهما، غلى التعايش أو لمجرد الحياة الكريمة، ولذا فإن الحيادية في هذا الظرف ليس لها باطن إلا الخيانة.

بسط الرعاية على الثقافة العربية، لن يكون له مضمون إلا ببسط الرعاية على الإنسان العربي، ليس بمعنى العطف والمجاملة، بل بمعنى الدفاع عن، وضمان حق هذا الإنسان في ممارسة حياته متمتعا بكامل الحرية الشخصية والقومية والديمقراطية.

العنصرية لم تنزل علينا من السماء مع المطر الخريفي المشبع بالغبار والدخان وهي ليست من وسوسات الأبالسة والشياطين. لا تولد بأحد ولا ترضع من حليب الثدي أو المجفف. أنها تنشأ على تربة وعلى أرض وفي مستنقع، كلما خصبت تربتها، كلما زاد انتشار العنصرية ونموها، ومن يحصن هذا المجتمع من انتشار هذا الوباء؟

لا يخيفني الراب كهانا بقدر ما يخيفني أولئك الذين يتأتؤون حين يكون النقاش عن مجرد الحياة وحرية الإنسان، أولئك الذين يقولون: إن اليهودي شيء والعربي شيء آخر. إسرائيل شيء وفلسطين شيء آخر. طفلهم شيء وطفلنا شيء آخر، دمهم شيء ودمنا شيء آخر. ويكون التعايش في نظرهم سلاما بين السيد والعبد وبين الفارس والحصان وبين القاتل والمقتول وبين الجاني والضحية.

ولما كنت أنتمي إلى الشعب الضحية في هذا الصراع المتواصل، فإن الصرخة تأتي على قدر الوجع، ولا أستطيع أن أكون محايدا ولا أن أكون متفرجًا، أكتب الأدب من أجل الأدب وأبدع الفن من أجل الفن،

كي أبعد عن التهمة الكبرى التي كثيرا ما وجهها اليّ زملائي من الكتاب العبريين أنني أكتب الأدب السياسي الملتزم أو أدب الشعارات، ولهذا فهو ليس أدبا، وأسمعها أحيانا من بعض الزملاء العرب الذين يبحثون عن كتابة بلا هوية وعن أدب بلا إنتماء وعن نشيد لا يسمع إلا في «خمارة البلد».

نعم، أنا ملتزم حتى العظم وحتى النخاع بالدفاع عن شعبي وعن شعوب العالم المظلومة، عن الفقراء والضعفاء والمعوزين، عن الضحايا، عن الأطفال الذين ينزف دمهم في الأزقة والاكواخ والمخيمات وعن الذين يمزقهم رصاص العنصرية والقمع في جنوب أفريقيا وتشيلي وفي لبنان وفي الضفة الغربية، هكذا فهمت دوري وهكذا أفهم رسالتي، وكم تثقل هذه المسؤولية حين يصاب مجتمعي بداء العنصرية البغيض على أرضية الاحتلال والحروب والتحريض والتمييز والملاحقة والقمع والبطالة، لكن، ما دام حديثنا عن الثقافة والحضارة والأدب، فلنترك كل هذا جانبا، ولنلق بعض الضوء على الأدب الذي ينشأ على هذه الأرضية.

علمتني مناهج وزارة المعارف في الأدب العبري وفي الأدب العربي، وفي التاريخ القريب وفي التاريخ البعيد أن «شعبا بلا أرض جاء إلى أرض بلا شعب» وأن هذه البلاد قبل قيام الدولة كانت إما صحراء قاحلة وما مستنقعات تغطي أرض الحولة وأرض المرج وأرض السهل. وأن من سكنها كانوا من البدو الرحل أو من قطاع الطرق وعصابات التشليح والسبي والنهب. ولما كبرت خارج وزارة المعارف تعلمت أن على هذه الأرض كان يسكن شعب بنى حضارة وبنى مدارس وبنى مدنا وقرى وزراعة وصناعة وأصدر الكتب والمجلات وأنتج المثقفين الذين انتشروا في كل أنحاء الشرق.

ولما كبرت تساءلت، كيف يمكن أن يتم التعايش بين من ينظر من فوق إلى أسفل مع من يريدونه أن «يتدحرج من أسفل إلى فوق»؟

كيف يتعايش من علموه أن جذوره تمتد في هذه الأرض إلى ألفي سنة مضت مع من يحاولون بتر ساقه المغروزة عميقا في هذا التراب الخصيب؟

في المدرسة عرفت الكثير عن بياليك وعن شمعوني وتشرنيخوفسكي وعن شالوم عليخم ومندلي موخير سفاريم ولم أعرف في حينه شيئا عن أبي سلمى وإبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وخليل بيدس، وقد أيقظني محمود درويش في أوائل الستينيات حين قال في قصيدته الشعار أو شعاره القصيدة:

سجّل أنا عربي

ورقم بطاقتي خمسون ألف

وأطفالي ثمانية

وتاسعهم سيأتي بعد صيف

سجّل أنا عربي

أنا اسم بلا لقب

صبور في بلاد كل ما فيها

يعيش بفورة الغضب

نحن جزء من شعب لم يقدم للحضارة البشرية اكثر من أي شعب آخر ولكنه لم يقدم لها أقل من أي شعب آخر. إن شرط التعايش هو المساواة التامة بكل شيء. والشرط الأساسي لمكافحة العنصرية هو بالتخلص من لعنة الاحتلال والاضطهاد وبتهذيب المشاعر القومية الشوفينية لدى

المواطن اليهودي واحترام المشاعر القومية لدى المواطن العربي.

قبل أسابيع أصدر موظف كبير في وزارة المعارف أوامره بحظر اللقاءات بين الطلاب العرب واليهود بحجة أن هذا سيؤدي إلى الدمج والاختلاط. لست أدري كيف يبقى هذا الموظف في منصبه! ليس لأنه عنصري فقط بل لأنه موظف كبير ولا يعرف تاريخ شعبه الحديث والقديم. فحين صدرت أوامر قبل خمسين عاما تحظر اللقاءات بين اليهود وغيرهم، كانت بحجة أنها تؤدي إلى الدمج والاختلاط، وبحجة المحافظة على نقاوة ذلك العرق البشري المختار، فإما أن هذا الموظف يجهل هذا التاريخ القريب وهذا أمر خطير وإما أنه لا يجهله ويتبناه وهذا أمر أخطر بكثير. وفي الحالتين يجب ألا يتسع مقعد في الوزارة لمثل هؤلاء.

بين عشرات الكتب التي يقرأها الأطفال اليهود، مجموعة «البحارة» للمدعو أفنير كرميلي، كتب في إحدى قصصه عن أهالي أم الفحم أنهم كانوا قبل قيام الدولة يختطفون الفتيات اليهوديات من «زخرون يعقوب» وأنهم كانوا قطاع طرق وعصابات قتل واجرام، قرأت قصصه بين الطلاب وفي المدارس، وهل كانت مصادفة أن الراب كهانا اختار أم الفحم لتكون أول قرية يعتدي عليها بعد أن حصنته «الدمقراطية» الإسرائيلية ولم يمنعه من تلويث القرية سوى ذلك السد البشري التقدمي العربي اليهودي والصخور التي تدحرجت عن تلال أم الفحم؟

يسرنا أنه أعترف رسميا وشعبيا بأصالة وجودة الحصان العربي وارتفاع قيمته بين الخيالة أبناء الكيبوتسات وحتى وزير الشرطة بارليف، لكن مكانة الخيال العربي لم تتغير في الأدب الذي يكتب للأطفال وفي نظر الشرطة وخيالها، فهذه هو صورة الخيال العربي في قصة اليعيزر سمالي التي كتبها في العام 1933 وأعيدت طباعتها 12 مرة حيث يصف

الخيال ابا نعمة: «عينا غضب لمعتا في وجهه المتصلب تحت جبهته الضيقة والصغيرة، شارباه كانا منتصبين ألى أعلى مثل قرنين، وأنفه المجدّب أضاف إلى وجهه تعبيرًا كأنه طير جارح شرير».

ربما أنني كاتب سيء وربما أنني قارئ اسوأ، ولكنني لا أستطيع في هذه المناسبة التي نبحث فيها عن وسائل لمكافحة العنصرية وللتعايش العربي اليهودي، لا أستطيع إلا أن اسأل الزميل أمنون شموش وهو الذي عايش العرب وولد بينهم ونشأ معهم، كيف تريدني أن افهم العربي «الشاذ والطائش والحرامي» في قصتك «المنديل الأحمر» التي نشرتها مجلة رابطة الكتاب العبريين في آذار 1983، وكيف تريدني أن أفهم «السنيور بشوتو» أحد الأثرياء اليهود، الكريم والأصيل، وقصة زهرة الملفوف والمنديل الأحمر، والشيخ العربي وقدامى الكيبوتس والزريبة التي تحولت إلى مصنع والمواشي التي تحولت إلى تراكتورات؟

في الآونة الأخيرة تنشر استطلاعات عديدة عن نظرة الطلاب اليهود إلى العرب، والأكثرية بينهم تتصورهم على أنهم حرامية وقتلة ومتخلفون ومخادعون، الكثيرون بين هؤلاء لم يعايشوا العرب في قراهم وبيوتهم، بل في الكتب والمجلات ووسائل الإعلام التي كتبت عنهم، فكيف تريدونني أن أكافح العنصرية؟

تكثر النعوت والصفات التي تلصق بالعرب والمقتبسة عن قواميس البيولوجيا والزيولوجيا والبكتيريولوجيا، فمن «سرطان في قلب الأمة» إلى «حيوانات تدب على قدمين» إلى «صراصير مسممة في قنينة» إلى «فئران مخدرة» إلى «اوكار مخربين». نسمع هذه التسميات فنهتز من أعماقنا ونغضب ونثور، ومن فينا يعتز بكرامته القومية وهويته الفلسطينية وحضارته ومشاعره الوطنية ومواقفه التقدمية فإنه يكون

أكثرنا تجندًا في المعركة ضد العنصرية ومن أجل التعايش العربي اليهودي ومن فينا ينطوي تحت سياسة التمييز ويقبل العار والذل والإهانة ويقطع جذوره ويفقد أصالته الوطنية وحسه التقدمي فإنه يهرب من المعركة وينتظر موته مختبئا بخوفه ومهانته ومذلته، وعلينا أن نخوضها بصرامة وصلابة وثقة بالنفس وإيمان بأن سلام الشعوب لن يتحقق إلا بحق الشعوب.

هل قتلتم أحدًا هناك

فرحة العكّوب

باريس، صيف 1990.

ليست منفى ولا أسميها رحلة إلى مدينة الأضواء والمقاهي.

مجرد الوصول إلى مدينة اوروبية لقضاء بعض الأيام، في محاولة بائسة لإنجاز عمل أدبي لم يُنجز، ولأنني لا أتمتع بعقلية سياحية فقد آثرت قضاء تلك الأيام في التسكع، ويبدو أن صديقي الباريسي «لقط» هذه العقلية «على الطاير» فاتفق معي أن نلتقي في مقهى يقع في ساحة مونت برناس وصفها بأنها ملتقى الأدباء ورجال الفكر.

قال لي:

«نلتقي في التاسعة».

كنت هناك في الثامنة والنصف وتناولت الاسبرسو والكرواسون ولم يصل، وأشارت عقارب الساعة إلى العاشرة ولم يصل، وعندما وصل في الحادية عشرة نبهني إلى أنني لم اؤخر عقارب الساعة. يبدو أنني لم أحمل

معي إلى باريس فقط التوقيت الشرقي المتقدم بساعتين على غرينتش، بل الكثير مما حملني إياه المكان الشرقي، حتى أنني تصورت في خلال ساعتين من الانتظار أنني أحمل على ظهري وطنا بأسره وقريتي الكرملية وأضعهما أمامي على الطاولة، إلى جانب المنفضة الزجاجية التي لا تمنحها عاملة المقهى فرصة الإمتلاء «بقراعيم» السجائر إذ كانت تأتي بين سيجارة وأختها لتفرغها في منفضة أخرى وتتركها جائعة.

تلك هي باريس المقاهي في صيف قائظ.

حين تسير في جادتي سان جيرمان وسان ميشيل ترى مئات وألوف الباريسيات والباريسيين يملأون كل زاوية وزاوية وكل مقعد وكرسي في المقاهي، ينظرون إليك كأنك «أهبل» يسير في الشارع الفسيح وأنت تسخر منهم لأنهم «كالهبل» يشربون القهوة ويثرثرون ويحدجونك بنظراتهم كأنهم لا يفعلون شيئا، فاعتقدت في البداية أن التسكع ظاهرة شرقية، ولما أيقنت أنني بتسكعي أصبحت باريسيا أيضا، انزاحت عن ظهري صخرة كبيرة.

«في باريس كن باريسيا»

قلت لنفسي المضطربة، فاطمأننت.

عندما عرفني صديقي على المقهى الذي اعتاد سارتر الجلوس فيه ليفكر «بالوجود والعدم والشيء في ذاته ولذاته»، أحسست أن هذا المكان قد يكون مصدرا للتأملات، فصرت آتي إليه في صباح كل يوم، حسب توقيت غرينتش، وأجلس على مقعد في انتظار قدوم عاملة المقهى لتقديم الاسبرسو الصباحي والكرواسون طبعا، واعتدت على المقعد ذاته أو ربما اعتاد علي، ولم أشعر بضائقة إلا عندما قمت وخرجت لشراء جريدة

عربية من كشك يقع عبر الشارع، ولما عدت كانت امرأتان عجوزان جلستا حول الطاولة واحتلت احداهما مقعدي ولم تقل لها العاملة أنه محجوز لهذا الرجل الشرقي الذي يدخن كثيرا ولا يفعل شيئا سوى مراقبة المارة ولا يتكلم الفرنسية.

اخترت مقعد آخر منتظرا إخلاء مقعدي الأصلي، وما ان قامت العجوزان الشمطاوان، حتى حملت جريدتي وسجائري وعدت إلى المقعد، كأنني عائد من منفى إلى وطن ولدت فيه، عندها أدركت أن الوطن ليس مكانا ولا المنفى مكان، هما العمق الذي تلتقي فيه الذات بالأجسام الموضوعية.

أخفيت ابتسامتي الساخرة عندما اكتشفت قريتي دالية الكرمل، وطني ومسقط رأسي، في مقهى باريسي.

اكتشفت كم كنت مشغولا عنه عندما كنت فيه.

كأنك لا تكون في المكان الذي تحبه إلا حين يبتعد عنك.

***

عدت إلى جدي وأولاد حارتي وإلى البيت العتيق وحيفا ومقاهي وادي النسناس التي جلس فيها الناس وحدجوا المارة بنظراتهم واعتقدوا أنك أهبل لأنك تسرع في كل صباح إلى العمل واعتقدت أنهم هُبل لأنهم لا يفعلون شيئا سوى الثرثرة وارتشاف القهوة و«النرفزة» على «زهر الشيش بيش» وشتم العالم والحكومة ويدفعون مقابل ذلك بالشواقل...

لا أجيد اللغة الفرنسية لأعرف من يشتم الباريسيون الجالسون في المقاهي ويثرثرون دون انقطاع، ولكنني كنت مطمئنا إلى أن لكل مقهى

حكومة يشتمها زواره، وإلا ما الداعي لجلوس الناس ساعات طويلة في المقاهي، أن لم يكونوا مثلي قدموا من الشرق إلى لا شيء؟ وتساءلت:

هل يجوز أن ثورة المظلومين تبدأ في المقاهي وليس في المكاتب ولا المصانع ولا القاعات الكبيرة؟

لم يسعفني أنني أنتمي إلى الجيل الذي ولد منزوعا من الأحلام الطفولية والثرثرة أو التفكير بلا شيء ولا يملك الوقت ليصرفه هباء، او ربما يعتقد أنه لا يملك الوقت، لأنه محكوم بالالتزام لكل شيء إلا لرفاهيته ونفسه ويعتذر بجبروته وإبائه ويتفنن في دجل نكران الذات دون خوف أو وجل.

خطفتنا جدية الحياة كما تخطف لحظة النوم يقظتنا المبكرة، فأصبحنا نتعامل معها بعناية فائقة وما تركنا حيزا للأحلام أو ما تركت لنا هي فسحة حتى للخوف ولا للمفردات الصغيرة، فأتقنا الخطابات الرنانة وما تحدثنا، حتى في ثرثرتنا، إلا عن الحرية والشعب والقضية فساقنا الغير كالقطيع إلى ساحة النزال، دون أن نملك القدرة على المقاومة لأننا كنا مسكونين بأحلامهم وفراستهم البدوية، وانشغلنا بأفكار العظماء وعظيم الأفكار لنصغر أمام أفكارنا ومثلنا وأساطيرنا وبحثنا عن الانتصارات الكبيرة وحاولنا عبثا أن نمط قامتنا وأن نملأ جيوبنا وأن نغير وجه التاريخ، وتصورنا أن الإنسان كالعجينة بين أناملنا وأننا نصوغ حتمية التاريخ وفقا للسطر الأخير في الصفحة الأخيرة التي وصلنا إليها ووضعنا عندها فاصلا من الورق الشفاف خوفا على كتابنا المقدس.

ماذا بقي لنا؟

نوسطالجيا..

اليوم، لا أفهم لماذا لم تأخذني باريس إلى متاحفها في رحلة اللاشيء التي قمت بها في صيف 1990 ، بالرغم من أنني أمضيت فيها أسبوعين.

لم تشدني إلى معالمها العظيمة، ليس لأنني لا أتمتع بعقلية سائح، بل الصحيح، لأنني كنت أهبل، باختصار، نموذج لشرقي أهبل، يحمل في جيبه بطاقة الميترو ويشنف أذنيه للإصغاء إلى شرقي مثله يتكلم اللغة العربية وفي داخله تلتهب شعلة من الحنين إلى الماضي القريب، إلى أساطيرنا وحتى إلى جراحنا، حالة غير مبررة ليأس غير مبرر، أعدت فيها الى الرومانسية كرامتها (هل تذكرون كيف كانت الرومانسية لعنة إبداعية؟) فرحت أبحث عن حكايات جدي وخرافات الجيل الذي سبق التكنولوجيا فاحتقرناه بما أنعمته علينا واحتقرنا هو بما انزلته علينا. وكان يقول لنا: ما قيمة هذا التقدم بدون هداة البال؟ وما قيمة هذه الحياة بدون طمأنينة ولا سلام ولا محبة؟ وفي تلك اللحظة الباريسية تشعر أيضا أنك لا تحب الزمان الذي تكون فيه إلا إذا ابتعد عنك.

كان الطقس حارا في باريس، ولم يترك لي الدخان الذي تنفثه السيارات مجالا لتنفس عميق.

لم أملأ رئتي بهواء نقي كالهواء الذي اعتدت عليه كلما وقفت على قمة من قمم الكرمل، وهي كثيرة وعلى إحداها يقع بيتي، كأنني لا أملك من هذه الدنيا سوى النسمات الرطيبة القادمة من البحر وأكتفي بما انعمته علي الطبيعة و«رضى الله» ولا أحلم بمكان آخر، ويبدو أن هذا يشبعني سياحة، فإذا ضاقت بي الدنيا، حملت نفسي وخرجت إلى «وادي النحل» أقفز من صخرة إلى صخرة وأشق طريقي الوعرة بين جباب القندول التي تفرز اشواكها في جلدي، وأنتصر على الألم، حتى وإن سال دمي، بعودة إلى «حكيم بلدنا» الذي قال لي ذات مرة:

«الكرمل أفضل فرمشية، كل نبتة دوا».

أي أن إبر القندول تتحول إلى «انتي بيوتيكا وأسبرين» لمعالجة كل أوجاع الرأس الناجمة عن نشرات الأخبار الصباحية المزعجة والمثيرة للرعب أحيانا، أو في معظم الأحيان.

أعادتني باريس «برمشة عين» إلى صيف بلدنا.

لا أعرف لماذا بقي لصيف تلك الأيام البعيدة رائحة، حاول مقارنتها برائحة دخان السيارات الباريسية وطمأنت نفسي ووجداني أن نكهة بلدنا ألذ وأشهى، حتى وإن كانت الرائحة التي اكتنزها هي تلك التي «عطرت» الغبار بما انبعث من روث وجلد البقر والغنم عندما كان «عجال» البقر ينطلق من الساحة الترابية المقابلة لبيتنا، وفي لحظة وجوم عبثية هيء لي أن سيارات «السيتروين والبيجو» تتحول إلى بقرات تطارد بسرعة فائقة وتنتشر في أزقة البلد الترابية لتفرغ ما تحمله من حليب صاف، إلى أن يجز اللحام رقبتها وتعود إلينا قطعة قطعة.

رهيبة هذه الحياة التي لا تمنح البقر الحق في أن يعيش العمر الكامل ويعرف تجربة «الختيرة»، هل هذه هي سنّة الحياة وحكم أنزل على الحيوان لأنه لا يعرف أحفاده؟

لماذا لا تعرف الحيوانات أحفادها؟

* * *

توفي جدي قبل ثلاثين عاما.

مات متمما واجباته الدينية ومخلفا أربعين حفيدا، وكان يعتز عشية موته أنه ذاهب من هذه الدنيا الفانية مكتفيا من رضى الله، إنه وهبه هذه الذرية.

لم يعرف القراءة ولا الكتابة ولكنه حفظ الشعر وأساطير العرب، وتحدث كثيرا عن البلقان ورومانيا.

كان يقول، الله يرحمه:

«اعرفها شبرا شبرا»

ثم يخلع جورب قدمه اليسرى ويكشف عن إصبعين مفقودين، «راحوا في الثلج، في السفربرلك. أخذونا عالجيش التركي لنحارب في البلقان، خمس سنين قضيت في العسكرية.. أخذوا من البلد تسعين شاب، رجعنا خمسة، فلان وفلان وفلان.. وأنا ضيعت أصابعي في الثلج».

وكنت أقول له:

«عندما أكبر يا جدي سأسافر إلى رومانيا لأبحث عن إصبعي قدمك».

فيضحك ملء فمه ويقول لجدتي:

«بيقولو، نيال كل من له في السويدا خرابة وحفيدك بيقول نيال كل من له في رومانيا أصابع مقطعة».

وأنا اقسم ببراءة طفولية أنني لو عثرت عليهما لبنيت لهما هيكلا من الثلج، ككل الهياكل المقدسة، لأنني أحببت جدي بهيكله الفلاحي،

السروال الأسود، والحطة البيضاء، واللحية التي تراءت على صدره، والمنكوش الذي تراقص على منكبه حين نزل مع الفجر إلى الأرض وأنا اعتدت أن آتي إليه بعد ساعتين حاملا إبريق الماء وصرّة الزاد، في طريقي إلى المدرسة.

كان لدي ثلاثة أو أربعة اصدقاء من الختيارية، قضى معهم أمسيات الصيف والشتاء وكنت أصغي إلى حكاياتهم ومنهم تعلمت الدرس الأول في السياسة. كنت في السابعة من عمري عندما وقعت تلك الحرب في سيناء وبالرغم من أنها كانت بعيدة عنا، إلا أن حالة الرعب دبت في قلوب الناس، مما روجت له الإذاعات عن حرب شاملة قد تنفجر في الشرق الأوسط والإجراءات الأمنية التي فرضتها السلطات، الأنوار الخافتة في البيوت، الأغلاق المحكم للشبابيك والأبواب ومصابيح السيارات التي دهنت باللون العسلي كي لا تبدو للطائرات «العربية التي قد تحوم وتقصف الأضواء» وجلس جدي مع اصدقائه الختيارية يتحدثون عن الحرب، عن بريطانيا وفرنسا، عن السويس وعبد الناصر، كان بينهم شيخ قبضت عليه حالة الرعب فظل صامتا لا ينطق، وأصغي باهتمام إلى جدي وهو يتحدث بإعجاب عن عبد الناصر، عن شجاعته وقوة شخصيته، فقاطعه هذا الشيخ سائلا:

«قل لي! عبد الناصر، له شوارب؟»

ضحكوا وضحكت معهم، لم أفهم لماذا ضحكت، وأما الشيخ فقد سارع إلى شرح سؤاله عله يخلص نفسه من الحالة العبثية التي أوقع نفسه فيها، فقال:

«إذا كان لعبد الناصر شوارب، يعني الزلمة قبضاي وإذا الزلمة ما له شوارب بيكون يهودي ابن يهودي».

لم يكن في بلدنا تلفزيونات ولم تصل إليها جريدة، ولما عثرت على صورة لعبد الناصر بعد أيام عديدة، كانت الحرب قد انتهت، وصرت أقف في الصباح طويلا أمام المرآة عساني أرى شعيرات تنتؤ فوق شفتي العليا، ولكنني كنت أعزي نفسي بشاربي والدي وجدي وأهل بلدنا جميعا والختيارية الذين يقضون ساعات طويلة يثرثرون كأنهم لا يفعلون شيئا مثل آلاف الباريسيين والباريسيات الجالسين في المقاهي وأنا الرجل الشرقي الذي لا يجيد الفرنسية ويعود بذكرياته إلى أيام خلت، إلى الساحة الغربية، مرتع الشيوخ والشبان والأطفال والصبايا، فيها كانوا يتجمعون في حلقات ولا يتحدثون عن اصلاح العالم وثورة الإنسان واحتلال الكواكب، بل ينطلقون في حديث تلقائي عن هموم صغيرة وعابرة، وبعفوية مصدرها نشوة مارقة ينطلق ثلاثة أو أربعة شبان ويدعون الآخرين إلى صف الدبكة حول «ابو علي الزمار»، ولما ينتفخ خداه ويتورد وجهه وتتساقط حبات العرق عن جبينه وتشتد ضربات اقدام «النشامة» على الساحة الترابية، لا يبقى على المقاعد الحجرية سوى من لا يقوى على الوقوف من شيوخ تجاوزوا التسعين، وتتجمع النساء على السطوح تظللهن عرائش الدوالي وتتساقط النظرات الحالمة على لهف الشبان وتتشابك المواعيد والأوف والميجانا، وإذا ما بدأ الليل يلف الساحة والأفق ويرتفع حماس الشبان وصياحهم «عليها الجيرة ما نبات الليلة»، تتحول الساحة الغربية إلى مسرح يتحرك عليه عشرات الممثلين بايقاع رتيب واضاءة محكمة تتشابك فيها خيالات الظل فتجعلها صورة سريالية، وتمر ساعة وساعتان وثلاث وأربع، ومن يتعب يعود إلى المقعد الحجري ويظل صوت المزمار يصدح حتى عندما يجد أبو علي الختيار نفسه وحيدا في الساحة، ينقر بأنامل يده اليسرى على ثقوب المزمار القصبي ويلوح باليمنى متحديا الشبان المرهقين.

هكذا كان هذا الجيل يصوغ مفهومه لهداة البال، تماما مثلما صاغ جيلنا مفهومه لحتمية التاريخ، وكنا نقنع أنفسنا أن هذا هو قدرنا وأننا يجب أن نكون قنوعين أو سعداء رغما عنا، فخربط التاريخ، (او قل: القدر) كل حساباتنا وخرجنا مثل مصيفين الغور لم يبق لنا إلا تاريخنا، وهذه نعمة كريم.

في صغري لم أفهم قصة ذلك الشيخ الذي كانت جدتي تحدثنا عنه بكثير من الإعتزاز والرضى وفي محاولة لاقناعنا بأن السعادة هي القناعة وأن القناعة هي الرضى والتسليم بما لك وما عليك وأذكر أنني كنت ألح عليها بأن تحكي حكايتها لأنني كنت أعقب على حكايتها مداعبا بقولي:

«أما شيخ أهبل!»

فتطردني جدتي من حضنها وهي تقول:

«أما جيل طميع، ناكر للنعمة!»

لم أفهم هذه القصة لأنني لم أجد إجابة على السؤال: هل يمكن أن يكون الإنسان سعيدا رغما عنه؟ وقد حاولت أن أكون مرة مثل هذا الشيخ عندما كنت سجينا في زنزانة مساحتها مترين على مترين ولا تدخلها أشعة الشمس، ولم أعرف حدود الليل والنهار إلا من ضجيج عمال كانوا يعملون في الخارج، وقد حاولت أن أقنع نفسي أنني إنسان سعيد بالرغم من أنني أقبع في هذا الجحيم لأنني سجلت دفاعا عن قضية وأن سجّاني هو المجرم وليس أنا، وحاولت هناك أن أصوغ مفهوما مثاليا للسعادة، ولكنني عندما حدثت أولادي عن فلسفتي قال أحدهم دون أن يفكر: أما أهبل! ورأيت أخوته الآخرين يؤيدونه بصمتهم، ولما حققت

معهم لفهم سر هذا الهجوم الأرعن على والدهم، تبين لي أنهم عافوا حياتهم من نظريتي التربوية المسكنة للأوجاع والقلة والتي أزعم فيها كذبا وبهتانا أنهم يجب أن يكونوا سعداء ويشكروا ربهم على النعمة التي يتمتعون بها لأن هناك ملايين الأطفال في العالم ممن لا يجدون ما يأكلونه، وكان أصغرهم يباغتني بسؤال بريء:

«شو يعني النعمة يا بابا؟»

هل هي سعيدة تلك الأم التي تزغرد فوق جثة ابنها الشهيد؟ هل هي سعيدة رغما عنها؟

نعود إلى حكاية الشيخ!

«كان يا ما كان في سالف العصر والأوان - الحكي على لسان جدتي - شيخ عاش حياته فقير مع زوجته وسبع ثمن أولاد، ولا مرة تذمر وكان كيف ما حرك وعمل يقول بين سره وخالقه: الحمدللة على هالنعمة، الف الوف الحمدللّه، ألف ألف الحمدللّه».

هذا الشيخ الفقير - الحكي على لساني - كانت جدتي تصف حياته بكثير من العطف وكانت تبالغ في وصف فقره وقناعته في آن واحد، كل ما ما كان يملكه هو كوخ صغير يأوي به أولاده وزوجته، وكان يعمل حراثا على حماره وما يحضره من طعام لا يكفي لسد رمقهم ولا «بنزين» للحمار، كانت ملابسهم رثة ممزقة ولا يبدلونها إلا من عيد إلى عيد ولم يأكلوا اللحم إلا حين تصدق عليهم اهل الخير والنعمة في أعراسهم او أعيادهم. كان يستيقظ من طلوع الفجر فيصلي ويشكر ربه على النعمة ويشرب كأسا من الماء الساخن والسكر ويضع في كيس رغيفين من خبز الصاج الرقيق وثلاثة رؤوس بصل ويعتلي حماره

ويخرج إلى الأرض التي سيحرثها أو الحقل الذي سينقل منه الغلة إلى البيادر، وفي ساعات العصر يعود على حماره حاملا أجرته الزهيدة وملح العرق الجاف الذي أشبع قمبازه وسرواله فيقدمها لعائلته سعيدا برؤيتهم يأكلون ويشبعون (على ذمة جدتي).

«وفي يوم من الأيام، الصبح تصبحوا بخير، ويبقى نهاركم على بركته - الحديث بلسان جدتي - كان الشيخ راكب على الحمار. شوي، وإلا نزل عليه ربنا سبحانه وتعالى، وسأله:

- يا شيخ، أنت سعيد في حياتك؟ يمكن أنا قصرت معك!

قال له الشيخ:

- أنا مبسوط، ألف ألف الحمدلله على هالنعمة.
- يا شيخ مش ناقصك شي؟ (جدتي تغلظ صوتها)
- شو ناقصني؟ كل شيء عندي، الحمدلله على هالنعمة، ألف ألف الحمدلله. (جدتي تمسكن صوتها)
- بلكي أولادك ناقصهم أكل، شرب، لبس؟
- ما بدهم إلا رضاك، مش ناقصهم شيء ألف ألف الحمدلله.
- شايف حمارك ضعيف ومسقود (أي انه على العظم) بيشتغل كثير، شو رأيك أبعث لك حمار يريحه؟
- الحمار صحته مليحة وأقوى من كديش، الحمدلله على هالنعمة، ألف ألف الحمدلله.
- يعني مش ناقصك شي؟ أنت مبسوط في حياتك؟ أي شي بتطلبه

راح تاخذه، جارك أبو سعد طلب سيارة أعطيته وابن عمك طلب شوال ذهب أخذ شوالين وما حد في البلد طلب إلا أخذ.

- ما بدي إلا رضاك، الحمدلله على هالنعمة، ألف ألف الحمدلله.

تعجب ربنا من قناعة الشيخ وقال له: أنت الك في الآخرة، في الدنيا خليك على ما أنت فيه.

وهيك عاش حياته الشيخ مكتفي وراضي وسعيد في حياته.

ولم تكن جدتي تحكي لنا كيف أمضى الشيخ نهاره في ذلك اليوم، وهل حدث زوجته وأولاده؟ لكننا نحن، عندما كنا صغارا، كنا نكمل نهار الشيخ، والنهاية التي كنا نحبها هي تلك التي كان يضعها أخي الأكبر فكان يقول:

«وبعد ما رجع الله للسما - الحديث بلسان اخي - كمل الشيخ طريقه على الحمار، بعد شوي اتدركم في حجر كبير، وقع وما قدر يقوم، والشيخ ما صار عليه شي، حاول يقوم الحمار، رفض يقوم، صار يضربه، حزن! حمار وحرن، بعد شوي رفع الحمار ذينيه وفتح حلقه».

وكنا نسأل ونحن نشنف آذاننا:

- وصار يجعر؟ أي ينهق.

فيقول اخي:

«لأ! قال الحمار للشيخ: يا حمار! ليش ما قبلت يبعث لك حمار يريحني؟ مين كلفك تحكي باسمي؟ روح! ارجع لحالك، وعتمت الدنيا والشيخ مشي لحاله في الوعر..»

ولما كان وقت الحكايا في ساعات المساء، (الحكي على لساني) ونحن نسكن في طرف البلد القريب من الوعر، وفي مثل هذا الوقت يملأ الوادي عواء الواوية، فقد كنا ننهي القصة بقولنا مع بعض: وأكلته الواوية.

أتساءل اليوم: لماذا عندما كنا أطفالا كانت تجتاحنا رغبة الانتقام من هذا الشيخ الذي أراد أن يكون سعيدا رغما عنه؟

هكذا وجدتني أعود إليه وإلى جدتي وجدي في مقهى يغص بالباريسيين في جادة سان جيرمان، أجلس كالأهبل وأراقبهم بنظراتي الشرقية المشبوهة وأعود إلى حكواتي بلدنا وهو يروي عن عنترة وأبي زيد الهلالي، كأنه ممثل مولودراما، يلتف حوله الناس وينتظرون بترقب نتائج المبارزة على قلب عشيقة صحراوية وعلى بطولة العروبة والعرب.

قلت لصديقي الباريسي: مدينتكم أعادتني إلى بلدي، قريتي الصغيرة، أشعر وكأنني فيها، جسدي هنا وقلبي هناك.

ضحك صديقي ملء شدقيه وقال:

«قليلا من التواضع يا رفيق، ما تجده في باريس لن تجده في أي مكان آخر في العالم، فما بالك في قرية لا تظهر على خريطة؟»

وتبجحت امام صديقي بين مازح وجاد: هل يوجد في باريس زعتر وعكوب؟ وعندما هز رأسه واثقا من النفي، شعرت أنني انتصرت عليه بضربة «نوك آوت» قاضية، كيف لا وقد جعلنا من الزعتر سلاحا نوويا نواجه به المم الاستعمارية قاطبة؟ يلقون علينا النابالم ونحن نرشهم بالزعتر.. وظل صديقي يذكرني طول فترة اقامتي بهذا التفوق، بين مازخ وجاد، إلى أن زرت في اليوم الأخير صديقي الفنان الفلسطيني

سمير سلامة، علم بقدومي فاتصل بي في الحال وقال: «أدعوك لعشاء لم تحلم به في باريس»، وأضاف مبتهجا: :أكلة عجوب، أخي جاء من المخيم وأحضر لنا العكوب».

كنت محظوظا لأن هذا حدث في الليلة الاخيرة من زيارتي إلى باريس وحتى هذا اليوم أقبض على سر أمني لم أكشفه لصديقي الباريسي، وهو أنني أكلت العكوب في باريس.

صيف حار ومضى يوم، ويوم آخر، عالم تحت الأرض وعالم فوق الأرض، وعلى درج خشبي تقطع خطاك السكينة الاوروبية الباريسية، تصل إلى شقة صغيرة، بين الفنان الفلسطيني سمير سلامة، ولد في صفد، وكان طفلا صغيرا حين قطع جبال الجليل ووديانه شرقا إلى دمشق فمنذ ذلك الحين لم ير البيت الذي تركه حين كان طفلا صغيرا، وصار يرسم في المخيم، رغما عن معلم اللغة العربية، وصار يكبر وصفد العربية تتقلص، وصار المنفى وطنه الكبير الذي لا يعرف الحدود. قال لي، وكنا نأكل العكوب (عكوب في قلب باريس): «كم أتمنى لو أنني أعود إلى طفولتي في صفد، ولو لساعة قصيرة». شعرت أنه لا يحسدني على شيء إلا لأنني استطيع أن أزور صفد متى أشاء وهي لا تبعد عني أكثر من ساعة زمنية قصيرة، وصار يحدثني عن البيت ويسأل عن السوق وعن الجامع، وعن النسمات الجليلية العليلة، وعن الوادي وقمة الجرمق، وأشجار الصبار والسرايا. وكنت كمن يجتاز امتحانا في المعلومات العامة أو خارطة الوطن. البيت؟

لا أعرف!

السوق؟

يوجد سوق!

الجامع؟

تحول إلى معرض!

النسمة الجليلية؟

كيف يمكن مصادرتها؟

صيف 1990 شمس تموزية.

منعطفات حادة وطريق تتلوى وعلى القمة تطل بيوت يغطي سطوحها القرميد وعلى جانبي الطريق أشجار صنوبر باسقة. وعندما تدخل وتقترب من البيوت الحجرية القديمة، هنا شجرة تين وهناك الصبار، تشعر للوهلة الأولى أن القرميد في صفد كالعكوب في قلب باريس، لوحة سريالية، تقف إزاءها مشدوها ثم تفكر بصديقك الفنان سمير سلامة، وحديثه الرومانسي.

البيت الذي تركه تحول إلى مرسم، يسكن فيه فنان ويأتي السواح من كل مكان، ويتنقلون من مرسم إلى آخر ومن بيت إلى بيت ففي الصيف تفتح البيوت، وتغلق في الشتاء البارد.

عرفني صديق على فنان يسكن في صفد، في بيت عربي قديم، اسمه مايك ليف، ولد في لندن عام 1934، وقدم إلى البلاد عندما كان في العشرين من عمره، شارك عام 1956 في العدوان على مصر وأصيب بجراح، ثم هرب إلى أفريقيا ليعبد الشوارع في الكونغو ثم عاد إلى البلاد 1972 «جئت إلى هنا، وجدت «خربة» فاستوليت عليها، دون أن اسأل احدا، أعجبت بالطبيعة ومناظر الجليل الخلابة وكنت أنا وزوجتي نقضي أياما طويلة في أحضان الطبيعة، نأكل ونشرب معا مما تعطيه الأرض، شعرنا أننا جزء من هذه الطبيعة».

عندما سألته ما هو شعورك في صفد، وسط هذه البيوت التي هجر أهلها؟ ضحك مايك ليف، ضحكة ساخرة فيها كثير من الألم وقال:

«صفد بالنسبة لي ليست إسرائيل أنها جنوب لبنان، عندما أستمع إلى الأخبار من تل أبيب والقدس لا أصدق أنها تتحدث عني ولكنني أشعر بالاحباط فلا أملك الحلول لهذه المآسي.. نحن نعاني من نظام فاسد، أنا اؤمن بالثورة الاجتماعية، وفي رأيي، الانتفاضة ليست فقط ثورة قومية وطنية، إنها ثورة اجتماعية أيضا من أجل حقوق العامل والإنسان والتعليم والعمل والرفاه الاجتماعي، نحن بحاجة إلى ثورة كهذه، في الآونة الأخيرة تملكتني حالة قاسية من اليأس والإحباط وافكر بالعيش في مكان آخر».

تنتقل من بيت إلى بيت ومن مرسم إلى مرسم، عبر درج ينحدر وهو يتلوى بين البيوت والبوابات الحديدية والخشبية القديمة.

صيف 1990 أيضا - روبرت بازيه، ولد في اثينا قبل ثمانين عاما ونيف. بدأ يرسم عندما بلغ الثامنة عشرة أجبر على الخدمة في الجيش في عهد حكم الجنرالات في اليونان أعتقل وحكم عليه بالعمل في شق الطرق. اصيب بالملاريا ولما شفي سجن إلى أن أطلق سراحه عام 1934. وقدم إلى فلسطين «ليس لأنني كنت صهيونيا»، بل بحثا عن فتاة احببتها. وصلت مع مجموعة من الشبان الى بيروت وكان علينا أن نقطع الحدود فتعطلت السيارة ومشينا في الليل على الأقدام. ووصلت إلى حيفا ثم إلى تل أبيب.

وفي عام 1951 غادرت إلى باريس وأمضيت بضع سنوات وقبل 25 عاما عدت ووصلت إلى صفد... عندما اشاهد على شاشة التلفزيون كيف يقتل الأطفال في الضفة الغربية، فإن عقلي لا يستوعب ما يحدث هناك، انا أحب الشرق ولي أصدقاء عرب أزورهم ويزورونني كان لي أصدقاء

عرفتهم قبل الحرب ولكن الحرب حولتنا الى أعداء».

المدخل قاعة صغيرة علق على جدرانها عددا من لوحاته المائية، طبيعة سريالية، وسماء صافية وبحر وشجر وميناء وعالم فيه حزن وكآبة وغضب ونقمة وتمرد. قال لي:

«هنا أرسم وأغني وهناك أنحت وأبكي»

وأشار إلى باب لقاعة اخرى وعندما فتحنا الباب وإذا بمجموعة كبيرة من التماثيل الخشبية والبرونزية والفولاذية التي تعبر عن غضبه منذ أن كانت الحرب العالمية الثانية وحتى جميع الحروب التي عرفها، وصرخة صامت: لا للحرب النووية.

صيف 1990، عزيزي سمير هذا شيء من صفد التي لم تعرفها، عندما كنت طفلا صغيرا، لا أستطيع أن أكتب عن البيت الذي ولدت فيه لأنك لم تأت معي لتدلني عليه، سأحاول في المرة القادمة.

ما حملته الحكاية...

(ألقيت في افتتاح مؤتمر الأدب الفلسطيني، جامعة بيت لحم، 5 حزيران 2009)

عندما كنت في الخامسة من عمري لم أفهم لماذا كان لي ثلاثة جدود ولغيري جدان، ولي ثلاث جدات وعموم كثيرون وعمات وأطفال عديدون وكانت دارنا مكتظة بالأقارب. جدي الثالث أبو حلمي، كان شيخا ممشوق القامة، أزرق العينين، عرفته عندما أمرتني جدتي: قول صباح الخير لجدك أبو حلمي!

أبو حلمي من عين حوض، هجر من قريته، وفي الطريق إلى المنفى عرج على جدي ليستريح ويترك عنده اماناته ولكن جدي أقنعه بأن يبقى عنده هو وأولاده وأحفاده الصغار ومكثوا خمس سنوات في دارنا إلى أن عادوا ليستقروا على تلة غير معترف بها تطل على قريتهم التي احتلها الفنانون اليهود.

لست لاجئا ولم أشرد لا من بيتي ولا من قريتي ولكن اللجوء كان في دارنا، وقد أدركت ذلك ليس من جدي وجدتي بل عندما كنا نزورهم على تلتهم المطلة على بيوتهم ويقول لي أطفالهم الصغار من أبناء جيلي: هناك كان بيتنا وهناك بيت خالي وبيت عمي.. وكلها لا تزال قائمة إلا أهلها ينظرون إليها من بعيد فقط.

ولم أفهم لماذا كان يصر مدير المدرسة على تنظيم احتفال سنوي بعيد الاستقلال ويلقي خطابا حماسيا عن الدولة الفتية وقانون التعليم الالزامي والديموقراطية والحرية والمساواة في دولة إسرائيل. كان يتحدث عن استقلال دولة إسرائيل كأنه بداية التاريخ ولم يقل شيئا عما كان في هذه البلاد من قبل، وهو لاجيء في وطنه لم يحك لنا حكايته.

لم أفهم أسماء القرى التي كان يذكرها جدي وأصدقاؤه في ديوانه الذي أحببت الجلوس فيه، فكانوا يذكرون أم الزينات وعين غزال واجزم والطنطورة وحواسة وبلد الشيخ وكنت أعتقد أنها قرى عامرة مثل قريتنا إلى أن زرتها واذا بأم الزينات تخلو من أي بيت وكل ما عليها قليل من أشجار التين والرمان والصبار وكثير من الصنوبر الذي حل محل السنديان والزيتون وبيوت الطين والحجر.

عندما كبرت وتفتح وعيي فهمت أن طفولتي لا تقل قسوة عن طفولة أي لاجيء فلسطيني، فاللاجيء تغرب عن بيته ووطنه وأنا وأبناء جيلي

تغربنا عن الحقيقة وانتهكت طفولتنا البريئة بتعليمنا أن فلسطين كانت صحراء قاحلة وغطتها المستنقعات وانتشر فيها الملاريا والديزنطاريا الى أن جاء «القادمون الجدد» من الغرب المتحضر ليجعلوها بلد الحليب والعسل.

اكتشفت في ما بعد أن التفاصيل لم تكن في المدرسة ولا في الكتاب، بل في ذاكرة جدي وأترابه ممن كانوا يهمسون الحكاية همسا على مسامعي، فعشقت الحكاية كما أحببت هذا الجيل وكنت أعود اليه كلما أردت أن أسمع شيئا عن حيفا أو عن الطيرة أو عن عشرات «القرى المزهزهة برجالها ونسوانها وأطفالها، بعمرانها وأشجارها، بتضحك لقرص الشمس وما بتنتسا».

أعترف أنني ذهبت الى الذاكرة الفلسطينية حاقدا على الذين أخفوا عني، في البيت وفي المدرسة، ما حدث عام النكبة. كان ولا يزال همي الوحيد أن أستخرج المزيد من الحكايات، حكايات الأفراد، حكايات أناس لهم أسماؤهم وعوالمهم ومشاعرهم وذاكراتهم، أناس كانت لهم حياة وفجأة توقفت ثم تواصلت في مكان آخر وزمان آخر رغما عنهم.

هذا الحقد على الذين أنكروا النكبة جعل عملية البحث في الذاكرة حالة استحواذ لم أخلص منها حتى عندما كتبت وكتبت وكتبت دون توقف، وكلما سجلت أكثر زاد نهم الإصغاء والتسجيل والتدوين لأن جمع التاريخ الشفوي هو سباق مع الزمن، أو مع الموت أو مع رحيل آخر لمن كان رحل من وطنه، إنه الرحيل من هذا العالم. ومن يرحل يأخذ ذاكرته معه، أي يأخذ الحكاية.

ذهبت إلى الناجين من النكبة. كانت لهم حكاياتهم وذاكراتهم. بحثت عن جمالية الحكاية، عن العبرة والمغزى، صرت أتمعن أكثر بشقوق الوجه وارتجاف الشفتين، صرت أصغي إلى النبرة وإلى وقع الكلمات، صارت تأخذني الجملة الغاضبة والشتيمة التي تعقبها نكتة وشتيمة أخرى وضحكة ملء الشدقين ودموع لا تعرف إن كانت حلوة أو مالحة وفي لحظة يتوقف الشيخ مشقق الوجه ويقول: لمين عم تكتب، هو عاد ينفع الحكي؟

في حزيران 1980 بدأت بنشر مسلسل وما نسينا على صفحات الجديد الحيفاوية. في كل شهر كتبت عن قرية وعن مجزرة على لسان الشيخ المشقق الوجه، وهم شيوخ كثيرون التقيتهم على أنقاض قراهم المهجرة. عندها بدأت رحلة البحث في الذاكرة الفلسطينية، وقد آلمني الاصغاء الى تفاصيل المجازر وقصص التشريد لكن آلمني أكثر أن هذا الجيل كان يرفض الحديث عما حصل له، لكن لم ألتق شيخا إلا وحملني وصية لنا نحن الذين ولدنا بعد النكبة: افعلوا كل شيء لكي لا يتكرر ما حدث لنا عام 48. وفي كل شهر كنت أنقل هذه الوصية إلى أن تعبت على شاطيء يافا وقررت أن أختمه بموت الشيخ المشقق الوجه وبقاء الوصية، ونشرت الحلقة الأخيرة في أذار 1982 وأنا مقتنع تماما أن التاريخ لا يعيد نفسه ولن يتكرر ما حدث عام 48، ولكن لم يكد يجف الحبر على صفحات المجلة حتى كانت الدبابات الإسرائيلية في حزيران 82 تزحف إلى مخيمات لبنان حتى وصلت الجريمة إلى ذروتها في صبرا وشاتيلا .

صمت هذا الجيل ولم يتكلم خوفا من أن نتهمه بمسؤوليته عن موته، أو لكي لا يفتح جراحا عميقة لم تلتئم، وعندما ذهبت إليهم أذهلني صمتهم في البداية ثم كلامهم في ما بعد، وعرفت منهم أن الجريمة لم

تترك لهم خيارا سوى النزوح أو الموت، ولأنهم أحبوا العيش فقد تركوا كل شيء ليكسبوا الحياة.

امتنعوا في البداية عن الكلام لأنهم كانوا مسكونين بشخص الحاكم العسكري:

«أسكت يا زلمة بكرة بيحبسوك أو بيقطعوا عنك التأمين أو بيعملوا مشاكل للولد في الجامعة وما بيعطوه وظيفة.»

هكذا كانت تقول زوجته وينظر اليّ الشيخ مشقق الوجه ويصمت ويحدق فيلمع في عينيه بريق كوهج النار ثم يحرك رأسه ويقول:

«يبلطوا الزرقا، أكثر من اللي أخذوه مش راح يلاقوا».

ثم يتكلم وإذا به رواية لها بداية ولا نهاية لها، هي روايته وروايتنا، هي حياته وحياة كل واحد منا. وشيئا فشيئا تنهار الحواجز والجدران والأسوار ويصبح هذا الشيخ تاريخا لشعب ولمكان وفضاء وأرض وسماء.

هذا هو معنى العودة إلى الذاكرة؛ أن تدرك أن ليس هناك ما يعيب بجيل النكبة، أن هذا الجيل بطولي بكل المقاييس وهو الذي جعلك تأتي إلى الحياة، وهو الذي يمدك بالقدرة على مواصلة الحياة من بعده ليأتي من يواصل الحياة من بعدك.

لست مؤرخا ولا أبحث عن الحقيقة. أترك الحقيقة للجان التحقيق وللمؤرخين.

ذهبت إلى هذا الجيل لا لكي يجيبني على أسئلة التاريخ بل ليقول لي كيف يتعامل هو مع هذا التاريخ، وكيف ينظر إلى الحياة بعد نكبة كهذه.

كان يحيرني شيخ يجلس على كرسي خشبي تحت شجرة وارفة ويشير بإصبعه إلى أرضه وبيته على التلّة الأخرى التي يفلحها مهاجر غريب قدم من اليمن مثلا أو أوكراينا ومولدافيا، وهو، هذا الشيخ الطيب، لا يستطيع الدخول إلى الأرض ولا إلى البيت، فكل علاقته بأرضه وبيته هي ذراعه الممدودة صوب البيت ليشير إليه، فقط ليشير إليه. هل هناك أحد يتصور مشاعره وهو ينظر بأسى إلى بيته وأرضه التي تحرثها جرّافة لونها أحمر ويتطاير الغبار من خلفها كدخان المواقد؟

كتبت عمن يتذكر، بالنظر إلى غضبه وفرحه، إلى شقوقه وإلى ما شاب أو تساقط من شعره. إلى كفي يديه اللذين سطحهما الشقاء. إلى ظهره الذي يتقوس وإلى عكازه التي أصبحت قدرته الوحيدة على الحركة والتنقل.

هؤلاء هم أبطالي، وهم الذين نتماثل معهم حين نسمع حكاياتهم أو سيرة حياتهم.

نحن لا نزال في مرحلة التسجيل والجمع والتدوين ومحاولة البحث عن اللغة الأدبية المناسبة. نحن نجمع ونجمع ونتسابق مع الزمن ومع القدر ومع النهايات لكي ننقذ ما يمكن إنقاذه من هذه الذاكرة التي نفقدها يوما بعد يوم.

سنواصل كتابتنا التسجيلية ما دام هذا هو شكل وجودنا. سنواصل الكتابة لكي نصوغ الرواية ليس فقط عن النكبة، فالنكبة كانت محطة مأساوية في حياتنا، كانت هناك محطات مأساوية أخرى ولكن ليس هذا هو كل ما نملك من تاريخ، ولا نريد أن تكون روايتنا مسلسلا من فصول الموت والترحيل فقط، فنحن استمرار لمسيرة طويلة على

أرض طيبة وفي وطن معطاء، كان قبل النكبة يعج بالحياة وينبض ثقافة وحضارة.

لن نجعل من ذاكرتنا ذاكرة الموت فقط كما فعل الآخرون، لأن ذاكرة الموت فقط تقود إلى الانتحار أو إلى الجريمة. ولا نريد لنا أن ننتحر أو نرتكب الجريمة.

صورة أجمل للمدينة...

في منتصف شهر أيار من كل عام تكون لنا وقفة تذكر للنكبة فنختزل مائة عام في يوم واحد يغلب عليه البكاء والحنين، وهذا فعل إنساني جدا، لكن في هذا اليوم يجدر بنا ألا نفتح الجراح الدامية ونحكي عن الموت والرحيل فقط، بل أن نعيد فلسطين إلى الحياة أو نعيد الحياة إلى فلسطين كما هي في الذاكرة، ذاكرة الفرد والذاكرة الجماعية.

عندما نتذكر ونذكر تلك الأيام التي سبقت الترحيل فاننا نرسم لأنفسنا وطنا عامرا بالحياة، خلافا لما روج له من احتل البلاد أن هذه الأرض كانت قاحلة وتغطيها المستنقعات والملاريا فجاء «منقذوها» مع الماكنة وشجرة الكينا وعزيمة أوروبية عالية تفتّت الصخر..ففتتّت الإنسان أولا.

في رحلتي مع الذاكرة الفلسطينية ومئات اللقاءات مع أبناء الجيل الذي عاصر تلك الفترة كان يحلو لهم أن يتحدثوا عن حياة المدينة الفلسطينية وعن ازدهارها الثقافي.

قال لي شيخ مسن وكانت يداه ترتعدان انفعالا: «أنا حضرت حفلة أم كلثوم في حيفا، أنا شفتها بعيني وقربت منها وسلمت عليها..بايدي

هاي..والله العظيم سلمت عليها.»

اعتقدت في البداية أن هذا الشيخ يهذي أو يحكي «كمن ماتت أجياله» فعدت إلى المصادر المكتوبة وإذا بحيفا محطة هامة في سيرة أم كلثوم.

كتب الكاتب سليم نسيب في مؤلفه «أم كلثوم»:

«في حيفا تبرعت بريع احدى حفلاتها للنضال ضد الاحتلال البريطاني والهجرة اليهودية إلى فلسطين فقد استقبلت بحفاوة كبيرة ومنحوها لقبا جديدا: كوكب الشرق.» (الترجمة العبرية ص 70).

حيفا منحت أم كلثوم اللقب الذي رافق اسمها وكأن هذا جاء ليؤكد ما كان قاله أحد كبار الكتاب المصريين الذي زار حيفا في سنوات الأربعين وهو ابراهيم عبد القادر المازني إذ قال بما معناه: لن يعترف بك الوسط الثقافي أديبا عربيا إلا إذا منحت اللقب في فلسطين، وقد سمعت ذلك من الشاعر أبي سلمى عندما التقينا في مدينة صوفيا عام 1980 ، وقرأت في مذكرات أبي سلمى ما كتبه عن اللقاءات الثقافية التي كانت تتم في حيفا ويافا والقدس.

يقول أبوسلمى: إن فلسطين الثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي كانت قبلة رجال الأدب والفكر من لبنان حيث زارها مراراً أمين الريحاني والأخطل الصغير والشيخ مصطفى الغلاييني وعمر فاخوري وأمين نخلة وتوفيق عواد وعمر الزعني، ومن دمشق خير الدين الزركلي وشفيق جبري وعمر أبي ريشة وبدوي الجبل وخليل مردم. ومن العراق معروف الرصافي والجواهري ومن مصر ابراهيم المازني وعباس محمود العقاد» هؤلاء هم من أهم وأبرز الكتاب العرب في منتصف القرن العشرين يضاف اليهم الكتاب والشعراء الفلسطينيون مثل عبد الكريم

الكرمي (أبو سلمى) نفسه الذي يعتبر الشاعر القومي الفلسطيني وابراهيم طوقان ووديع البستاني ومي زيادة وغيرهم.

كلهم مروا من هنا: أم كلثوم وفريد الأطرش وعبد الوهاب و يوسف وهبي وجورج أبيض ونجيب الريحاني وأمينة رزق وخلقوا حالة مسرحية قلما عرفتها مدينة عربية أخرى اذ اشتد التنافس بين النوادي الثقافية في المدينة للنهوض بحركة مسرحية بين «النادي الاسلامي» و«النادي العربي» وفرقة كشاف حيفا وفرقة الكرمل، وكانت نتيجة التنافس انتاج ثماني مسرحيات في ثلاثة شهور تنوعت بين ما أبدعه كتاب حيفا مثل مسرحية «قاتل أخيه» لجميل البحيري وبين موليير وشكسبير.

عندما اختار شاعر فلسطين عبد الكريم الكرمي مدينة حيفا ليقيم فيها، شدّه اليها ليس فقط بحرها وجبلها بل حياتها الثقافية، وإذا كانت حيفا منحت أهم لقب لأم كلثوم فهي لم تحسم «صراع الألقاب» بينها وبين يافا، فمن هي عروس البحر؟ حيفا أم يافا؟

كان تنافس حضاري بين المدينتين ولكن يافا أخذت مركز الصدارة الثقافية ليس فقط لأن عدد سكانها العرب كان أكثر من حيفا (يافا 120 ألفا عشية 1948 وحيفا 70 ألفا) بل لأن يافا كانت مسنودة باللد والرملة وقريبة من القدس وفيها تجمعت برجوازية فلسطينية ثرية وقد صدر في يافا في ذلك الوقت حوالي ثلاثين مجلة وجريدة ودورية عربية وانجليزية وأهم الجرائد اليومية مثل الدستور والدفاع وفلسطين وفي حيفا لم تصدر مثل هذه الصحف رغم أن حركة نشر قوية كانت في حيفا إذ صدرت صحف اسبوعية وشهرية مثل الكرمل لنجيب نصار وصحافة هزلية وساخرة مثل جراب الكردي والمهماز وفي عام 1944 بدأت تصدر جريدة الاتحاد.

في هذه المدن كانت حياة وكان نتاج ثقافي وحضاري لم ينسجم وحسب في الثقافة العربية الأشمل بل كان رياديا لأنه كان متجذرا في التاريخ من جهة ومنفتحا على الثقافة العالمية المعاصرة من جهة أخرى: في حيفا ويافا والقدس ترجمت روايات فيكتور هوجو وأميل زولا وليو تولستوي وأنطون تشيخوف وغيرهم لأول مرة الى اللغة العربية.

كيف تعيد أيام الثقافة وأعوام الثقافة إلى هذه المدن نكهتها وروحها الإبداعية في عصر الصراعات الفئوية والطائفية والاحتلال؟

كيف ترسم المدن صورة أجمل لتاريخها وحاضرها؟

كيف تصبح الثقافة فعل مقاومة ونهوض في المدينة والريف؟

هذه أسئلة الثقافة الفلسطينية الأهم، اليوم، في العام الذي توجت فيه القدس عاصمة للثقافة العربية ويصدر وزير يتقن العربية المخابراتية أمرا يمنع القدس من الاحتفال بعرسها ، ويمنع الناصرة ويافا وحيفا..

بعد ستين عاما سنصبح نحن حنين الأجيال القادمة ، فهل نترك لهم ما يكون مدعاة لحنين جارف؟

نيسان 2009

باب العامود - ملحق «القدس عاصمة الثقافة العربية»

نحو آذار الثقافة 2015

ثقافة في الظل، أم ثقافة هي الظل ؟

بماذا يختلف آذار الثقافة، الذي ينظمه مركز مساواة للعام الرابع على التوالي بالتعاون مع مؤسساتنا الثقافية وفي اطار مشروع الثقافة الفلسطينية - حقوق وفضاءات، هذا العام عن الأعوام السابقة؟ «آذار الثقافة» الذي يجعل هذا الشهر يغتني بعطاء ثقافي متنوع من الجليل وحتى المثلث والنقب ويغني مجتمعنا الفلسطيني في الداخل بمضامين الثقافة العربية والإنسانية؟

يختلف هذا العام عن سابقيه بوقوع يوم الإنتخابات العامة في البلاد في منتصف هذا الشهر، وهذه الانتخابات تختلف عن سواها في أن اسقاط اليمين الفاشي واضعاف مواقعه هما في صلب الحملة الإنتخابية وعلى قمة أولوياتها، وتختلف هذه الانتخابات بوحدة القوائم العربية ومعها قوى تقدمية يهودية ونزولها في قائمة مشتركة تحديا وتصديا لمحاولة هذا اليمين منع العرب من الوصول إلى البرلمان في أحزاب وطنية وقومية.

لم تتبدل شعاراتنا الثقافية في هذا العام عما سبقها في الأعوام الثلاثة الماضية، منها إثراء فضاءات ثقافتنا الفلسطينية والاغتناء بها أو دور الثقافة في مواجهة العنف الذي تبدا مظاهره البشعة من الاحتلال وحتى قمع الضعيف جسدا وروحا، ولكن بما أن هذه الحملة الانتخابية تحشر نفسها في هذا الشهر فان علاقة السياسي بالثقافي تصبح هي الموضوع الأهم. وندعو هنا مؤسساتنا الثقافية لأن توظف الحملة الإنتخابية من أجل تطوير حوار مع الأحزاب السياسية لتعزيز مكانة الثقافة في برامجها ووضعها على سلم أولوياتها وفي الوقت نفسه أن لا تجعلها ثقافة في الظل، ظل السياسة والسياسيين بل أن تكون هي الظل، ظل الواقع الذي يخلق مناخا طيبا للحوار ولممارسة الحياة بأمان وبلا توتر ولا صراعات دموية على البقاء.

لجيل يحن إلى الماضي الجميل ...

أبناء جيلي، الذين تجاوزوا الستين عاما من العمر مسكونون بحنين دائم وحار إلى الماضي الجميل، إلى أيام شبابنا حقا ولكن إلى ما كانت عليه تلك الأيام من لمعان ثوري ووطني، نعود إلى ما كان عليه عالمنا العربي الذي كان منسجما مع العالم ومنقسما معه إلى نصف رأسمالي امبريالي تقوده أمريكا ونصف آخر ثوري وتحرري واشتراكي يقوده الاتحاد السوفييتي، وكان خيارك إما أن تنتمي إلى هذا النصف او ذاك ولكنك لا تستطيع إلا أن تنتمي وبغض النظر عن ثقافتك وانتمائك وطولك وعرضك كان لا بد أن يكون لك موقف معلن على رؤوس الأشهاد. حالة النهوض العربي التي شهدناها أججت فينا لهيب الثورة على كل ما هو رجعي وتآمري، فمن جهة كنا نستمد طاقة ثورية من حضور وخطابات الرئيس جمال عبد الناصر وياسر عرفات وجورج حبش ومن جهة أخرى كانت النهضة الثقافية في العالم العربي لا تقل حرارة عن النهضة السياسية، جيلنا عاصر أم كلثوم وعبد الحليم حافظ ورياض السنباطي وأحمد رامي والجواهري والسياب وتأنق الرحابنة وهنا قبل حزيران 67 ورغم القطيعة والانقطاع عن فضائنا العربي نما أدب المقاومة في ظل حكم عسكري ونكبة مستمرة ونهب للأرض واللغة والوطن برمته، هنا انطلقت الكلمات الثورية كالرصاصات على المنابر وفي المحافل السياسية والجماهيرية النضالية، هنا ارتفعت أصوات حبيب قهوجي واميل حبيبي وجبرا نقولا وأميل توما وتوفيق زياد وحنا أبو حنا وحنا إبراهيم وعيسى لوباني وعصام العباسي ومحمود دسوقي وهنا وحينذاك شهدنا ولادة الجيل الثاني: راشد حسين وسميح القاسم ومحمود درويش وكل هؤلاء لم نصغ إليهم فقط في الأمسيات الأدبية بل في المظاهرات والاجتماعات الشعبية وفي ساحات الأول من أيار في الناصرة وكفر ياسيف والطيبة التي كانت تغص بالآلاف ممن انتظروا

قول الشعراء مثلما انتظروا قول القادة. في ذلك الزمن الجميل كان لقاء السياسي والثقافي حالة وحدوية يفرضها انسجام في المواقف والمواقع لكن كان هناك تفاهم أيضا على أن الفعل السياسي لا بد أن يأخذ شكلا ثقافيا وأن الفعل الثقافي لا بد ان يحمل مضمونا سياسيا.

في تعريف الحملة الثقافية..

نستعد لآذار الثقافة 2015 وقد انطلقت الحملة الإنتخابية وها نحن نعود بذاكرتنا إلى الأيام الجميلة، فلنحدد ماذا نريد وكيف يمكن أن توظف هذه الحملة لدعم الثقافة وكيف يمكن أن يوظف هذا الشهر لنهوض سياسي وطني وديمقراطي؟

أولا: رؤية ثقافية: الثقافة في موقع بارز. في الحملة الإنتخابية لا يكفي ان نذكر الاهتمام بالثقافة كمطلب مجرد، بل يجب وضع رؤية ثقافية يجري الحديث حولها في الاجتماعات الشعبية والحلقات البيتية والندوات السياسية الإنتخابية. هذه فرصة لالتقاء السياسيين والمثقفين والجماهير للتداول في تأسيس مشروع ثقافي وطني يتواصل بناؤه بعد الإنتخابات وبغض النظر عن نتائجها.

ثانيا: حرية التعبير والابداع. إذا كان عنوان هذه الإنتخابات التصدي للفاشية واليمين العنصري فان أهم قواعد هذا النضال هي الدفاع عن حرية التفكير والتعبير، وإذا أعادنا حنيننا إلى الماضي الجميل فأكثر ما نتذكره ونذكره هو تصدينا للحكم العسكري ولسياسة كم الافواه ولاعتقال الشعراء والكتاب والمثقفين وللرقابة على الأدب والفن، واليوم وحتى إن تغيرت أشكال القمع إلا أن الدفاع عن حرية

التعبير يبقى المطلب الأول ولا نميز هنا بين القمع الذي تمارسه السلطات السياسية وبين القمع الذي تمارسه سلطات اجتماعية ومنها وعلى رأسها المؤسسة الدينية. ثقافة حرة هي الشرط الأول لمجتمع حر.

ثالثا: الحقوق الثقافية من الدولة. هذه الحملة الإنتخابية هي فعل يعمق المواطنة والنضال من أجل الحقوق المدنية وقد نختلف في تفسيرنا لواقع المواطنة ولكننا متفقون على ان الحقوق المدنية هي حقوق شرعية ندفع مقابلها بالواجبات المدنية، وهذا يعني أن نخوض معركة ضد التمييز في هذه الحقوق. وليس هناك تمييز صارخ أكثر من التمييز الثقافي إذ أن نسبة ما يخصص من ميزايات للثقافة العربية هو 3% فقط من ميزانية الثقافة التي يقرها الكنيست باقتراح من الحكومة. في المحكمة العليا دعوى معلقة رفعها مركز مساواة وفيها كل التفاصيل عن أشكال التمييز الثقافي، وقد تشكل فوروم للمؤسسات الثقافية العربية من أجل تحصيل الحقوق ويضم المسارح والفرق الفنية والسينمائيين والأدباء، فلتدعم هذه الحملة الإنتخابية نضالات هذه المؤسسات برفع مطالبها ولنشرها وتعميمها.

رابعا: حضور الثقافة ظلا للواقع لا للسياسة. شهدنا في العقود الثلاثة الأخيرة تهميشا للثقافة والمثقفين والمبدعين. حتى أصبحت تعابير مثل: «كلام مثقفين»، تعني الكلام الذي لا قيمة له ولا يسمن، وصار الهجوم على المبدعين والإبداع الخبز اليومي لأعداء الثقافة والتنوير في الجوامع والصحف والمنابر العامة وصار رئيس مجلس يغلق مكتبة بقرار إداري وصار كل من يملك سلطة هامشية في المجتمع يلغي مسرحية وأمسية موسيقية وكتابا وقد التزمت الأحزاب والحركات السياسية الصمت ولم تحرك ساكنا، واليوم أنها فرصة هذه الأحزاب لتنقل الثقافة من

الهامش إلى المركز، لأن تنشر رسالة أن شعبا يستهين بثقافته هو شعب لا ثقة له بنفسه وهو لا يتقدم بل يركن إلى التخلف. هذا يجب أن يكون عنوانا للحملة الانتخابية لكي نعيد إلى الثقافة موقعها في المركز.

خامسا: المبدعون على منابر السياسة. تحدثنا بحب وحنين عن الزمن الجميل وما كان يميز هذا الزمن أن كل نشاط سياسي كان يجمّل بنشاط ثقافي. كان الشعراء يعتلون منابر السياسة في الحملات الانتخابية ويقرأون نصوصهم الشعرية والنثرية وكانوا يحكون سياسة بجمل أدبية ويثيرون الحماس بقصائد ملتهبة دون أن يكونوا ظلا لقائد سياسي بل هم قامات منتصبة وشامخة إلى جانب القادة السياسيين. هكذا كانت الجماهير تتعرف على شعرائها وهكذا كان السياسيون يفسحون مساحة واسعة للمبدعين. لم تتغير الحالة العامة ولا أوضاعنا السياسية والاجتماعية ولم ينصرف الاحتلال ولا سياسات التمييز، ما تغير هو أن ساحات النضال السياسية خلت من الشعراء.

سادسا: كيف ننشر ثقافتنا الوطنية؟ الثقافة الوطنية ليست فقط تلك التي تشيد بالوطن وتمجده أو تبكي عليه، بل هي التي تولد في الوطن ويصنعها أبناؤه وأهله وشرطها أن تكون متعددة المشارب والإتجاهات تعكس تعدديات المجتمع السياسية والاجتماعية والطبقية والعقائدية ولا تصنع الثقافة النخب فقط بل الجماهير أيضا وهناك ثقافة نخبوية وثقافة شعبية وكلاهما له الحق في الوجود، وفي الحملة الإنتخابية كما في آذار الثقافة يجب صيانة هذه التعددية والعمل على نشر ثقافتنا وتربية الأجيال الناشئة عليها وإدراجها بشكل لائق في مناهج التعليم وكتب التدريس وبتنظيم لقاءات مع مبدعينا في مدارسنا ومؤسساتنا التربوية.

سابعا: تنتهي الحملة الانتخابية ولا تنتهي الثقافة. بعد السابع عشر من آذار ستنتهي الحملة الإنتخابية بيوم الإنتخابات، وسنعود إلى حياتنا اليومية مع دورة برلمانية متجددة فيها وجوه ألفناها خيرا أو شرا وفيها وجوه جديدة منها ما يدعو على التفاؤل ومنها ما يعمق تشاؤمنا كما تأتينا أصواتها من الصفوف الصهيونية على كافة أشكالها، والسؤال: هل تترك الثقافة إلى الحملة القادمة؟

لا نعرف ماذا سيكون مستقبل القائمة المشتركة، ولكن هذه القائمة تتشكل من أحزاب وتيارات سياسية مختلفة ولكل حزب جهازه الإداري وكوادره ووسائل تواصله مع الجماهير، فكيف ستتعامل هذه الأحزاب مع الثقافة؟ انها مطالبة بأن تواصل دعمها للحياة الثقافية بعد الإنتخابات كما نرجو ان تدعمها قبل الإنتخابات. هذا هو المحك.

عودة إلى آذار الثقافة بغض النظر عن الإنتخابات.

يسعدنا أن مؤسسات كثيرة وضعت برامجها الثقافية لشهر آذار، ونؤكد هنا أن مركز مساواة المبادر إلى هذا الشهر الجميل لا يقدم أي دعم مالي للمؤسسات ولا للمبدعين، وهذا ما يثلج الصدر وهو أن نشاطنا الثقافي ليس مشروطا بدعم مالي ويمكن تنشيط الحياة الثقافية بدون ميزانيات كبيرة اذا توفرت ارادة وطنية وطاقات خلاقة وما نقوم به من جهتنا هو الحث والتنسيق والتشجيع والنشر وتعميم رسالة آذار الثقافة التي أصبحت رسالة الجماهير الفلسطينية في الداخل من أجل النهوض بحياتنا الثقافية وإحداث حراك إبداعي يعيد إلى هذا الوطن نكهته ويستحضر من الذاكرة تلك الحياة الثقافية المزدهرة التي عرفها وطننا قبل النكبة.

في الكتيب الذي سيصدر قبل بداية آذار ستجدون الاعلانات عن عشرات الفعاليات الثقافية، وهناك العديد من الفعاليات التي قد لا ينشر عنها بسبب التأخر في إعدادها ونحن واثقون أن بلدات عديدة سوف تنضم إلى آذار الثقافة لأن هذا الشهر ليس ملكا لاحد وليس حكرا على أحد، بل هو لكل من يهمه ثقافتنا الوطنية مبدعا أو متلقيا، هو لشعبنا في الوطن والخارج وهو رسالة حب وإبداع إلى كل من يريد أن يعرفنا في أجمل تجلياتنا.

كل آذار وأنتم بخير.

شباط 2015



نصوص وحكايات

الشجرة التي تمتد جذورها إلى صدري

يوميات طبيب نفساني في الكنيست!

يوم الأحد: بدأت عملي الساعة الثامنة صباحا. قالت لي الممرضة أن عشرين من أعضاء الكنيست ينتظرونني من الساعة السادسة صباحا. فوضى وصراخ خارج العيادة. طلبت من الممرضة أن تطلب منهم المحافظة على الهدوء. مشادة. يعلو صراخهم. طلب أحدهم أن يدخلوا حسب الأعمار: أكبرهم في السن يدخل الأول. معارضة شديدة بين الشباب. أحد الشباب يقترح الدخول حسب كبر القامة في الكنيست: «أعضاء الائتلاف يدخلون أولا، لأنهم يتعبون كثيرا». معارضة من حزب العمل: «الدخول حسب حروف الأبجدية». يقدمون طلبا مستعجلا لجدول أعمال الكنيست. رئيس الحكومة يدخل وينهي النقاش ببيان سياسي. يدخل عضو الكنيست الأول:

- يا دكتور أعاني من أزمة نفسية حادة، المتطرفون العرب يعملون ضد الدولة يخيل إليّ أنهم يجندون قوات عسكرية ودبابات وطائرات ليقلبوا نظام الحكم.. يوم الأرض يقترب يا دكتور.. العرب في إسرائيل يرفعون أصواتهم.. يستعدون ليوم الأرض.. ماذا أفعل يا دكتور؟ جننوني.. طيروا عقلي هسترت يا دكتور.

اقترحت أن ينقل إلى عكا. صاح في وجهي: لا.. لا.. هناك يوجد عرب. لا أريد. طلبت منه أن يحضر للفحص مرتين على الأقل. واعطيته بعض المسكنات.

انتهى يوم عملي الأول الساعة العاشرة مساء. طلبت أن تسجل لي ساعات إضافية. وأن يحضروا ممرضة أخرى.

يوم الاثنين: الساعة الثامنة - دخلت العيادة - وكان «ملقوحا» على السرير عضو الكنيست وهو يصيح: لا إله إلا الله.. الله وأكبر.. ولما دخلت صرخ: المؤذن.. المؤذن.. المؤذن يا دكتور. أنه يقلق راحتي. يخيل إلي أنني أعيش في دولة عربية إسلامية. هسترت يا دكتور. طلبت من الممرضة أن تناوله إبرة مخدر. رفض بإصرار. طلب من الممرضة أن تعمل له «مساج» ولكن الممرضة رفضت لأن هذا لم يرد في الاتفاق بين «الليكود» و «المفدال». دخل عضو كنيست آخر: أنا لست مريضا يا دكتور. ولا أعاني من القلق والهذيان. أنا اقترحت أن يعينوا طبيبا نفسانيا. اقتراح عظيم. أليس كذلك؟ اسمع يا دكتور، أطلب منهم أن يخصصوا قاعة للعبة «السنوكر»، وغرفة للمساجات، وحمام تركي. هذا حيوي. ينشط. ينشط.

انهيت عملي الساعة الحادية عشرة قبل منتصف الليل. طلبت مساعدا. وممرضة أخرى.

يوم الثلاثاء: دخل عضو كنيست شاب انيق.. «شعري يتساقط يا دكتور لم أعد جميلا.. قبل الانتخابات قالوا عني أنني أشبه (روجر مور) من هاواي.. واليوم.. هذا اليوم قالت لي فتاة انه إذا ظل شعري يتساقط فسأشبه (كوجاك) في قرعتي. شعري يشغلني يا دكتور.. انصحني، ماذا افعل». ودخل عضو كنيست آخر، خجل أن يتكلم أمام الممرضة. طلب أن تخرج وهمس في أذني: زوجتي شابة وهددت أن تطلقني لأنني.. لأنني.. وغص بالدمع.

يوم الأربعاء: قالت لي الممرضة أن أحدهم انتظرني طوال الليل، دخل والاضطراب الشديد على وجهه وحركاته تدل على القلق. يا دكتور.. أنا تعبان.. والقضاة، ماذا أفعل. أفكر باتخاذ خطوة خطيرة.. خطيرة جدا.. ناولته (مورفيوم) وطلبت أن ينقل حالا إلى جنوب إفريقيا.

الخميس: كان الطقس ماطرا. وصلت متأخرا. ولما دخلت العيادة.. فوجئت.. كان أكثر من عشرة أعضاء ينتظروني داخل العيادة. سألت الممرضة: ماذا حدث؟ أجابت: بعض أعضاء اللجنة قرروا أن يعقدوا اجتماعهم في العيادة. أسهل عليهم. يريدون أن تعالجهم بالجملة. هذا أمر من فوق.

طلبت منهم أن يعقدوا اجتماعهم في غرفة أخرى. لكن وقفت امرأة وصرخت في وجهي: لا.. أن هذه العيادة جزء من «أرض إسرائيل» ونريد أن نستوطن عليها. ثم وقف عضو آخر وصاح: إننا نبحث هنا عن آثار قديمة. ورن جرس التليفون. مفاجأة. سكرتيرة وزير تبحث عن مسؤول كبير. ورن التليفون طوال الوقت.

انتهى اليوم، طلبت أن يوظفوا عشرة أطباء. وعشرين ممرضة. وخمس موظفات على التليفون. الجمعة: دخل عضو كنيست يصيح: لجنة مبادرة.. لجنة مبادرة.. خربوا بيتنا.. لم أفهم ماذا يعني. ترجموا لي. وفورا وصفت له الدواء: أنت بحاجة الى بحبوحة.

ودخل عضو كنيست يريد أن يتعلم السرقة بواسطة التنويم المغناطيسي مثلما تعلم اللغة العبرية حتى يحقق في الاجرام المنظم. ودخل عضو كنيست يشكو من مرض اسمه (مافيا) التلفزيون. وتوافد العشرات. وشعرت بالتعب. كان بعضهم يبحث عن عضو كنيست او وزير في عيادتي. شعرت لأول مرة بالإرهاق. احسست أني بحاجة أيضا إلى طبيب نفساني. فقدمت استقالتي عدت الى المستشفى الذي أعمل فيه. ولم أجد بعض المرضى سألت مدير المشفى وكيف حدث هذا. أجاب: وما

الغرابة. إذا عينوا مجرما سفاحا للوكالة اليهودية. وإذا انتخبوا مختلسا في الكنيست، أفلا يحق لهؤلاء المساكين أن يكونوا مستشارين؟

قررت نهائيا أن أترك مهنتي. وأهاجر.

78/03/10

«شوش».. تعلمهم حب الغير..

شوش.. هي المعلمة شوشانا مزراحي.. زوجها ضابط في الجيش ولها ثلاثة أطفال في المدرسة الإبتدائية التي تعمل فيها.. هي تعمل مدرسة منذ أكثر من عشر سنوات.. دائما كانت مواظبة حتى عندما أضرب المعلمون في مطلع العام الماضي.. وصلت إلى المدرسة وأدت واجبها.. أحضرت أطفالها.. وجمعت عشرين طفلا وعلمتهم دروسا في المدنيات والتاريخ. شوشانا تنفذ تعليمات الوزارة على أكمل وجه.. تقدر الرسالة التي تعلقها في عنقها الى جانب نجمة داود.. وهي مثالية.. مخلصة لشعبها ولدولتها.. وتدأب على تثقيف طلابها بروح الحركة الصهيونية.. وتوصيات زبولون هامر..

شوش.. لا تسافر في أيام السبت.. ولا تأكل لحم الخنزير.. وهي لا تكره أحدا.. وهي تحب السلام.. وتدعوا إلى أخوة الشعوب.. وهي تأمن بالحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية.. وبهذه الروح تتحدث مع طلابها في مطلع كل عام دراسي.. رسالتها أن تثقف طلابها بروح الصهيونية والسلام.. وكما تقول عن نفسها فإن طلابها يحبونها كثيرا ويقدرونها.. كذلك فإن أهاليهم يزورونها في البيت ويقدمون لها الهدايا ويقولون لها:

- أنت يا شوش أفضل معلمة في المدرسة..

وتبتسم، وترد عليهم: هذا واجبي! ألست مواطنة في هذه الدولة؟ ألست

صهيونية؟ فيبتسمون ويوصونها بأن تحافظ على أطفالهم وأن تثابر عمل الخير..

في كل عام تتسلم رسالة تقدير من مفتش المعارف.. حتى أن الوزارة قررت أن تكافئها على جهودها فأوفدتها إلى المانيا الغربية مع مجموعة من المعلمين.. وهناك قامت بزيارات الى المدارس وتعلمت أساليب حديثة في التربية والتعليم.. وأكثر ما لفت انتباهها أن المربي في المانيا الغربية يخصص حصص اليوم الدراسي الأول من كل عام ليعلم طلابه «حب الغير».. وقررت في هذا العام ان تخصص حصص اليوم الأول: لحب الغير..

دخلت الصف.. وقف الطلاب.. قالت: اجلسوا.. كل عام وأنتم بخير.. فأجابوا بصوت واحد: كل عام وأنت بخير.

ثم بدأت درسها: كيف نساعد الفقراء.. يكثر المتسولون في شوارع المدينة.. واجبنا أن نرمي في أيديهم ما بقي في جيوبنا من نقود.. أنهم يهود مثلنا.. لم تتوفر لهم الفرص لأن يعيشوا كما نعيش.. فان اكثرهم وصلوا من بلاد فقيرة مثل المروكو.. لقد أحضرناهم من الكهوف والمغائر إنهم لم يشاهدوا سيارة في حياتهم قبل أن يصلوا إلى بلادنا. أنهم أميون.. ولذلك ظلوا فقراء متسولين في شوارع المدينة.. عندما تشاهدون امرأة عجوز في الشارع قدموا لها المساعدة.. احملوا عنها حقائبها.. ولكن إياكم أن تختطفوها.. إنها يهودية مثلنا.. ولكنها عاجزة بسبب كبر سنها.. وكل ما تحمله في حقيبتها هو قليل من مخصصات التأمين.. فهل نسرق منها ما تقدمه لها حكومتنا.. إذا سرقنا منها ألف ليرة.. فستضطر الحكومة أن تدفع لها مقابل نقودها.. إذن ستخسر الدولة من ميزانيتها ألف ليرة أخرى.. أنتم تعرفون أننا نعاني من أوضاع اقتصادية صعبة

جدا.. إن «العربيم» الذين يحتكرون النفط يفرضون الأسعار الباهظة على العالم.. وهذا يؤثر علينا لأن أسعار المواد الغذائية ترتفع كثيرا.. حتى الخبز الذي نأكله.. والحليب الذي نشربه.. هل تعرفون لماذا ارتفعت أسعاره.. لأن العرب رفعوا أسعار النفط.. إننا دولة صغيرة ويحيط بنا الأعداء من جميع الجهات.. لأنهم يريدون إلقاءنا بالبحر.. إنهم يكرهوننا.. وعلينا أن ندافع عن أنفسنا.. ولولا أن جيشنا قوي وانتصر عليهم في خمسة حروب لما بقينا على قيد الحياة.. أنتم تسمعون يوميا الأخبار كيف أن المخربين يقتلون أطفالنا.. إنهم يلقون قذائف الكاتيوشا على كريات شمونة.. ما ذنب أطفال كريات شمونة.. إنهم يلقون القنابل على جنودنا في نابلس.. ولكن لا تخافوا يا أطفال جيشنا قوي، أنه يبحث عنهم في كل مكان.. غدا عندما تكبرون وتنضمون إلى الجيش ستلاحقونهم إلى أوكارهم وتقضون عليهم جميعا.. إن طائراتنا تقصفهم يوميا.. إنها تقضي عليهم وتحصدهم. ولولا أننا نملك طائرات «الفانتوم» التي يتبرع بها إخواننا اليهود في أمريكا.. فكيف كنا سنقضي عليهم؟ إننا لا نريد أن نترك لهم أثرا في هذه المنطقة لكي نعيش في بلادنا، التي وهبنا إياها الرب، بسعادة واطمئنان هل يستطيع أحد أن يمنعنا من العيش على أراضينا.. نحن نقول لهم أننا نحب السلام.. لقد وقعنا على اتفاقية سلام مع أكبر دولة عربية.. وبعد خمسة أيام سيزور أكبر زعيم عربي مدينتنا حيفا سنخرج إلى الشوارع ونستقبله ونحن نحمل الأعلام.. سنصفق له.. وسنقدم له الخبز والماء.. والملح.. أننا نحب هذا الزعيم.. إنه هو كذلك يحبنا.. وسنتعرف على زوجته الجميلة جيهان.. اننا نحبها هي أيضا.. وهي تحبنا.. يجب أن نتعلم حب الغير.. يجب أن نحب أصدقاءنا كثيرا حتى ولو كانوا من «العربيم».. ولكن من الصنف المصري.. فقط.. لقد أوصانا اللّه بأن نحب الغير.. نحب الغير.. في الدرس القادم سنواصل الحديث..

.31/08/79

أبو العبد يغازل مدام مندلوفيتش في قلعة زئيف

أبو العبد يحضر مؤتمر الحيروت لأول مرة.. لكنه لم يترك حزبا يصب على أيدي الحكومة الا وحضر مؤتمره.. ويقسم أغلظ الأيمان بأنه لأول مرة يشعر بالسرور والإعتزاز في اثناء اجتماع ينصب فيه مختارا على عشرين من جماعته الذين يفهمون من اللغة العبرية ما يفهم هو من الايديش التي تتقنها صديقته المغفور لزوجها مدام مندلوفيتش. ومدام مندلوفيتش التي يناديها أبو العبد «المظام» تجنبا وتحاشيا للوقوع في زلة لسان ايديشية قد تثير غضبها، أصرت، تعزيزا للصداقة التي كانت تربط المرحوم زوجها بأبي العبد، ان تقعده على منصة الرئاسة.. فجلس إلى جانبها بعد أن استبدل لباسه الإفرنجي بقمباز ابن عمه وكوفيته وعقاله بطلب من رئيس المؤتمر الذي أراد أن يطلع شعب إسرائيل على الدمقراطية والمساواة في حزبه، وأن يلفت نظر الأجانب إلى أن من يسمون انفسهم «جبهة رفض» لا قيمة لهم وأن «عرب أرض إسرائيل» أصبحوا في الجيبة الصغيرة.

وهكذا أمضى أبو العبد أربعة أيام إلى جوار «المظام».. لم يعرف أياما أحلى منها.. وقد حدث عنها أهل بيته بعد عودته من المؤتمر لدرجة أن زوجته دبت فيها الغيرة ووأقسمت بشرفها أنها لن تبعثه بعد اليوم إلى أي اجتماع حتى وأن «أطنبت عليها» كل حكومات غسرائيل.

وأبو العبد خرج سعيدا من المؤتمر لأنه حظي بمصافحة يد الزعيم مناحيم بيغن.. بفضل «المظام».. فهي التي دبرت هذه العملية.. وهي التي طلبت من مصوري التلفزيون أن يلتقطوا صورة الاثنين.. وهي قالت ابتسم، فابتسم، ولو قالت له أرقص لرقص. وكان الله بالسر عليم.

عندما اقترب مصور التلفزيون لكشته في فخذه.. تنهد.. وأمال رأسه نحوها.. فأجفلت كالعنزة خوفا من أن يضرب طرف شاربه بأنفها.. وأمرته بأن «يركز» عقاله، وينظر في اتجاه «الكاميرا».. ويبتسم.. ويبعث سلاما وتحية عبر الشاشة الصغيرة إلى اقاربه الذين يراقبون البرامج بتوجيه من «المظام»..

- هل تلاحظ كم نحترم العرب؟

قالت، ولم تنتظر منه جوابا.. ولم يفهم لماذا وقف الجميع وبدأوا يغنون، وهو يحرك شفتيه.. حتى هزه الطرب على ألحان «هتكفا».. وكلما سمع هذا النشيد يعجب كيف أنه يسمع أغنية عبرية لا يقولون فيها «لاي... لاي.....، وجلس، وبدأت! «المظام» تشرح له كلمات الأغنية، فأعجب من حكومة التكتل التي لا تفكر إلا في السلام ومحبة العرب. ووعدها أنه لا يترك هذا الحزب حتى وغن دفع له الآخرون ملايين الليرات.. وغمزها قائلا: سبحان الله يا «مظام»، حبيت هالحزب والمحبة من الله.

لكن كاد أبو العبد ان يترك المؤتمر احتجاجا على تصرفات سديقه القديم أبراهام عندما اقترب منه وضع يده على شاربه وقال له: يا أبو العبد، شواربك اليوم منطزمين! فغضب وأزبد وعربد. كيف يهينه ابراهام امام المدام مندلوفيتش. لكن بعد ان تدخلت المدام، وقالت له امسحها في هالدقن. سكت وبلعها وأقسم أن لا يدعوا أبراهام غلى بيته لتناول الغداء مع «الشلة»، وهذا أقسى عقاب ينزله عربي كأبي العبد على مدير مخابرات من صنف أبراهام.

ولما بدأ الزعيم بيغن يخطب طلب من «المظام» أن تترجم له كلمة.. كلمة..

وكان يصفق عندما تجتاح القاعة عاصفة من التصفيق.. لكن «المظام» أمرت بأن لا يصفق دون اشارة منها ، لأنه اخطأ خطأ كاد أن يؤدي غلى الإطاحة به عن منصة الرئاسة وعن نعمة الالتصاق بالمدام مندلوفيتش، حيث صفق لوحده عندما ذكر بيغن خطابه ونظر إلى أبي العبد بإزدراء.. واتجهت الأنظار نحوه.. فطأطأت المدام رأسها..

ولم يفهم أبو العبد لماذا كان أهل قريته يصفقون بحماس في اجتماع شعبي عقد في القرية كلما ذكروا هذا الاسم وأما في قلعة زئيف فالتصفيق محرم وتعقبه بهدلة من قاع الدست.. وطلب من المدام أن يسمحوا له بإلقاء كلمة قصيرة عن خدماته في الحزب.. فأقنعته بأن الحضور لا يطيقون سماع اللغة العربية.. «أنت تعلم أن العرب هم أعداؤنا.. وخلال ثلاثين سنة قاموا بقتل أطفالنا ، هل ترى هؤلاء جميعا.. كل واحد منهم فقد أخا او ابنا او قريبا في الحرب ضد العرب.. فكيف ستتكلم باللغة العربية أمامهم.. بلاش يا أبو العبد.. سأدبر لك مقابلة في التلفزيون.. أفضل..».

وطلب منها أن تدبر له مقابلة مع عيزر فايتسمان صديقه الحميم ومع إريك شارون ودافيد ليفي.. وفي ساعة الاستراحة أمسكت بيده وتنقلت معه بين الحضور.. تعرفهم على أبي العبد.. وتعرف أبو العبد عليهم.. وكانت هذه أحلى لحظات حياته.. حتى أن أمل نصر إلين عضو الكنيست «وزلمتهم جاي جاي» لم يحظ بمثل هذا الشرف.. ثم أخدته إلى غرفة جانبية وأغلقت بابها..

لم يفهم ماذا تطلب منه.. أمسكت بيده كانت دافئة.. ضغط على كف يدها.. نظر حوله.. قلبه اخذ يقفز في صدره.. أبو العبد فحل.. والمدام تغلي غليان.. قالت له: اجلس.. على الأريكة.. جلس.. وجلست إلى جانبه.. «أنت رجل عظيم يا أبو العبد» قالت له بعد أن أخرجت مرآة صغيرة و «إصبع

الحمرة» من جزدانها.. - واللّه يا «مظام» إنني أعرفك منذ أن كنت صبية.. والمرحوم كان دائما يحدثني عنك عندما كنا نتاجر في الأراضي.. واليوم أنت صبية أكثر..

- صحيح يا أبو العبد؟.. شكرا... شكرا.. ووضعت ذراعها على كتفه.. وطلبت منه أن يركز عقاله.. وأن «يزبط».. شواربه.

حاول أن يضع يده على فخدها لكنها أزاحتها وأنزلت ذراعها وقررت أن تدخل في الموضوع.

- يا أبو العبد بعد قليل سيصوروننا في التلفزيون.. هل تعرف ماذا ستقول؟

أحس أبو العبد وكأن سطلا من الماء البارد يسكب عليه.. فأفاق من شططه.. وقال لها :

- نعم.. يا «مظام».. إن حزبنا هو الوحيد الذي يحترم العرب.. حزبنا يريد السلام.. يعيش حزبنا.. يعيش رئيس حكومتنا.. مناحيم بيغن..

- إذن... عليهم..

ما تبقّى من حيفا

أبراهام شميدو باع الخان، باع الشراكة سقطت الساعة، قلت، سقط الوطن

الشيخ المشقق الوجه الذي نتحدث عنه، يمشي جنبا إلى جنب مع سنوات هذا القرن، هو يتراجع، والسنوات تتقدم، ببطء لكن بحزن، بألم، بحسرة.. يستيقظ مع طلوع الشمس.. يترك البيت.. ويمشي في شوارع حيفا - ي. ل. بيرتس، هنفيئيم، مندلي موخير سفريم، ابراهام افينو، سارة امينو، اسماء لا تثبت على لسانه. وشوارع لا تثبت عليها قدماه.. يبحث عن مقعد في حديقة.. يجتمع حوله أصدقاء، عندما كان هو «عربجي»، سكة مكة، في حيفا.. كان هؤلاء الأصدقاء يبنون قصورهم في بغداد والإسكندرية وأولادهم على مقاعد الدراسة يستعدون لإدارة قسم الهويات في دائرة الهجرة..

نقول: حرب الـ 14.. (الحرب العالمية الأولى)..

يقول كنت في الـ 14.. نقول حرب النكبة يقول كان عمري 48 ويضيف: «بلغتها يوم ما كان مدفعهم على البرج، وضرب قنبلة فيها كبريت أصفر على الساعة قرب مسجد الجريني، فسقطت الساعة، قلت: «سقطت الساعة، سقط الوطن».. ورحت يا عمي يومها أبحث عن شريكي، أبراهام شميدو، هالعكروت كان صار بايع الخان وبايع الشراكة». ويحكي الشيخ أنه بعد ما احتلوا البلاد، اوقفوهم في طابور عند الخان لتسليمهم هويات. فسأله الموظف اليهودي:

- من وين أنت؟

- أنا من هون، من هالبلاد أبا عن جد. وأنت من وين.

- أجاب الموظف: أنا من العراق.

- هاللّه، هاللّه يا هالزمن. صرت أنت تعطيني هوية؟ واللّه يا عمي، ولا عمري حملتها هالهوية؟!

وقف رفعت على حمار أسود ورمى شباكه والبحر يجيب ناس ويقذف ناس

حيفا لم تمسح من خريطة هذا الوطن. لكن معالمها تتغير وتتبدل، حيفا عتيقة وحيفا جديدة.. واحدة نعرفها نحن وواحدة لا يعرفها إلا أولئك الذين تمر في ذاكرتهم أيام البوابة الشرقية وسوق الشوام وبندر التجار والقشلي.. كما مرت السنوات الطويلة.. نذكر الكثير وفي الذاكرة تهترئ أكثر الاشياء.. تختفي، يأكلها صدأ هذه الأيام، تتحول إلى صور وخيالات تنخز في القلب وتجرح العاطفة، وماذا نطلب من شيخ تشقق وجهه، وينتظر قدوم الساعة أن يفرجها ربك مع «هالـ.... حرمونا نعمة الحياة، وقطعونا، ومزقونا وشتتوا أولادنا»..

وكيف يمكن أن نسجل كل شيء عن حيفا؟ قلنا، نذكر القليل، القليل، لعل شيخنا العربجي ينبش معالمها المخفية، في الذاكرة، أو على أطلال جامع الجريني أو حمام الباشا الذي تلمع على سطح قبته نتوءات الزجاج الأزرق كلما طلعت الشمس ومسحت خيوطها عامود فيصل الرخامي، الذي أقيم على قبر الشيخ مبارك.

«أهالي حيفا القديمة، كانوا فقراء، حجّارة وصيادين سمك.. كانوا يقلعوا الحجار من وادي رشميا ويبيعوها، وبعدين لما جاء الإنجليز، ، ووسعوا البور (الميناء) صارت العالم تشتغل في البور..

رفعت كان صياد ماهر، «فس منه وقدام»، كان عنده حمار أسود، يوقف على ظهر الحمار، ويمد نظره ما تفلت منه ولا سمكة.. راحت الأيام

وأجت الأيام، وهالبحر صار يجيب ناس ويقذف ناس، «ولانشات» دار أبو زيد تحمل في هالعرب..

لوين؟ لمينا عكا

لوين؟ لمينا بيروت..

لوين؟ لميناء صيدا..

لوين؟ لجهنم الحمرا..»

مسكين حياة الشيخ أخلص لجماعته. إحنا يا هالفقرا ما عرفنا كيف طارت البلاد

في تلك الأيام، كان «الهدار» الذي تنبعث منه اليوم رائحة الفلافل والشوارما، كان كله كروم عنب لدار الخمرة وبيت سلام والهواش.. واشتراه ممثل الكيرن كييمت الذي كان مكتبه في شارع ستانتون.

واشترى تل السمك والعزازية وسلمها لليهود.. «ساعدهم برومزا حاكم المركزية.. فتحوا يا عمي مكاتب وصاروا يشتروا في هالبلاد، وهالسماسرة والإقطاعيين يقدموا لهم الغالي والرخيص، البارون اشترى حتى زمارين.

والمنطقة الألمانية، كانت مع الألمان من أيام تركيا، بعد ما أجا قيصر ألمانيا غليون (ويلهلم غليوم) وطلع على البونط. أول ما وصل طلب الموارس من مشيرية عكا ليعطيها للألمان اللي سبقوه. قام الأهالي صاروا يكيلوها بالحبل، وبعدين ركب حنطور جورج سوس وراح القدس، كان الألمان يشتغلوا فلاحين وعربجية، مثلنا مثلهم، بعدين فتحوا الشوارع للقدس وصارت نسوانهم تشتغل على العربات وهم ينقلوا السواح، ويتمركزوا في

الكرمل، سكن واحد اسمه كيلر. ثم أجا شنايدر. وبعدها الراهبات واشتروا أم العمد وبيت لحم من الفرد تويني وباعوها لموسى خانكين زلمة الكيرن كييمت.. احنا هالفقرا يا عمي ما عرفنا هالبلاد كيف طارت ولما الفقرا كانوا برفعوا صوتهم كانوا يكسروا رؤوسهم.. جاري في حارة الكنايس كان الشيخ عز الدين القسام.. اصله من اللاذقية.. كان فقير ورجل دين تقي يهدي علي ويوعظني، لأني كنت أشرب كثير، كل المشايخ كانوا ضده: الحج خليل وحسن بك وإبراهيم بك وسليمان بك الصلاح والحج عبدالله، كلهم كانوا ضده، ليش: لأنه فقير حربجي بده يحرر هالبلاد، جماعته كلهم الفقراء والفلاحين المقطعين واحد من هون وواحد من هون.. منا يا هالفقرا.. قتلوه الإنجليز.. هو وجماعته، حصدوهم في يعبد.. حياة الشيخ كان مخلص لجماعته.. والله البيكوات والبشوات ما في نفوسهم ذمة.. لا والله.. كلهم حرامية وكنت تشتري الواحد بصرماي.. قبل ما يأخدوا الحكم كان لي صديق يهودي اسمه داهود كوهين بيشتغل عند اهرونسون يوم ناداني، رحت لعنده: قال لي معكاش خبر؟ أخذنا البلاد.. جيب ولادك على زمارين!

الإنجليز ينهشوا فينا. واليهود ينهشوا فينا ومشايخنا ينهشوا وسيف الدين الحج أمين

حدثنا الشيخ المشقق الوجه عن ساحة الخناطير، «كانت مثل محطة التكسيات هالعربات والخناطير واقفة تنتظر.. واحد رايح على المحطة يدفع عشر قروش ويركب.. واحد رايح على أم الجمال.. على الشونة.. أم العلق الخريبة.. الياجور.. المراح.. بريكة.. الغيبة كان يركب معنا ونوصله».. ذكر الخضر، فاقتربت زوجته وقالت انها ستحكي لنا هالخرافة:

«مرة كنا نضيف في الخضر، وصلوا زوار من كل البلاد، ذبحوا هالذبايح ونزلوا العرق في التناك.. وقاموا القيامة.. بعد ما أكلوا شربوا ونزلوا عالبحر.. لما فاتوا ضيعوا وصاروا يغرقوا.. فزعت الناس تدب الصوت، اللي جوزها في البحر، اللي ابنها، اللي أخوها.. والختيارية يا حرام صاروا يتدعوا: دخلك يا خضر، اطلعهم يا خضر!

ما شافوا إلا واحد قاعد على الشختورة وقات على نص البحر.. صار يجيب عالشط ويرمي في هالناس.. يجيب ويرمي.. خفى الله يا ربي خمس ست نقلات.. بعدين فقدوه ما وجدوه قرص ملح وذاب.. قدرة الله.. الناس صارت تقول: هذا الخضر.. ما غرف ولا واحد.. بعدين غنوا ودبكوا وزمروا.. وما حد نام يومها.. كانت سهرة ما في احلى منها..».

لم يسمح لها بأن تواصل الحديث: قال متهكما: الخضر حي! الخضر حي! كانت هناك مغارة.. جاء أسعد الخضر وبنى حولها.. وشيدت بنايات جميلة في ذلك الموقع الذي يطل على البحر.. ولم يتوقع أحد من الذين كانوا يضيفون في هذا الموقع المقدس بأنه سيأتي يوم وتصل إلى حيفا أخبار دير ياسين حيث يصبح «رأسمال الزلمة فشكة»..

كنا، يا عمي، مش عارفين حالنا وين طاسة وضايعة، الإنجليز ينهشوا فينا واليهود ينهشوا فينا ومشايخنا ينهشوا فينا.. وكلمة تأخذنا وكلمة تودينا.. من يوم ما علمونا «سيف الدين الحج امين» اللي صار بعدها ما تحمله القرود..

كنا في دار القلعاوي. دخل سكناجي وترك

كان ذلك في نيسان 1948.. في التاسع عشر من هذا الشهر الربيعي سقطت حيفا.. كان جنود بريطانيا يجمعون أمتعتهم، بعد أن سلموا أسلحتهم لقوات الهاجاناه، ويستعدون لمغادرة هذه المدينة التي انتعشت فيها التجارة وازدهرت في السنوات الخالية. وأول خبر وصل عن قرية اسمها دير ياسين روى كيف كان الجزارون يشقون بطن المرأة الحامل ويمزقون حناجر الاطفال ويطوفون بجثث القتلى عند باب الساهرة.. واذاعة الملك عبدالله وبريطانيا العظمى ترعب قلوب الناس بما سيفعله اليهود للعرب الذي سيبقون في بيوتهم.. كانت مدافعهم تقصف المدينة من عمارة البرج، هرب اليهود لمنطقة الهدار.. وظل العرب تحت القصف المركّز. وصرير المدافع.. وسمعوا نداءات تقول لهم:

ابقوا في بيوتكم ولا تغادروا الوطن! لكن المدينة الحالمة افزعتها «بومباية» (قنبلة) سقطت على المحطة، واخرى على الساعة التي كانت «تشبه ساعة لندن»، واخرى. بهيئة برميل معبأ بالبارود دحرجوه على الدرج النازل الى وادي النسناس واخرى.. وأخرى.. وأخذ جيش الهجاناة ينظف الاحياء العربية من اهاليها.. «كان الانجليز يدخلوا على البيوت ويسألونا: بعدكم قاعدين؟ اليهود راح يذبحوكم اذا بقيتم في بوتكمّ احملوا اغراضكم ويللا عالبور..

الإنجليز لعبوا اللعبة القذرة.. من جهة يصرحوا أنهم بيدعموا الملك ضد اليهود ومن جهة ثانية ما تركوا قطعة سلاح إلا وسلموهم إياها.. وكانوا يساعدوهم على تهجيرنا.. كل ما شافوا عربي كانوا يسوقوه للجمارك جمعوا العرب عند المينا وأغلقوا عليهم خط الرجعة.. وصارت هالقوارب

تحمل وترمي في صور وصيدا، الناس كانت مرعوبة.. من الأخبار اللي سمعوها عن معاملة الجيش.. تركوا بيوتهم مثل ما هي.. الخبز في الفرن.. والطبيخ عالنار.. السوق تركوه مفتوح، صارت توصل سيارات وتحمل في البضاعة، نهبوا كل شيء، القمح والأكل وادوات الكهربا.. وهدموا بيوت جديدة وباعوا حديدها وحجارها للناس.. أنا وزوجتي وأولادي تخبينا في دار القلعاوي.. قلت: واللّه باقي حتى لو ذبحوني انا وأولادي وعملوا منا سرسيسو.. يا عمي، صدقنا وما صدقنا، كنا نبعث هذا الولد ناحية الحسبة ليطل على جيوش الملك عبداللّه إذا وصلت مثل ما وعودونا.. العلامة على رؤوسهم طاقية فيصلية وعلى رأسها حربة.. لا شفنا طواقي ولا ما يحزنون.. راحت علينا وعلى اللي ركبوا في الشخاتير.. بعد يومين رجعت على دارنا، لقيت الدار فارغة وما فيها شي.. شفته في عيني.. كان ختيار سكناجي فرغ الدار وما ترك فيها غير ورقة النفوس.. قلت في نفسي، ياللّه، على الأقل حافظوا على أسماء أولادنا...».

خروج

لتكن مقدّمة...

طلب مني صديقي أن يقرأ الكتاب كي يكتب المقدمة.

بعد أيام عاد إلي وقال: لقد قال «أبو يعقوب» كل ما أردت أن أقوله في مقدمتي. فلتكن «خروج» هي المقدمة.

تبعناهم

ليلة من ليالي خريف عام 1956. أبو يعقوب. أم يعقوب. سيما يعقوب ودانيال، أو داني في الطبيعة الجديدة، يجلسون في بيت كبير يقع عند

ملتقى شارع الملك فؤاد وزقاق الحسنين وقد التقوا حول المذياع، كأن رؤوسهم الطير، وكأن في صندوق العجب الذي ينطق ولا حنجرة له، ولا يخطئ في قواعد اللغة النحوية، مبشرا يخاطب كلا منهم بلهجته وبالكلمات التي ينتظر سماعها منذ سنوات، أو على الأصح منذ كان الملك فاروق يغازل ناريمان الأميرة وفيلق من جيش الكفاف الحمر يزحف من الشرق إلى الشرق.

طرق شديد على الباب. انخرس المذياع وتغلب الصمت جلبة من الشارع ووقع أحذية «كوماندو» تقترب شيئا فشيئا.. هب أبو يعقوب فزعا وصرخ:

مين دا؟

كل شيء كان يثير الفزع حتى ذلك الصمت الذي تملك عيني «سيما» الصبية اليافعة.

لم يعرف أبو يعقوب «مين د».. فتح الباب وكأن في داخله هاجسا يوحي له بأن ما حلم به منذ سنوات يتحقق في لحظة من لحظات الرعب.. الخلاص.. الخروج من مصر دون الإنتظار أربعين عاما في سناء إلى أن يفنى جيل العبودية ويدخل «أرض الميعاد» منتصرا جيل جديد، حاكما ليس محكوما. مستعبدا ليس مستعبدا. آمرا ليس مأمورا.

- لا تتكلموا! اتركوا كل شيء. واتبعونا.

وتبعناهم يا أفندم!

غادرنا

الفزع الذي تملكنا تحول إلى غبطة.. في قلوبنا جميعا إلا «سيما» ظلت حزينة كئيبة وحاولت أن تقاوم الحاحنا في الإسراع وفي أن نتبع «الكوماندو» مأمورين لا آمرين.. إنها لا تفهم شيئا مما يدور حولها فهي لم تولد في الغربة أو في المنافي، تعلمت في مدرسة سعد زغلول ووالدتها تقول عنها أنها زغلولية وليست «رمبامية» كأخيها داني أو دانيال، ولم نوهم أنفسنا أننا اقنعناها في أن تتبعنا لكنها لم تصمد أما الحاح ضابط الكوماندو وتوسلات والدتها.. تركنا كل شيء، أردت أن أحمل بعض الثياب في كيس من القماش فنهرني الضابط، وألقيت الكيس، وحملت أم يعقوب ما جمعته من صيغ وذهب. كان الحمل ثقيلا فناولته لأحد الرجال طالبا أن يحفظه إلى أن نلتقي سويا في تل ابيب، أو في كنيس من الكنس المتبقية من أيام هورودوس أو شاؤول الملك. غادرنا بور سعيد في ساعة متأخرة من الليل، لم نعرف كيف سنقطع الطريق في سيارة أو على ظهر قارب ينتظرنا قرب كاسر الأمواج بين بواخر بريطانيا العظمى، وإيطاليا العظمى، وإسرائيل العظمى.. العظمى.. العظمى.

طمأنتها

نزلنا على شاطئ بور سعيد. وصلت سيارات أخرى ونزل منها عدد من العائلات التي كنا نعرفها ونلتقي بها في صباح كل سبت. ما كان يوحدنا عزز الطمأنينة في قلوبنا.

نقلنا إلى قارب رفع عليه العلم الإيطالي. أمرنا الجنود بأن نسرع، فأسرعنا واعتلينا ظهر القارب وبعد لحظات أخذ يتحرك، لم نعرف لماذا يأمرنا هؤلاء الجنود بأن نسكت وإلا نوجه الأسئلة أن نفعل كل ما يأمروننا به، كنا ما كنا نعرفه هو أننا سنترك مصر وسنعود إلى «أرض الميعاد».

بعد نصف ساعة همس أحد الجنود في إذن رئيس الجالية الذي لم تفارقه البسمة شفتيه. ثم تحرك الجندي على ظهر القارب وأنزل العلم الإيطالي ورفع العلم الأبيض وعليه خطان ونجمة داوود باللون الأزرق. صفق بعض الرجال. ووقف رئيس الجالية وألقى كلمة. ظل القارب يمخر عباب البحر، والأمواج تتكسر على دفتيه. كلما تمايل القارب سيطر علينا خوف من اقتراب نهايتنا. كانت الابتسامة تظهر فجأة على وجوهنا وتختفي فجأة. قالت لي سيما أن الغثيان يتغلب عليها. قلت لها: تمالكي نفسك! حاولي أن تصمدي فأننا نقترب من الشاطئ. لم تستطع أن تتحمل. أخذت تبكي بمرارة. لا أذكر أنني شاهدت دموعها من قبل إلا عندما كانت طفلة صغيرة.. صغيرة جدا.

أخذت تصرخ:

- أعيدوني إلى زقق الحسين.

طمأنتها أن لا عودة بعد اليوم.

سكتت مغلوبة على أمرها. ولم يسمع صوتها إلا بعد أن تقيأت كل ما بداخلها.

نزلنا

في ليلة من ليالي هذا الخريف تحولنا إلى لاجئين..

كل ما قمنا به كان يوحي بأننا أصبحنا لاجئين إلا ذلك الأمل أننا عائدون إلى «أرض الميعاد» بأمر من جنود الكوماندو وبتدبير من رئيس الجالية.

تركنا كل شيء عند مفترق الطريق. لو أنني عرفت أن هذا الحلم سيتحقق بمثل هذه السرعة لتدبرت أمري وبعت حانوتي وبيتي والأثاث الذي اشتريته بعرق جبيني، ولحملت نقودي ووصلت ثريا، فمن يعرف كيف سيكون مصيرنا في الوطن، لكن كان أملنا كبيرا في «السوخنوت» وفي همة ابن غوريون وجيشنا المظفر.. غدا سيكون «داني» ويصبح ضابطا في الجيش وغدا ستكبر «سيما» وستتعلم، وأم يعقوب ستقطع البلاد عرضا وطولا، تأكل ما تشتهي وهي تحب الأكل، وتلبس ما تحب، وهي تحب أن تظهر أنيقة جميلة صبية لتجذبني إليها، ومن يعرف في أي اتجاه تبصبص عيناها.

النزول عند شاطئ الأمان كان في وضح النهار.

قلت للضابط المسؤول: لدينا شعور بأننا لاجئون.. هذا القارب الذي كادت الأمواج تحطمه.. وكانت الريح تبعث به.. وهذه الأمتعة المكومة والتي يجلس عليها أولادنا.. وهذه العيون التي تتطلع إلى الجبال لا تدرك شيئا.. كلها توحي بأننا لاجئون.. وستخفف عنا هذه المشاعر لو أنك تطلب من رجالك أن ينقلوا الأمتعة..

قبل الضابط الفكرة.. وقال لنا أنزلوا. فنزلنا. وتجمعنا في ساحة فسيحة. بعد حوالي نصف ساعة طلب أن نرافقه، فرافقناه. ودخلنا قاعة كبيرة. ثم حضرت فتاة جميلة وقدمت لنا باقات الزهور. وقيل لنا: أدخلوا هذه الغرفة. فدخلنا وكان في استقبالنا موظف كبير. تكلم باللغة العبرية. وترجم أحد الضباط. وفهمنا أن علينا في هذه الغرفة أن ننفض عنا غبار ألفي سنة من الهجرة والمنافي، وابتداء من هذا اليوم سنصبح أسعد أهل الدنيا.. ففرحنا. وكأن الضابط أمرنا بأن نفرح وأمرنا بأن نكون سعداء.

سكنا

قلت لهم: أنا تاجر. وأحب مهنتي. سمعت أن بلادنا هي بلاد الإمكانات غير المحدودة. ولن أختار من خيرات البلاد سوى أن أعمل في التجارة. فهلا منحتموني مبلغا من المال اشتري بضاعة. أبيعها بأسعار معقولة ومعاملة ممتازة. وأربح منها. وتربحون. ونعيش في سعادة لم نشهدها من قبل.

قال لي الموظف، إنني متواضع. وغنني غالي وطلبي رخيص. ونقلونا إلى أحد الأحياء القديمة في تل أبيب.. سكنا في بيت مؤلف من ثلاث غرف، قلنا نخصص غرفة لسيما فهي أصبحت صبية وهي بطبيعتها تميل إلى العزلة وتحب المطالعة وسماع الأغاني الشرقية/ وغرفة لداني ويعقوب، وغرفة نوم لي ولأم يعقوب. ونجعل «الهول» صالة للضيوف، صغيرة لكنها جميلة، ففي بلادنا، يغلب الطابع الغربي على الناس... يتصل بنا الضيوف ونحدد موعد الزيارة سوية. يأتي الرجل وزوجته وإذا رغب في إحضار أحد أولاده أو كنته معه، يسألنا إن كنا لا نمانع في ذلك.

على بعد خمسين مترا فقط انشأنا حانوتا لبيع الخضار. في سوق الكرمل الذي بغص الآلاف. قيل لي بإمكاني أن أربح مئات الليرات يوميا، وعندما يتوفر المال نشتري بيتا أكبر وأوسع، ويكبر الحانوت. ولكن يا افندم منذ خريف 1956 ونحن نعيش في البيت المؤلف من ثلاث غرف وأنا أقف خلف «البسطة» في سوق الكرمل أصيح من الصباح حتى المساء:

- «افرسكيم» بليرة.. «ديليشز».. «دلسشيز» تفاح «غراند».. يرتفع صوتي.. كلما وقعت عيني على امرأة تحمل سلا من «البلاستيك» وتبحث عن الأرخص.. واضطر يا افندم أن أكون رخيصا في وطننا لأرضي هذه المرأة ولا يهمني إن كانت جميلة أو قبيحة وجهها منقر مثل «كرتون» البيض المكوم على «بسطة» جاري.

دفعت

في أحد الأيام سمعت طرقات على الباب، في ساعة متأخرة من الليل، سألت: مين يا أفندم، فلم يجب أحد، دب الرعب في صدري، واستيقظت زوجتي وسألتني مع مَنْ أتكلم، فقلت لها، فدب الرعب في صدرها.. توقفت الطرقات هنيهة ثم أخذ الباب يهتز بعنف، لم يكن أحد غيرنا في البيت، يعقوب تزوج ويسكن في كيبوتس، وداني أنهي خدمته العسكرية ويسكن في مستوطنة قرب نابلس، وسيما في الجيش وتخدم بعيدا عنا في سيناء.. ظل الباب يهتز بعنف، حاولنا الاتصال بالشرطة لكن الهاتف كان معطلا، ظل الباب يهتز وأن أصيح «مين» ولا أسمع أي جواب، لم يكن هناك مخرج آخر، قلت: فيّ وفي عداك يا رب، افتح الباب، وليكن ما يكون، أما قاتل او مقتول، فنحن نعيش في حي تكثر فيه الجرائم والسرقات. تقدمت نحو الباب وامتدت يدي غلى المفتاح، وببطء وبهدوء فتحت. فدفع الباب وكاد يصطدم في وجهي ويلقيني قتيلا على الأرض أتعفر بدمي.. ودخل ثلاثة شبان، كانوا مقنعين. أحدهم يحمل مسدسا، انتصبوا أمامي وأغلقوا الباب، لم تحملني قدماي، سقطت على الأرض، صرخت زوجتي فتقدم منها أحدهم وقال لها: إذا ارتفع صوتك فسنخرسك في ثوان. وانخرست. أمرني الشاب الذي يحمل المسدس بأن أقف. فوقفت. قال لي: يا أبو يعقوب أنت تدفع جميع الضرائب للحكومة والبلدية.. هناك ضريبة هامة لا تدفعها.. لماذا؟

سألتهم: من أنتم؟ فقالوا لي: نحن نحافظ على السوق. أكثر من حكومتك التي تمتص عرق جبينك. كل ما نريده منك أن تدفع أسبوعيا ضريبة متواضعة «لحكومتنا».. وإلا.. والآن أعطنا شيئا على الحساب.. سنأتي كل شهر ونجمع الضريبة. فهمت؟

لم يعد أمامي إلا أن افهم ما يقولون.. فناولتهم ألفي ليرة.

كانوا مؤدبين جدا.. شكرتهم على هذه المعاملة الطيبة وقلت في نفسي على الأقل هؤلاء اللصوص مهذبون.. ومنذ ذلك الحين وأنا أدفع أسبوعيا ضريبة باهظة لهؤلاء.. حدثت بذلك أصدقائي فقالوا لي أن الضريبة التي أدفعها لهم حلال أكثر من الضريبة التي أدفعها للحكومة.. ومنذ تلك الأيام لا أدفع شيئا إلى حين يطلب مني.

سيما

أنهت الخدمة العسكرية مستفيدة رابحة حيث تعلمت اللغة العبرية وتزوجت ابن حلال «اشكنازي». وانتقلت إلى القدس حيث تسكن في أحد الأحياء الجميلة شرقي المدينة.

كان ذلك ليلة من ليالي الخريف.

سيما في منزلها وعقارب الساعة تشير إلى انتصاف الليل. وهي ساهرة تفكر بزوجها الغائب في مكان ما ، وفي طفلها الصغير الذي ألح عليها أن تعلمه اللغة المصرية بعد أن شاهد «الريس» على شاشة التلفزيون، وكانت تفكر بموضة جديدة لقصة شعر جديدة.. تكتب عنها الصحف وتجذب بنات الذوات وزوجات الوزراء..

طرقوا الباب.. كان عاديا أن يطرق بابها في ساعات الليل فتدخل فتاة وزوجها تلح على قص شعرها لتظهر في حفلة كوكتيل أو في سهرة بوهيمية تمتد حتى إنبلاج الفجر.. لكن أن يطرق الباب في مثل هذه الساعة فهو أمر غريب..

- مين عالباب؟

- افتحي، زوجتي جاءت لتقص شعرها. نرجو المعذرة لتأخرنا. فإننا مضطرون إلى ذلك غدا صباحا سنسافر.. نحن مضطرون.

فتحت سيما الباب. فقد كان الطارق على الباب مؤدبا هادئا تماما لا يثير الرعب ولا يثير الشك. لكن يديها ارتجفتا وكأن في داخلها هاجسا يخبرها بأن ما أثار مخاوفها منذ سنوات يتحقق في لحظة من لحظات الهدوء والحلم والطمأنينة..

أدارت المفتاح بعكس اتجاه عقارب الساعة.. اندفع الباب وكاد يصطدم بوجهها ويلقيها على الأرض تتعفر بدمها.. دخل رجل.. دخل آخر.. دخل آخر.. دخل آخر.. دخل آخر.. دخل آخر.. دخل آخر.. ولم تكن بينهم أية امرأة..

أغلقوا الباب وأداروا المفتاح باتجاه عقارب الساعة.. أمسك بزراعها أحدهم واقتداها إلى غرفة النوم.. حاولت أن تقاوم لكنها لم تصمد أمام هذا النوع من رجال «الكوماندو».. حاولت أن تصرخ فأطبق على فمها.. أمرها أن تخلع ثيابها.. حاولت أن تقاوم ولم تصمد.. ولم يستيقظ طفلها في تلك الساعة الحرجة.. ولم يحضر زوجها ولم تنتقل إلى السفينة التي يرفرف عليها العلم الإيطالي.. وتناوب الرجل.. الأول.. والثاني.. والثالث حتى السابع.. ظلت ملقية على السرير.. وظلت حشرجة مخنوقة تنتقل من غرفة إلى غرفة..

(15 أيار 1978)

حكاية لم تنته بعد

مجرد رقم...!

أذكر من طفولتي أنى كنت أحب مشاهدة الأفلام السينمائية، بقدر ما أستطع توفيره من مصروف ذلك الأسبوع. والأفلام التي كانت تعرض ونحب مشاهدتها هي أفلام الكاو بوي والحروب. وعندما كنت أعود إلى البيت تراودني أفكار تقلق منامي حتى ساعة متأخرة من الليل.

كيف يقتل الإنسان بهذه الأشكال ولأتفه الأسباب؟ ترى بطل الفيلم الأمريكي الطويل، يدخل إلى مقهى يغص بشاربي النبيذ، ولاعبي الورق، يسحب مسدسه ويطلق الرصاص، يقتل واحد، خمسة، تعدهم واحدا، واحدا، مع كل رصاصة، بعد ذلك تتوقف من العد لأن جماعة البطل يدخلون المقهى ويقتلون الناس بالجملة، وتعد: عشرة، عشرين أربعين.. وتكرر عملية القتل أكثر من مرة وفي أكثر من فيلم.

وهكذا في أفلام القتل الجماعي من صنف «الجينوسايد» الأمريكي، وهي أفلام المستعمرين والذين جاءوا ليبنوا الحضارة الامريكية على أنقاض الهنود الحمر. وكل أبيض يركب حصانا، ويضع على رأسه طاقية الكاو بوي وعلى خاصرتيه يتراقص مسدسان، وفي يده يحمل البندقية الإنجليزية الصنع، رمز الحضارة الجديدة، فيجتمعون ويضعون خطة ذكية وعبقرية، ليهجموا على قبيلة الهنود الحمر ممن «تنبعث جلبتهم كنباح الكلاب»؟، وعلى رؤوسهم الريش، ويعبدون النار، وزعيم القبيلة الذي يقدم له الرجال نسائهم، هكذا لوجه الله، ويطلق البطل رصاصة في الهواء فتتقدم مجموعة الفرسان ويحرقون القبيلة، وأنت تعد: قتل واحد، اثنان، خمسة، وتتوقف عن العد حين تصل إلى

المشهد «الأبيض الانساني» الذي يقتحم النار المشتعلة بالخيمة، وينقذ طفلا هنديا أحمر لم يبلغ سنة.. أو سنتين من عمره...

مدارس

من يعرف أين يعيش أولئك الذين أطلقوا النار في كفر قاسم وماذا يفعلون اليوم؟ ولا يهم ماذا يفكرون.

كل الدلائل تشير إلى أنهم ما زالوا على قيد الحياة، وأنهم يتنقلون بحرية. يدفعون ثمن التذكرة، وبخطى بطيئة يتقدمون ليختاروا المقعد المريح، ربما أن أحدهم يعمل مدرسا في إحدى مدارس بيتاح تكفا مثلا، يدق الجرس في الساعة الثامنة يهرول هذا المعلم وهو يحمل حقيبة من الجلد، يدخل الصف يقرأ أسماء الطلاب، ويبدأ بالدرس، قد يكون درسا في الرياضيات 1+1=2 معادلة ثابتة لا تتغير لا في إسرائيل ولا في ألمانيا، ولا في أمريكا، لا في عصرنا ولا في العصور الوسطى. الإنسان القديم عندما كان يجمع عنزته النحيلة، كان يدرك أن لديه عنزتين. مجرد حقيقة علمية قد يعود إليها معلمنا الذي يدرس في بيتاح تكفا مثلا، ولا يتذكر الجثث التي عدها في كفر قاسم قبل حوالي ثلاثين عاما. كأنها عصور بعيدة مضت وتطايرت مع الذاكرة.

من سيعيد هذه الوقائع إلى الذاكرة؟ فيتوقف هذا المعلم عن تدريس الرياضات، قد لا تدخل هذه «الفنطزية» في دروس الرياضيات ولا الأدب العبري المعاصر، وقد لا يذكرها أحد، وهناك من يريدها أن تبقى طي الكتمان.

نحن نكتب عنها ونعيدها إلى الأذهان وهذا المعلم يعد عنزات الإنسان القديم النحيلة والسمينة، ويريد طلابه أن يكونوا مثقفين ومتحضرين

ومتنورين، يطلعهم على النظريات الجميلة. وعندما يبلغ أحدهم الثامنة عشر يحملونه الرشاش الاوتوماتيك، ويأمرونه بأن يطلق الرصاص على الثقافة والحضارة والنظريات الجميلة، ويسأل لماذا؟ يجيب بمنتهى البساطة تلقيت الأوامر، ولما يسأل صاحب الأمر لماذا؟ يجيب بمنتهى البساطة هذه نظرية «أن تكون أو أن لا تكون»!

ناطرين غودو .. ناطرين

جريء المسرح البلدي في حيفا.

والجرأة شيء نسبي في هذا الوطن. لكن حين تشاهد مسرحية بيكيت عن عبث الإنتظار في وادي الصليب، تصبح النسبية عبثية أيضا، وعبث الحياة يصبح واقعا، وتختلط الأمور ببعضها البعض، وأنت تجلس في قاعة ليست كبيرة نسبيا، وليست صغيرة نسبيا، في مكان ما في حيفا، كان يمكن أن يهدم بجرة قلم ترد في بروتوكولات البلدية، مثلما هدم العشرات والمئات من المباني، لكن كان هناك من دأب على ترجمة الآثار والمعالم، أحيانا مع المحافظة على الأصل وتغيير الاسم، كترجمة شارع الملوك إلى شارع الإستقلال، وفي أحيان أخرى يترجم المعلم ويترجم الاسم، كما حدث لجامع في يافا، إذ أصبح ديسكو تيك، وتطلق عليه أسماء شتى، وما حدث في وادي الصليب في حمام الباشا.

السبت مساء، نسمة باردة من البحر، دفعتها الأمواج مباشرة إلى وجوهنا، فكانت صفعة جعلتنا نسرع الى مدخل المسرح، بعد أن قطعنا تأملاتنا بالمبنى الحجري. حمام الباشا معلم عربي من معالم المدينة ينتصب في ساحة كانت تغطيها البنايات الحجرية، ولم يبق منها أثر، إلى الجانب الآخر للشارع العريض ترتفع عمارات الشركات، وأضواء كاشفة

تسقط على العمارة، فتبرز أحرف اليافطة التي تشير إلى الرجم، واليافطات التي توجهك نحو المدخل. وأكثر ما يبرز ظلال الجدران التي وصلت إليها شفرة الجرافة، وتوقفت أما عاجزة عن تحطيمها، وأما بقرار ورد في البروتوكولات لأن يبقى ولو هذا الأثر.

حين لا يسعفك الحظ أن تكون ناقدا مسرحيا، وأنا واحد من أولئك اللامحظوظين، وتدعى لحضور مسرحية، يأخذك جهلك في الفن إلى ما هو أبعد من مراقبة الحوار والديكور والإضاءة، وحركات الممثلين، وعلى الرغم من أنني ذهبت لأشاهد مسرحية تعتبر عالمية، ولكاتب عالمي، دفعني عجزي وجهلي في آن واحد، لأن أبحث عما هو خارج أفكار بيكيت، ولم يرد لى لسان الممثلين مكرم خوري، ويوسف أبو وردة، أو زميليهما الإسرائيليين، وجميعهم كانوا بارعين لدرجة ان من هم أكثر مني فهما واطلاعا ودراسة وتخصصا، عجوزا عن التعبير عن إعجابهم وتقديرهم لهذا الطاقم، الذي قدم أفضل وأرقى الأعمال المسرحية في هذه البلاد.

وأطفئت الأنوار في القاعة، وانتظرنا دقائق معدودة إلى أن دخل الممثلان، رجلان يلبسان ثيابا رثة بالية. يمضيان الوقت في انتظار شيء ما، ينتظران غودو ليخلصهما من هذا الجحيم. أحدهم يفقد الأمل في لحظات يأس قاسية. والثاني مسؤوليته أن يعيد الأمل إلى قلبه. مثلما أورقت الشجرة اليابسة. بين فقدان الأمل وتجدده في انتظار لا شيء، مخلص وهمي، يواصلان الحياة ويتخلصان من فكرة الانتحار، بعد أن التقيا بإنسان يعاني أكثر منهما، يعاني من الانسحاق والتعذيب والإهانة ولكنه معبأ فكريا، وهذا ما يمنحه القدرة على احتمال واقعه وعلى مواصلة الحياة.

ما أقسى أن يحكى عن الانتظار في هذه القاعة التي تشتعل فيها الأضواء

وتخبو، منذ سبع وثلاثين سنة وهي تنتظر، كان الإنتظار قاتلا، كانت الطبيعة تأكل منها وكانت الجرافات تأكل منها. وهي في انتظار غودو المخلص. من يعرف كيف كان حمام الباشا قبل أن تبدأ مرحلة الانتظار؟ كان هناك حمام حقيقي، وكان بيت لصاحبه وكانت الناس تدخله صباح مساء والباشا باشا، وهرج ومرج، وسوق الشوام الكبيرة تمتد من ساحة الخناطير، ومن يجوب فيها مخترقا دخان القهوة المتصاعد من المحامص ومتنشقا روائح البهارات التي تعبق بها الدهاليز، يبدو له أن لا نهاية لهذا السوق مثلما أن لا نهاية لهذا العمر.

لم أستطع متابعة كل أحداث المسرحية، لأنني كنت أشرد بخيالي مع أولئك الذين شردوا وهم ناطرين، نحن نجلس بمتعة في القاعة، نشاهد عبث الأقدار، وعبث الإنتظار، وهم يمزقهم العبث، بين لحظات الأمل المشرقة ولحظات اليأس القاتمة التي تنتابهم. تطفأ الأنوار أحيانا وتشعل في أحيان أخرى، وينتظرون ذلك اليوم الذي يأتي فيه خلاصهم بعودتهم إلى الحمام.

الممثلان يواصلان الانتظار ونحن نغادر القاعة بإعجاب وبحزن، لتخليد هذا المسرح الجريء، ويحزنا الألم حين ننظر إلى وادي الصليب، بيوت مهجورة، زقاقات معتمة تنتظر بأسى وبألم، الإنتظار مرة أخرى، الموت والحياة، حكايتنا عن الموت كتبنا نهايتها، وكتبها بيكيت، وكتبها هؤلاء البعيدون عن وادي الصليب ولكن عن الحياة فقد كتبنا حكاية.

لكنها لم تنته بعد..

2 شباط 1985

سحماتا وهلم جرا

كثيرة هي الكلمات التي لا تقرأ إلا بأحرف كبيرة، أو أن كتبت بأحرف صغيرة، فلا يقبل مضمونها إلا بالحجم الكبير، مثل كلمة الدم والمجزرة والمذبحة والقتل والعدوان، وكلها تدخل في قواميس الوحشية، والوحشية لا تقبل إلا بحجم كبير.

من الضروري أن تكون لكل كلمة دلالتها، والأمر البديهي أن تشحن كل كلمة بمضمون يترك وقعا في النفس، ويستنفر إذا اقتضت الضرورة الإستنفار، ويهدئ الخواطر إذا اقتضت الحاجة ذلك، وقلما يتغير مضمون الكلمة، لكن ما يحدث أن يتغير مشحونها بدافع العادة او الإبتذال أو الإنتحال أو التشويه والتزييف.

ما يدفعني إلى الكتابة عن هذه الكلمات، وبالأساس الكلمات القاسية، هو ما اكتشفه من حقائق رهيبة عن فترة رهيبة من تاريخ شعبنا الفلسطيني، نكبة العام 1948 حين شرد هذا الشعب، ولم يكن بالامكان أن يشرد لولا وقوع المجازر في كل قرية ومدينة فلسطينية.

أنتمي إلى الجيل الذي ولد بعد النكبة بعام واحد، وقد كبرت على حكايا والدي وجدي، عن سقوط حيفا وأم الزينات وعين حوض، وخربة أبو حرب وخربة أبو عيطا وخبيزة، وهي القرى المجاورة لبلدنا دالية الكرمل، وهي القرى التي جعل أهلها من قريتنا محطة أولى في الرحيل الطويل الذي قطعوه إلى الموت والشتات.

وحين بدأت أدرك التاريخ القريب أصبح شكل النكبة يبدو أكثر وضوحا وأشد إيلاما، كنت أسمع أن مجزرة ارتكبت وكان الحديث عن دير ياسين فقط، وكثيرا ما كنت اسأل وأتساءل وقعت مجزرة في

دير ياسين، فلماذا شرد أهل الصفصاف والكويكات وسحماتا وهوشة والكساير ورأيتني قبل أن ابدأ بمراجعة التاريخ القريب والذاكرة الحية بدأت ابحث في قواميس اللغة عن معنى المجزرة والمذبحة وسفك الدماء. من قال أن شرط المذبحة أن يكون ضحاياها العشرات والمئات أو النساء والأطفال. ومن قال أن سفك الدم هو أن يصل إلى «الركب» وأن تجري الجداول والأنهار القانية؟

يعرف القاصي والداني في دير ياسين وقعت مجزرة رهيبة، ولكن قليلون هم الذين يعرفون أن في سحماتا وقعت أيضا مجزرة رهيبة لم يقتل العشرات أو المئات ولكن قتل هناك شيخ في الستينيات، اسمه خليل سلوم، وقتل خليل عبود، وزوجة الشيخ فتح، وزوجة أسعد النمر، امرأة في الأربعينيات سقطت عليها القذيفة فمزقتها، وأبو السالم من دار قدورة كان عمره 24 سنة أطلقوا عليه الرصاص أمام ناظري والده، ومصطفى العلي كان في الأربعينيات وعنده 4 أولاد أطلق عليه الرصاص، وهو في الحاكورة وقتلوه، وهكذا حسن موسى وعطا الله محمد صالحة، ومحمد عبد الرحمن وعبد الوهاب دردشلي، وفوزي قاسم موسى، هؤلاء قتلوهم في سحماتا عام النكبة، وحين تذكر النكبة قليلا ما تذكر مجزرة سحماتا، أو مجزرة خبيزة، ولا مجزرة مرج ابن عامر، التي كانت أشد المجازر فظاعة ووحشية، وضحاياها جميعهم من الشيوخ والنساء، 13 إنسانا القوا بهم أحياء في مستنقع مرج ابن عامر في كانون الثاني غرقوا في الماء والوحل.

حين بدأت أدرك أسرار النكبة أبحث عن الذاكرة الفلسطينية، عن أولئك الذين نجوا من الموت لكنهم ما زالوا يحملون التجربة والمعاناة، والعودة إلى أولئك لسنا بحاجة إليها لمجرد استعادة ذكريات، ولفتح

الجراح والبكاء على ما مضى، بل لنتعلم من التجربة، تجربة أولئك الذين ما زالوا يحملون العذاب والمعاناة، ويأبون إلا أن يواصلوا الحياة.

ونعود إلى ذلك المسلسل الرهيب، لكي يبقى للكلمة مدلولها ومشحونها، فأن يقتل العشرات والمئات هذه مجزرة، وأن يقتل طفل واحد هذه مجزرة، وأن يجري نهر من الدم فهذه جريمة وأن تسيل نقطة واحدة من دم بريء، هي كذلك جريمة، لأن دم الإنسان لا يقاس باللترات ولا بالبراميل. إننا نعود لهذا المسلسل لإبراز القاعدة، وليس الإستثناء فدير ياسين بنظر الصهيونية هي استثناء، أو كما يسمونها ظاهرة شاذة، حتى أن بن غوريون دانها واستنكرها، ووصف سفاحها بالنازية، واعتبرها خروجا عن القاعدة.

ولكن الحقيقة أنها حلقة من مسلسل فظيع ورهيب، كان بن غوريون على رأس مخططيه ومدبريه، وما استنكاره لهذه الجريمة سوى محاولة لصرف النظر عن جرائمه هو التي لا تقل بشاعة، وحين نبرز القاعدة، نوضح الدوافع لارتكاب الجريمة وأهدافها، فتشحن النكبة بكل مضامينها المأساوية في الممارسة والتخطيط على حد سواء، وتكون درسا من التاريخ لا مجرد «أجا التاريخ ضربنا كف». خطر لي أن أكتب عن هذا الموضوع بعد أن عدت لأسجل وقائع مسلسل الجرائم الرهيب، الذي بدأ في عام النكبة، ولفت انتباهي أنني كلما قابلت شيخا مشقق الوجه يحمل هذا التاريخ في ذاكرته، واطلب منه أن يحكي ما حدث، أول ما يصدر عنه بعد لحظة صمت وتأمل أن يقول بحزن لكن بغضب، «اللي صار معنا ما صار مع حدا في الدنيا واللي عملوه في بلدنا ما عملوه في أي بلد تاني»، وإذا كان من أهالي دير ياسين أو أهالي الصفصاف أو عيلبون أو أم الزينات أو عيلوط أو سحماتا فهكذا يبدأ حديثه، ثم يتكلم بهدوء عن التفاصيل، إنه يشحن الكلمة ويعبئها بمضامينها،

إذا تحدث عن مجزرة قتل فيها طفل واحد أو مئات الأطفال والنساء والشيوخ، كل منهم يتصور أن ما حدث له لم يحدث لأحد غيره ولا تملك في هذه اللحظة إلا أن تنقل كلماته بحجمها الطبيعي لأنك تعرف أنك تنقل حكاية أقسى ما فيها أنها لم تنته بعد.

26 كانون الثاني 1985

خمارة البلد

رابعة

تناول النقود فتضاعف حماسي. أعاد (الكمالة) فانفجرت وتحدثنا عن الجمعية.

كانت لحظة طفر لم أشهد مثلها من قبل. كنت أتصور أن كل شيء ينهار أمام ناظري. وأن هزة أرضية تحرك الجبال والصخور. العمارات الشاهقة تتراقص. والسماء تمطر سائلا يشبه البترول الأسود. وأنا لا أحمل مظلة وقرف الدنيا يتساقط علي، وحدي، والناس من حولي يرقصون ويغنون وينظرون إلي كأنني مخلوق عجيب، أو كأن رقعة قميصي قد انفرطت وظهر شيء من لحمي أو انفتح جرار ما وظهر شيء من لحمي. رأيتهم يضحكون أحيانا لكنهم يشفقون، كأنهم يقولون: شحاذ مسكين هبطت على رأسه كل مصائب العالم.

قلت: يا ولد. الدنيا يسر وعسر. كن شجاعا وتحمل.

تحملت كل شيء. لكن أن تصل بي الحالة إلى درجة أنني لم أستطع في ذلك اليوم شراء خمسة أرغفة من الخبز وكيسين من الحليب. فهذا وضع لا يحتمل. لقد هربت في ذلك اليوم. قلت لزوجتي المسكينة «دبري حالك». وخرجت من البيت. أحمل في جيبي شاقلا ونصف أجرة الطريق إلى حيفا ومشيت في الشارع مثل السكران. لم أقل لأحد كعادتي، صباح الخير. طأطأت رأسي. ومشيت إلى المحطة. وركبت. كنت الراكب الأول في سيارة التاكسي. شعرت بارتياح لأنني لن أحرج من صديق يجلس إلى جانبي، وتدفعني الحمية لأدفع عنه، خصوصا إذا كان سبقني إلى هذا الفضل ودفع عني في سفرة سابقة. كان السائق خلف المقود وينتظر أن

يكتمل العدد. انتهزت الفرصة وبدأت اخرج «الفراطة» من جيبي لأناوله بسرعة قبل أن يأتي أحد. ولكن قبل أن أكمل العملية فتح السائق الباب وخرج. وبقيت وحدي والنقود في يدي. وتطاير شعوري بالارتياح وحل محله شعور بالحرج ودعاء من الأعماق ألا يركب أحد من أصدقائي: وصلت امرأتان. دخلتا. «صباح الخير! صباح النور. الحمد للّه». بقي أربعة ركاب. دخل رجل، صديق ولكنني لست مدينا له. «كيف الحال؟» بقي ثلاثة ركاب. «لو أن السائق يجلس في مكانه». لكنه كان يثرثر مع زملائه خارج السيارة وكلما وصل راكب ألقى نظرة. ثم يواصل الثرثرة.

يوم نحس منذ فتحت عيني وحتى تلك اللحظة. وصل صديق عزيز ومعه زوجته ووالدته. ثلاثة، امتلأت السيارة. واحتل حضرة جناب السائق مقعده خلف المقود. «صباح الخير! صباح النور!» سلمت على الصديق بحرارة. وعلى زوجته وأمه. (خير انشاء اللّه). تحركت السيارة.

فتحت حقيبتي وتظاهرت بالبحث عن النقود. وصرت أخشخش «بالفراطة». فمد هو يده وضغط على يدي ليوقف عملية البحث البائسة. وبيده الأخرى سحب ورقة الخمسين شاقل. وقدمها للسائق وقال: «أربعة إلى حيفا». «لأ يا زلمة. أنت مفضل!» قلت لكن ليس بكثير من الحماس ولما مدّ السائق يده وتناول النقود تضاعف حماسي: «واللّه ما بصير! خليها علينا! ولا أعرف كيف «انعمى عقلبي» ساعتها وقلت: «يمكن ما معه كمالة الخمسين. معي فراطة!». وصدق السائق وقال: «بيكون أحسن!» وشعرت كأن سطلا من الماء المثلج قد انسكب عليّ. ولما حاول ان يعيد ورقة الخمسين، رفض الصديق العزيز. وأصر أن يدفع. وهو يقسم أغلظ الأيمان بحيات أولاده والأنبياء وباللّه. «اصرف من محطة البنزين». أمر السائق وأنا لم أشعر بالارتياح الكلي إلا بعد أن شاهدت أم عيني، سائق التاكسي يعيد له الكمالة. فانفرجت. وواصلت الحديث مع الصديق عن

شؤون جمعيتنا:

في ذلك اليوم، قررت لأول مرة في حياتي أن أشتري ورقة يانصيب!

أشبعتها «حكي» ونمت ونمنا وكأن خلاصنا يأتي غدا أو بعد غد.

ليس سرا إني ابلغ الرابعة والخمسين. أب لخمسة أولاد. والأحوال الشخصية: غير مطلق حتى الآن. أعمل موظفا في جمعية أنصار الفقير منذ خمس وعشرين سنة. طويل القامة، منتفخ الكرش (من الهم وليس من الأكل) تخفي همومي الإبتسامة الساخرة المرتسمة على محياي. لكن تفضحني الصلعة اللماعة وبياض الشيب الذي يغزو قفا رأسي وطرف شواربي. وأما المهنة فهي النضال المثابر والعنيد من أجل انقاذ الفقراء وقد ورثت الفقر عن والدي، رحمه الله، ومنه أيضا ورثت عضويتي في الجمعية.

حين احترفت النضال قبل ربع قرن، بتضحيات لا تعرف الحدود وبمعاش من الجمعية لا يكفي لشراء قوت الأولاد، حينها تزوجت «رابعة»، وهي فقيرة بنت فقراء، لم تتعلم لكنها ذكية مثلما أنني لم أتعلم ولكن الجميع يجمعون على أنني «انتلجنت». قلت لها قبل أن نقرر يوم الخطوبة: «أنا عامل، فقير ابن فقير، ويقترحون على العمل في الجمعية بمعاش زهيد، لا أملك شيئا سوى إيماني بعدالة قضية الفقراء. وصحة جيدة. ونفس طويل للعمل. فإن كنت تطمحين بمال أو بملك فليكن نصيبك عند غيري.»

«اللّه يسهل عليكي يا رابعة!»

كانت إنسانة طيبة وبسيطة وبنت حلال.

لم تكن ابنة فقيرة فقط، بل كانت ابنة الفقر بنفسه. تحب البساطة

والتواضع. قنوعة، لم ترفع صوتها يوما واحدا ولم تيأس حتى في الأيام الحالكة عندما لم نجد القوت لسد الرمق. عشنا سوية أكثر من ربع قرن. في غرفة ضيقة مع خمسة أولاد. وكنا سعداء. في سنوات عديدة كانت تخرج إلى العمل. تنظف البيوت. وتعود سعيدة. لم تكن نشيطة في الجمعية ولكن عندما كنت أقول لها: ستنظم الجمعية مظاهرة، كانت تترك كل شيء، وترفض إلا أن تكون على رأس المتظاهرين. تحمل شعارا، صار يعرف فيما بعد: «شعار رابعة» لأنها تصر على حمله في كل مظاهرة واجتماع وهو أكبر شعار رفعته الجمعية.

عندما كان الناس يقولون لها: كيف ستحررون الفقراء وأنتم أفقر ناس. كانت تسخر منهم. وترد الصاع صاعين. ثم تنهي النقاش بجملة جادة تقتبسها عني خصوصا ما كنت أردده دائما: «نحن كالشمعة نحترق من أجل الآخرين». وفي إحدى المرات عندما قال لها أخي الميسور الحال: «أي طز». جاءت الي تذرف دموعها وتشهق من الإهانة. وقد قالتها مرة واحدة: «لماذا نضحك على أنفسنا. ألسنا فقراء لتتصرنا جمعيتك. شوف شغل ثاني واربح مصاري. الشطارة تكون غني وتنصر الفقير. مش أفقر واحد وتنصره بطق الحنك».

يومها أدركت ان الأمور وصلت معها إلى حد لم يعد يطاق. فجندت كل ما أملك من «انتلجنسيا» وبدأت أشرح لها.

«اللّه يسهل عليك يا رابعة».

كانت طيبة وبسيطة وفي تلك الليلة أشبعتها حكي ونامت ونمنا على يقين بأن الثورة آتية لا محالة. وإن لم يكن خلاصنا غدا، فبعد غد.

ولم أكن أتصور يومها أن رقم ورقة اليانصيب بقيمة المئة ألف دولار سيكون يوما ما من نصيبي!

القطروز

الضحك بلا سبب من قلّة الأدب.

ويأمرنا أن ننصرف إلى العمل لأن البلد في أعناقنا

منذ عشر سنوات وأنا اتساءل: لماذا يأمرونني أن ابدأ عملي في الساعة السابعة صباحا وأنهيه في الرابعة، بينما لا يصل أحد منهم قبل الثامنة وفي الثالثة بعد الظهر تصبح بناية المجلس كأنها مقبرة ولا أحد غيري يتحرك ويتنقل بين الغرف، أجمع فناجين الشاي والقهوة والصحون الملطخة وأنظفها قبل أن أعود إلى البيت.

اليوم، على غير عادة، وصل الرئيس في السابعة والنصف، كنت أعد القهوة في الزاوية الصغيرة والضيقة الواقعة قرب مدخل البناية الضخمة. قال لي:

- صباح الخير يا أحمد.
- صباح النور يا حضرة الرئيس.

كان يبتسم، على غير عادة، وقد اختفت الملامح الجدية «الناشفة» عن وجهه واستبدلها بإشراقة رفعت معنوياتي فشعرت بغبطة لم أشعر بها من قبل حين أستفتح بحضرة الرئيس لأن يومه يبدأ معي عادة بملاحظة: لماذا تأخرت؟ ولماذا تضيع الوقت مع الموظفين! ولماذا رفضت أن تقدم القهوة لمدير قسم المياه؟ وإلى غير ذلك من الملاحظات التافهة لكنها تعكّر صفو يومي وتثير أعصابي وتطير «ضبان» عقلي.

قلت: الرئيس اليوم مزهزة. لكني لم أجرؤ على الإستفسار عن سر فرحه كما أفعل مع الموظفين حيث أسأل المتزوجين منهم: كيف قضيت ليلتك.

أجب بنعم أو لا. وصاروا يحبون أسئلتي وهذا الإستفتاح. فعندما يرونني يسألونني: كيف قضيت ليلتك؟ وهكذا نبدأ اليوم وننهيه بجو من المرح والمزاج الذي لولاه لما صمدت يوما واحدا في عملي.

قال لي الرئيس: أحضر فنجان قهوة وسأرقيك اليوم بدرجة!

فرحت وأحضرت للرئيس خمسة فناجين. ضحك. وهذه أول مرة أشاهده وهو يضحك. فسألني: لماذا خمسة فناجين يا عبيط!

قلت وضحكت: أستحق خمس درجات. كل فنجان بدرجة.

وكالعادة قطب جبينه، فرئيس مجلسنا عدو لدود للضحك والمرح.

ويقول لنا: الضحك بلا سبب من قلة الأدب. وعندما نضحك لأسباب وجيهة تجعل الكراسي أحيانا تضحك، ينفي هذه الأسباب ويظل قاطباً جبينه ويأمرنا بأن ننصرف إلى العمل وأن نكون جديين لأن مصير القرية معلق في أعناقنا. ولا يجوز أن نستهتر بمستقبل هذا البلد الذي يستحق التضحية والتفاني من أجل مستقبله النيّر ومصير الأجيال الصاعدة والواعدة التي ستحتل المراكز القيادية خلفا له بعد أن يتقاعد حين يصبح في الخامسة والسبعين من عمره أي بعد عشر سنوات وبهذا يكون قد قعد على رئاسة المجلس خمسا وثلاثين سنة أمضاها في التضحية من أجل مجتمعه وقريته ويريد أن يحضر وريثا له ليواصل المسيرة وتعبيد الطرق وإقامة المدارس وإصلاح ذات البين والنضال الدؤوب من أجل الحرية والسلام العادل والمساواة بين أبناء البشر وكان الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

هكذا كان يلخص لنا حضرة الرئيس نظرياته حين يعلن: اليوم اجتماع هام يجب أن يحضره جميع الموظفين من البواب (أي أنا) وحتى القائم بأعمال الرئيس فنجتمع في القاعة الكبرى وهو «يفقعنا» خطابا من قاع الدست عن إنجازاته وتضحياته ويأمرنا بألا نضيع الوقت في «الحكي الفارغ» و «القهقهة» و«اللقمطة» لأننا يجب ان نكون صورة مصغرة ومشرّفة لمجتمعنا ومثالا يحتذى به. والحقيقة أننا بعد ساعة ونصف من الخطابات الرنانة ينصرف كل منا إلى غرفته وينزوي بعد أن يغلق الباب ويقهقه إلى أن يفرغ من بطنه كل ما أتخمه به سيادة الرئيس. وأما المسكين بيننا فهو سكرتير المجلس. الذي يحرم من الضحك لأن غرفته مجاورة لغرفة الرئيس فهو يبلعها إلى أن يصل البيت فيسهلها حتى تدمع عيناه.

يمشون على الريح

أغنية الصالون وأغنية الحمام...

يراودني سؤال منذ سنين طويلة ويقلقني كثيرا: لماذا يخرجون اليهود من الثقافة العربية، ومن المعنيّ بهذا؟ العرب أم اليهود أنفسهم؟

في مدرستي الإتدائية قبل أكثر من خمسين عاما كان أول شاعر تعلمت عنه وقراته في الأدب العربي، السموأل بن عاديا، وهو يهودي. ولم يكن من أهم الشعراء العرب في فترة ما قبل الإسلام وحسب، بل كان المثل الأعلى في حفظ الأمانة والوفاء: نقول: أوفى من السموأل، وهو أوفى العرب. وتعلمت فيما ما بعد أن موسى بن ميمون من أهم المفكرين العرب في العصور الوسطى وهو طبيب وفيلسوف وباحث في الفكر الديني اليهودي، وليس فقط. وأعرف منذ فتوّتي أن ليلى مراد يهودية وداوود

حسني ويعقوب صنوع وما أبدعوه يشكل موروثا حضاريا كبيرا في الحضارة العربية، فهل يمكن لأحد أن يضعهم خارج هذه الهوية؟

شغلني هذا السؤال في نهاية الثمانينات من القرن الماضي في خضم الانتفاضة الاولى عندما كانت وسائل الأعلام الإسرائيلية تقدم لنا يوميا اليهودي الإسرائيلي أسمر البشرة وذا اللكنة العربية في لغته العبرية وهو يصرخ: الموت للعرب! فلم أفهم في ذلك الوقت كيف يمكن لمن انجبته الحضارة العربية التي لم تعرف العداء لليهود ومصطلح اللاسامية ليس من مسمياتها، كيف يمكن لهذا اليهودي أن يصرخ الموت للعرب وهونفسه عربي؟ ذهبت في حينه إلى بيسان (بيت شان) لأبحث عن أجوبة من الناس الذين ظهروا على شاشات التلفزيون الإسرائيلي وغيرهم ممن كان عبأهم بالحقد بن غوريون ومناحيم بيغن والراب كهانا وكل الذين كانوا يرقصون على الدم، الدم اليهودي والدم الفلسطيني.

هناك اكتشفت أن للأنسان الحضاري أغنيتين: أغنية الصالون وأغنية الحمام. وما يغنيه الأنسان في الصالون هو لكسب ود وعطف ولفت انتباه الآخرين ولذلك يعمل على صقل أغنياته وإتقان التقليد وأما أغنية الحمام فهي الأغنية الحقيقية الصادقة التي تعبر عن إحساس هذا الإنسان ومشاعره. لقد أصغيت هناك أولا إلى أغنية الصالون وسمعت كل شعارات الأحزاب الصهيونية والحركات العنصرية ولكنني لم أعرها اهتماما لأنني أردت الوصول إلى الحمام. وعندما وصلت تبدل كل شيء، توقف الصوت الجماعي المكتسب وانطلق الصوت الفرداوي المحرر. سمعت من الذين كانوا يصيحون الموت للعرب كيف كانوا يعيشون في «كازا» (كازابلانكا- الدار البيضاء في المغرب) وسمعت رجلا مسنا يقسم: وحياة مولانا محمد الخامس! وكان صوت أم كلثوم يصدح وألحان فريد الأطرش تشكل خلفية اللقاءات العبثية التي تسمع

فيها حكايات عن حياة مشتركة في المغرب وأخرى تقول لك: «هنا نحن نخاف»، وتبحث عن مقارنة مستحيلة بين خوف اليهودي وخوف العربي.

في بيسان اكتشفت ما معنى أن تمشي على الريح بعد أن يقطعوا جذورك القومية والتراثية والوجدانية ويرموا بك في ما سماه قادة هذه الدولة «أتون الصهر». قال لي رئيس البلدية في حينه إنه تعلم في مدرسة داخلية أشكنازية في مركز البلاد وصار يخجل بأبيه الرجل البسيط الطيب بائع العطور ولما ترشح للانتخابات قال له أهل البلد: نحن نؤيدك فقط احتراما لأبيك!

في الطريق إلى بيسان التقيت رجلا مسنا انتظر على قارعة الطريق ولم يقف له أحد ليأخذه إلى بيسان، ولما دعوته للصعود إلى جانبي قال بتأثر وغضب: لم يعد يوجد يهود في هذه البلاد، أنت اليهودي الأخير. كان غاضبا أيضا على مدير البنك الأشكنازي الذي رفض أن يعطيه راتبه الشهري.

عرفت هناك الجواب على السؤال: لماذا يخرجون اليهود من الثقافة العربية؟

إن من ينظر إلى ثقافة الشرق العربية باستعلاء ويعتبرها متخلفة قياسا مع ثقافته الأوروبية الكولونيالية، يحاول أن يجرد هؤلاء اليهود العرب من هويتهم ومخزونهم الحضاري ليمارس عليهم مزيدا من الإستعلاء والتحكم بمصائرهم وتطويعهم لعقيدته العنفية.

هنا نشأ جيل يخجل بأمه وأبيه وعاداته ولغته وتراثه وثقافته وبلهجته ولباسه وأغنياته أمام هذا الغربي الحاكم الذي يحاول أن يثبت له أن لا موسيقى إلا موتسارت ولا نشيدا إلا الأوبرة ويقول له إنه أحضره من

الكهوف والبراري وان العربي عدوه التاريخي والمستقبلي كالبحر لا يتغير.

سمعت ذلك في الصالون وعندما سمعتهم في الحمام، صار كل شيء يختلف، اللهجة والنبرة وملامح الوجه وكانت تتوالى الصور الرومانسية لما كان هناك في «ملح اليهود» وفي كازا وفاس ومراكش.

من يحاكم الذين جردوا هؤلاء الناس الطيبين من ثقافتهم وانسانيتهم ليحولوهم إلى ريشة في مهب الريح، وإلى أداة لممارسة العنف والعنصرية ضد من هم أضعف منهم، وإلى عاجزين يحكمهم سلوك التطفل والاعتماد على الآخر والاكتفاء بالفتات ليحافظوا على بقائهم؟

بعد ربع قرن من لقائي في بيسان مع هؤلاء الناس من أبناء ثقافتي وحضارتي وأمتي العربية وتاريخها وحضارتها، أتابع ما يحدث وأرى كيف أن كثيرين منهم يتخلون عن أغنية الصالون وينشدون أغنية الحمام. يعودون إلى اغنياتهم ولغتهم وجذورهم وعروبتهم المهشمة.

صديقي البروفيسور يهودا شنهاف الذي استعاد اسم عائلته العربي «شهرباني» واستعاد لغته العربية باللهجة العراقية والفصيحة السليمة، يقول إنه بعد أن استعاد هويته بكامل تفاصيلها أصبح أكثر سلاما مع نفسه ومع الآخر.

يقول أيضا: أنا يهودي عربي عراقي.

يهودا شهرباني، أفهم منه في لقاءاتنا العديدة أنه لم يعد يشعر بأنه ابن هذا الغيتو الصغير المحاصر والمعادي لبيئته وعندما نلتقي في دالية الكرمل أو في قلب تل أبيب نشعر أن فضاء واسعا من المحيط إلى الخليج

هو فضاؤنا، وأن تاريخنا لم يبدأ من مائة عام فقط بل من مئات السنين وأن السموأل شاعري مثلما المعري شاعره وسوية نشتم الأنظمة العربية ونحكي عن التخلف لا باستعلاء بل بقلق ونوجّه إصبع الإتهام إلى من يعبث بمقدرات هذه الأمة. وندين جرائم الاحتلال والتدمير والقتل هنا وهناك وفي كل مكان. لأننا نطمح لنكون أخلاقيين وانسانيين بعد أن انتصرنا على من حاول تشويه إنسانيتنا وهويتنا.

نحن اخترنا أغنية الحمام!

نحن اخترنا طريق الصدق!

نحن نحاول الوصول إلى الحقيقة!

طائفة في بيت النار

دزينة أعوام.. شريط في الذاكرة

أحداث درامية تتلاحق فيها الصورة تلو الأخرى، فيها منظر عام لجبل الشيخ الأبيض وقرية وادعة تستلقي في حضنه وعند اطرافها تمتد بساتين التفاح كأنها قطعة من الجنة، والشوارع التي تتلوى على المرتفعات العالية، تأخذك في رحلة جبلية، إلى أربعة مواقع تشكل مكان الدرامة، بعد ان تعبر آثار الثكنات العسكرية والخنادق المهشمة وبقايا قرى صغيرة كانت تتوزع على جانبي الطريق لكن لم يبق منها سوى ما خلفته همجية تكنولوجية نجحت في تشريد أكثر من مئة وخمسين ألفا من سكانها، في خمسة أيام. واليوم، تبدو عودة هؤلاء إلى بيوتهم المحروثة حرثا بدائيا، أقرب إلى الواقع منها إلى الحلم.

تعيدني الذاكرة وفي هذه الأيام إلى اثني عشر عاما خلت، إلى صباح مبكر وبارد جدا في الثالث عشر من شباط 1982. تصدر نشرة الأخبار نبأ مثير أفاد أن السلطات اعتقلت أربعة من أحرار الجولان، وردا على ذلك أعلن الأهالي اضرابا عاما ومفتوحا إلى أن تتحقق مطالبهم ليس فقط باطلاق سراح المعتقلين بل بإلغاء قانون الضم الذي سنته الكنيست باقتراح من حكومة بيغن في 14/12/1981.

«ماذا يجب أن نفعل من أجل هؤلاء الأحرار؟» - هذا ما أشغلني طول الطريق من دالية الكرمل إلى حيفا، وقد أدركت خطورة القرار الذي اتخذوه، لمعرفتي بأحرار الجولان، إنهم عنيدون في نضالهم العادل ولن يتراجعوا عن موقفهم مهما كلفهم الثمن وأنهم يواجهون حكومة لن توفر أية وسيلة قمعية لكسرهم إلا وستلجأ اليها، حتى لو كان ذلك سلاح الطيران.

كان هذا السؤال يشغل المرحوم إميل توما أيضا. وقد وصل كعادته مبكرا إلى مكتب «الجديد» في بناية المؤتمر بحيفا، ولم نكن بحاجة إلى بحث مطور للمبادرة إلى اقامة لجنة تضامن، عربية يهودية، خصوصا وأنه كان واضحا أم المسألة لن تنتهي بعد يومين وثلاثة واسبوعين وثلاثة، وبعد ساعة وصل شابان يتفجران حماسا واندفاعا وهما فرج خنيفس الذي كانت تلاحقه السلطة لتجاوزه أوامر الإقامة الإجبارية المفروضة عليه (اليوم انتخب نائبا لرئيس بلدية شفاعمرو) وسليم صفدي الذي كان يدرس في جامعة حيفا، (اليوم يعيش في كييف مدرسا في الجامعة ورجل أعمال كبيرا) وتجند الاثنان لإقامة اللجنة بالإضافة إلى سكرتيرة المكتب المحامية مها خوري.

هكذا كان ميلاد لجنة التضامن مع أهالي الجولان، ومنذ ذلك اليوم تحول مكتب «الجديد» إلى مقر للجنة، وقاعة المؤتمر شهدت الاجتماعات التحضيرية التي شاركت فيها لجنة تأسيسية عربية يهودية، من الجليل والكرمل والمثلث وتل أبيب والقدس وحتى النقب، فيها رجال سياسة ومحامون وأدباء وفنانون ورجال دين وطلاب جامعات، وتقرر فتح قنوات نضال على المستويين المحلي والعالمي، فأرسلت برقية إلى سكرتير الأمم المتحدة خافيير بيريزدي كوايار، تطالبه بالتدخل. وصدر البيان الأول بعنوان: «لأحرار الجولان كل الحق في اختيار أساليب النضال التي تضمن لهم التحرر من الإحتلال». وجاء فيه: «أننا نعرب عن تضامننا الكامل مع نضال أهالي الجولان وتأييدنا التام لموقفهم البطولي ونشجب محاولات السلطات فرض القوانين المدنية الإسرائيلية على الأهالي الذين يؤكدون على انتمائهم العربي السوري، كذلك فإننا نطالب الحكومة الإسرائيلية بالاستجابة إلى مطالبهم واحترام مشاعرهم القومية والدينية وتطلعاتهم لإنهاء الاحتلال والعودة إلى الوطن - سوريا العربية.

إننا ندرك الخطورة الناجمة عن سياسة حكومة إسرائيل في الجولان وعن قانون الضم الذي أقر في الكنيست. وتقديرا لمشاعر وإرادة أهالي الجولان ولوقف الاخطار التي قد تؤدي إلى عواقب وخيمة على شعوب المنطقة جمعاء، فإننا نحن أبناء الجماهير اليهودية والعربية من طلاب التحرر والسلام، نطالب بإلغاء قانون الجولان.

«إننا نهيب بكل القوى الدمقراطية والتقدمية، اليهودية والعربية لترفع صوتها عاليا من أجل تلبية مطالب أهالي الجولان وإطلاق سراح كافة المعتقلين».

في خلال عشرة أيام وصل عدد المعتقلين إلى سبعة وهم: الشيخ سليمان كنج ونجله كنج والشيخ كمال كنج والشيخ محمود الصفدي والشبان سلمان فخر الدين وجميل بطحيش ويوسف إبراهيم، وقد اعتقلوا اداريا لمدة ستة أشهر، وبعد ذلك توالت الاعتقالات حتى فرض الحصار على الأهالي ليلة 82/2/24، فتحول 13 ألف إنسان إلى سجناء في معتقل كبير وكانت هذه عناوين البيان الثاني الذي وزع باللغتين العربية والعبرية بآلاف النسخ:

- 13 ألف إنسان فرض عليهم الحصار!!
- «قوات الأمن» تمارس العنف ضد مواطنين عزل حتى من الدواء.
- كل الدعم لأهالي الجولان العربي السوري المحاصرين.

كان واضحا منذ البداية أن في الظروف التي نشأت لا يمكن أن يكون دور لجنة التضامن خيريا فقط، أي الإكتفاء بتقديم المساعدة الإنسانية لأهالي الجولان المحاصرين، بل كان دورها سياسيا بالأساس، وحددنا أهدافا غير معلنة تتلخص في ثلاثة محاور.

الأول: تعميم هذه التجربة كشكل من أشكال الانتفاضة ضد الاحتلال تحت شعار «الكف يمكن أن يلاطم المخرز». والثاني: كسر الحواجز التي فرضتها سلطات الاحتلال بين نضال أهالي الجولان السوري المحتل ونضال سكان المناطق الفلسطينية المحتلة، ولم يكن مصادفة أن أول وفود التضامن والإمدادات الغذائية والطبية جندت من الضفة الغربية، ففي يوم 82/2/25 تحرك من القدس المحتلة في اتجاه الجولان وفد وسيارات شحن حملت أطنانا من المواد الغذائية والدواء، ولكنها أوقفت في الطريق واحتفظ بالمواد في إحدى قرى الجليل حيث تم نقلها بطرق متنوعة في أثناء الحصار. وأما المحور الثالث فقد كان يهدف إلى الإستفادة من هذا

الإضراب لتحريك الرأي العام لدى أبناء الطائفة الدرزية وضرب قرية «حلف الدم»، وتشديد النضال ضد التجنيد الإجباري. وقد سارعت اللجنة إلى إقامة فروع لها في القرى العربية الدرزية وكذلك خلق قناة اتصال مباشرة مع فضيلة الشيخ أمين طريف لإطلاعه على المعاناة اليومية لأهالي الجولان وتنظيم وصول وفود منهم لكسب تأييده للاضراب، خصوصا من رجال الدين الذين كان لهم دور بارز في قيادة الإضراب.

في خلال أيام، اتسعت قاعدة لجنة التضامن وتشكلت فروع لها في معظم القرى العربية وفي المدن مثل تل أبيب والقدس وعكا. وصارت الفروع تعمل محليا في تنظيم حملات التضامن، جمع التبرعات والمواد الغذائية وعقد الاجتماعات الاحتجاجية والمظاهرات في كل بلد وبلد، وقد تجند عشرات الطلاب الجامعيين الجولانيين للعمل مع اللجنة حيث كلفوا بالمشاركة في التظاهرات والاجتماعات وشرح ما يجري في قراهم ولنقل موقف أهلهم وإصرارهم على مقاومة سياسة الضم وبالتمسك بالإنتماء العربي السوري. كذلك دعت اللجنة في 82/2/26 إلى اجتماع للمحامين العرب واليهود حضره (46) محاميا أخذوا على عواتقهم المرافعة في المحاكم عن المعتقلين والسجناء وتقديم كل استشارة قانونية لكل من يحتاج إليها، إضافة إلى الأعراب عن مواقفهم المؤيدة لنضال الأهالي واضرابهم. وقد صدر عن اجتماعهم بيان موجه إلى جميع رجال القانون والقضاء، جاء فيه «نحن المحامين العرب واليهود، الموقعين أدناه، نتوجه بهذا النداء إلى جميع الحقوقيين والقوى التقدمية في إسرائيل لشجب الملاحقات والمضايقات التي يتعرض إليها أهالي الجولان، ونهيب بأهل القانون تقديم العون القضائي وغيره للسكان الذين يعانون من هذه الخطوات غير القانونية. فإن ذلك هو واجب مهني وضميري». وفعلا فتح هؤلاء المحامون مكاتبهم التي توزعت من نهاريا وحتى القدس لاستقبال ومتابعة شكاوى الأهالي خصوصا متابعة الاعتقالات التعسفية التي

تعرض لها المئات منهم، وكانت لجنة التضامن بحيفا تجمع المعلومات والشهادات والوثائق وتنقلها إلى المحامين للمرافعة وزيارة المعتقلين. وقد انضمت عصبة حقوق الإنسان برئاسة المحامية فيليتسيا لانغر وسكرتيرها الصحفي يوسف الغازي للعمل إلى جانب اللجنة وتقديم التقارير المفصلة إلى الهيئات الدولية والمحلية لاستنفارها دفاعات عن حقوق الأهالي المضربين، وفي وقت لاحق جندت جمعية حقوق الإنسان والمواطن برئاسة القاضي المتقاعد حاييم كوهين والذي عقد مؤتمرا صحفيا استنكر فيه عمليات القمع التي قامت بها سلطات الاحتلال، وكان لتصريحاته أصداء واسعة في الرأي العام المحلي والعالمي، وأرسلنا مذكرة إلى رئيس مجلس السلام العالمي روميش شاندرا. وقد أبلغنا فيما بعد أنه عمم المذكرة على فروع المجلس في (135) دولة لتصل إلى الملايين من دعاة السلام في العالم، كما أرسل برقية إلى رئيس الحكومة يحتج فيها باسم المجلس على هذه الممارسات القمعية المناقضة للأعراف الدولية.

منذ الأيام الأولى لتشكيلها تحولت لجنة التضامن إلى مركز إعلامي، منه أرسلت المعلومات والأخبار إلى جميع وسائل الاعلام المحلية والعالمية، إذ أن السلطات منعت دخول الصحفيين إلى الجولان في أثناء الحصار، وقطعت الإتصال الهاتفي وعزلت القرى الأربع تماما عن العالم، لكننا نجحنا في تأمين طرق خاصة لتسريب جميع المعلومات عما يحدث في هذه القرى. وبينما كان الناطق بلسان الجيش يسرب أخبارا مزورة وغير دقيقة إلى وسائل الإعلام في محاولة إعلامية لكسر الإضراب، كنا نوصل الحقائق حتى تحولت اللجنة إلى المصدر الموثوق الوحيد لإطلاع الرأي العام عما يجري، ففي كل قرية اخترنا مركزا إعلاميا جمع الأخبار مفصلة خصوصا عن اعتداءات الجيش على الأهالي والاعتقالات اليومية

وكذلك البيانات التي صدرت عنهم ردا على تصريحات شخصيات رسمية، وكانت تنقل خلال ساعات معدودة إلى اللجنة، على الغالب بواسطة جرحى ومرضى نقلوا إلى المستشفيات الإسرائيلية، هناك كان في انتظارهم مندوبون عن اللجنة، فيأخذون منهم التقارير ويستمعون إلى شهادات حية، تصاغ باللغات الثلاث العربية والعبرية والإنجليزية، وتنقل إلى وسائل الإعلام، وأود أن أشير هنا إلى الدور الكبير الذي قام به الصحفي عوزي بورشطاين الذي عين ناطقا بلسان اللجنة، وكان يعمم الأخبار مرتين يوميا في الساعة السادسة والنصف صباحا وفي السابعة مساء، خصوصا إلى وسائل الإعلام المحلية، كذلك كان لدور وكالة الأنباء الفرنسية دور كبير في نقل الأخبار إلى العالم، ولمكتب الصحافة الفرنسية بادارة الصحفية ريموندا الطويل كان دور كبير في نقل الأخبار إلى وسائل الإعلام العربية خاصة إذاعة منظمة التحرير التي كانت تبث في حينه من جنوب لبنان، وكانت تنقل الأخبار بحذافيرها، كما أن جريدة «الاتحاد» خصصت مساحات واسعة (كانت تصدر مرتين في الاسبوع) لتغطية جميع البيانات والتقارير التي صدرت عن اللجنة.

هذا النشاط الإعلامي طير صواب سلطات الجيش سيما وأن وسائل الإعلام فقدت الثقة ببيانات الناطق بلسان الجيش.

في 82/2/26 نشر يورام همزراحي، مراسل صحيفة «هآرتس» في الشمال تقريرا تحت عنوان: «صدامات بين الصحفيين والجيش عند حاجز في الجولان، الضابط هجم على مراسلي «هآرتس» و «غالي تساهل في الشمال»..

ويصف همزراحي ما حدث بينه وبين ضابط الجيش بقوله:

«وصل ضابط برتبة رائد يرافقه ملازم سمين يحمل مسدسا، دفع بالمصورين، عند الحاجز، وحاول الاثنان سحب أسلاك أجهزة التسجيل وأبلغا الصحفيين أنهما يأمران باعتقالنا».

ويضيف همزراحي، إان الصحفيين اضطروا إلى مغادرة المكان والوصول إلى مستوطنة «نفي اتيف» ولما حاولوا الإتصال الهاتفي من هناك أبلغهم الضابط بأنه يحظر عليهم ذلك وأنه صدرت أوامر بمنعهم من الإتصال الهاتفي، وعندما أصر الصحفيون على الإتصال، تحدث الضابط إلى ضابط مسؤول عنه وكانت هذه المكالمة عبر الأجهزة اللاسلكية وعلى مسمع من الصحفيين.

الضابط المسؤول: امنعهم بالقوة.

الرائد: باستعمال العنف؟

الضابط المسؤول: إذهب ونفذ!

وفعلا منعهم من إجراء أي اتصال تليفوني مع التلفزيون والإذاعة وحتى رئيس لجنة الخارجية والأمن ونائب وزير الدفاع.

ويختم همزراحي تقريره بقوله «اليوم وغدا سوف نسمع بكاءنا لأن العالم كله ضدنا وسوف نذرف دموع التماسيح على صحفيين في العالم يتعرضون لإعتداءات السلطة، وفي المساء حاولت العودة إلى الجولان ولكنهم اعتقلوني. كان هناك ضابط أصغى فقط إلى ما يحب الإستماع إليه، تبادلنا الصراخ وعندما تحدثت عن الدمقراطية قال الضابط الشاب: لا تشتم الدولة».

في ساعات المساء المتأخرة اتصل بي مناحيم هورفيتس، مراسل «غالي تساهل» وقال لي «يا رفيق (هكذا) أرجو أن تزودني بكل ما يجري وأعدك بأن انقله حالا على الهواء»، وفي اليوم التالي اتصل يورام همزراحي، مراسل «هآرتس» والتلفزيون الاسلائيلي لأعداد تقرير مصور عن عمل لجنة التضامن، وعندما قدمة عبر شاشة التلفزيون افتتحه بقوله «لجنة التضامن أصبحت هي المصدر الموثوق للاطلاع على ما يجري في القرى التي يحاصرها الجيش الإسرائيلي».

ساحة مجدل شمس

مجدل شمس القرية السورية المحتلة في الجولان، المستلقية في أحضان جبل الشيخ الشامخ تغطيها الثلوج، في أيام شباط القارصة البرد، قرية صغيرة وادعة، حين تتساقط الثلوج تنطوي على نفسها، تغلق أبوابها وفوق سطوحها يتناثر الدخان المتصاعد من مداخن المواقد، وفي الغرف التي أحكم إغلاق نوافذها، تجتمع الأسر العربية، وكبارها وصغارها ورجالها ونساؤها لا يبحثون عن موضوع للحديث والدردشة، فكل ما يخطر في البال، يشغل الجميع.. الاحتلال الرازح على صدورهم كالكابوس منذ ثمانية عشر عاما، هو موضوع حديث طويل، والأهل والأقارب في الوطن الأم هو موضوع حديث ذي شجون، وما يحدث في لبنان، وما يحدث في المناطق المحتلة، حتى أن أغنية «يا نسر الجو وصلي تحية من الجولان للضفة الغربية»، تصبح جزءا من الهواجس، وموضوع حديث طويل ويمتد ويتشعب إلى كل أنحاء الأرض، ويعبدهم مباشرة إلى شباط قبل ثلاث سنوات..

ذاك الشهر كان شهر الجولان السوري المحتل، والدخان المتصاعد من المواقد لم يتطاير في سماء هذه القرية الوادعة فقط، بل في سماء المنطقة،

وتطاير في سماء العالم، ينقل تجربة نضالية، ومعركة لمجموعة لا تعد أكثر من ثلاثة عشر ألف إنسان يعيشون في أربع قرى: مجدل شمس، مسعدة، بقعاتا، وعين قنية، عزل من كل شيء إلا من مشاعرهم الوطنية، وروحهم النضالية، وحبهم لوطنهم، وإيمانهم بعدالة قضيتهم.

في العاشر من شباط 1982 شهدت ساحة مجدل شمس اجتماعا حاشدا شارك فيه أكثر من ثلاثة آلاف مواطن، احتجاجا على قرار حكومة إسرائيل ضم الجولان المحتل، وطالبوا بأن تحترم مشاعرهم القومية والدينية. ولكن بدلا من أن تحترم مطالبهم، داهمت القوات الإسرائيلية بعد يومين بيوت أربعة من قادة الجولان. وفرضت عليهم اعتقالا إداريا لمدة ثلاثة أشهر. وفي اليوم نفسه، شهدت ساحة مجدل شمس، اجتماعا حاشدا، وارتفعت الأصوات، وتطايرت في سماء المنطقة تعلن اضرابا مفتوحا إلى أن تلبي مطالبهم، وهز هذا القرار اجماعي البطولي مشاعر كل الوطنيين والتقدميين والأحرار، فسارعوا للإعراب عن تضامنهم ودعمهم لهؤلاء المناضلين، مما أقلق السلطات الإسرائيلية، ففرضت على قرت الجولان حصارا خانقا، لم تسمح لأحد بالدخول، ولم تسمح لأحد بالخروج قطعت عنهم الطعام والحليب للأطفال، وأطبقت عليهم لأكثر من ثمانية أسابيع، لم توفر وسيلة للقمع إلا واستعملت. ولكنهم صمدوا، وصار اضرابهم حكاية من حكايات البطولة. والعصا في مواجهة البندقية، والبصلة في مواجهة القنبلة المسيلة للدموع، والوحدة والإصرار والعزم على مواصلة الكفاح في مواجهة الغطرسة والعنف والإرهاب.

وانتصر أبطال الجولان مثلما انتصر أبطال بيروت فيما بعد، وظلت ساحة مجدل شمس، يتوسطها عمود من الحجر، ومن جهاتها الأربع تتشعب الطرق، والزقاقات الموصلة إلى بيوت القرية. عند بوابة المدرسة منصة من

الباطون، حين تقف عليها يتراءى أمامك الشريط الحدودي، ومن ترفع أنظارك إلى قمة جبل الشيخ، فيوحي لك بما يجعلك أكثر قدرة على التحدي والمواجهة والصمود.

لم أزر مجدل شمس سائحا، ولم أزر نابلس، فالزيارة إلى هذه المناطق المحتلة لا تأتي من باب السياحة وشم الهواء، بل من باب القيام بواجب سياسي واجتماعي وثقافي ولهذا فلم أعرف ساحة مجدل شمس إلا في الأيام التي كانت تصنع حضورها ووجودها، وسجلها البطولي في شباط 1982، حين كانت تحتشد فيها الجماهير لاتخاذ القرار الجماعي. في تلك اللحظات، كان يبدو أن هذه الساحة تتحول إلى برلمان عربي وطني، قد يكون من أكثر البرلمانات العربية ديمقراطية ووطنية. فلم يتخذ قرار إلا وكان جماعيا وبالإجماع. القائد السياسي يشارك فيه، والمثقف والعامل والفلاح والمرآة والطفل، كلهم يشاركون في اتخاذ القرار، وفي هذه الحالة لا يمكن إلا أن يكون وطنيا وثوريا.

اعتقلت السلطات قادة الجولان، وزجت بهم في السجون والمعتقلات، وكانت تعتقد أنها بذلك تضرب نضال هؤلاء الناس. لكن على هذه الساحة وفي كل يوم كان يولد قائد جديد. كل من كان يقف على المنصة. ويطرح موقفا وطنيا كان قائدا، وكل من كان يرفع ذراعه ويهتف بسقوط الاحتلال، وكل طفل وشيخ ورجل وامرأة أعلنوا عن إصرارهم على مواصلة الكفاح تحولوا إلى قادة، لم تتخذ القرارات في الغرف المغلقة ولا في المجالس ولا في الدواوين، بل في هذا البرلمان الديمقراطي ساحة مجدل شمس، هذه التجربة هي درس للديمقراطية العربية، وهي درس في النضال ضد الاحتلال وعلى العمود الحجري المنفصل، رفع العلم العربي السوري، وعلى الفور تدخلت قوات الاحتلال.

لم يجرؤا على إنزاله ولم ينزل إلا بقرار جماعي لئلا يهان العلم، فتسلق طفل في العاشرة على العمود وبخشوع أنزل العلم وطواه بخشوع أيضا وقبله، فاختطفه الضباط وهرب المحتشدون يصفقون ويهتفون.

بعد هذه الحكاية قُدِمَ الأطفال للمحاكمة، لكن في ساحة مجدل شمس كان القرار الجماعي.

إن الحكاية لم تنته بعد..

22 شباط 1985

رقصة...

أنوار خافتة تشقها بقعة ضوء تتحرك على المسرح. ضربات طبول وصنوج ترتفع شيئا فشيئا.

وسط العتمة يدخل الراقصون من كل الجهات ويقتربون من البقعة.

ترتفع الضربات فيلتصق الواحد بالآخر.

في بقعة الضوء تظهر كتلة من البشر، كتلة هلامية داكنة تنتقل من مكان إلى آخر وفقا لحركات الضوء وضربات الطبول.

خيمت على القاعة أجواء من الترقب والخوف، تملكتني رعشة سرعان ما قبضت على أنفاسي. إحساس مبهم بالاختناق.

الكتلة البشرية اكتسبت شكلا مثيرا للرعب ثم القرف، ثم بدأت تتفكك شيئا فشيئا وصارت تتسع والضوء ينتشر وغلب على ضربات

الطبول عزف هادىء على الكمان.

تفرقت الكتلة البشرية.

مجموعات الراقصين بدت كزهرات تتمايل مع هبوب النسمات.

زهو الألوان في الضوء الباهي طرد الإحساس بالاختناق.

إنفراج مبهم وارتخاء على المقاعد وانسياب شفاف للموسيقى.

قلت لنفسي:

«هذه فرصة للتمعن بحركات ريتا الراقصة التي اتخذت لها مكانا في زاوية المسرح اليمنى»

شعرها تهدل على منكبيها ، وكلما تمايلت تناثر ليلتقي بخيوط الضوء ، فينسج معها وشاحا ذهبيا .

لريتا عينان سوداوان يكللهما كحل تحت حاجبين دقيقين ، وعلى خدها شامة تبدو طبيعية حتى من بعيد.

كانت بين الفينة والأخرى تزم شفتيها القرمزيتين ، ولما تنفرجان ترتسم على محياها ابتسامة مشرقة.

أعتقدت أن كل الأنظار مصوبة الى ريتا ، لكن عندما التفت إلى وجوه المشاهدين كان كل وجه يرقب حركات راقص آخر ، أو راقصة كريتا .

«في التفرق فرصة لإدراك معاني الفرد..»

قلت لنفسي

«مثل دفاتر اليوميات المدرسية، كل ورقة عالم قائم بذاته، مثل عالمنا»

عندما انحنت ريتا صفقفت بحماس شديد، ومعها انحنى الراقصون فدوت عاصفة من التصفيق.

هواجس على أعتاب شيخوخة مبكرة

هاجس رقم 8

في شيخوختنا المبكرة عندما نصعد على باص مزدحم أو عربة قطار لا نغضب إذا لم يقف شاب/ة ليقدم لنا مقعد.

نفرح عندما يحدث هذا حتى بعد دقائق ونحن نتأرجح متشبثين بعمود أو حزام عريض.

سرعان ما نحزن لأننا نخشى إلا نجد شابا/ة كهذا في شيخوختنا المتقدمة فنمتنع عن ركوب الباص أو القطار.

هاجس رقم 7

في شبابناكنا نستميت دفاعا عن خصوصياتنا كنا نعتقد بجهل أن الشيخوخة بلا خصوصيات فاستبحنا خصوصيات أهلنا. في شيخوختنا المبكرة، أكثر ما ندافع عنه هو خصوصياتنا ندافع عما تبقى منها بتوتر وجنون نخشى أن نفقدها تماما في شيخوختنا المتقدمة نخشى أن نصبح ريشة في مهب الريح.

هاجس رقم 6

إلى الآتين بعدنا!

في شيخوختنا المبكرة تصرون على تأنيبنا وتذكيرنا بأخطاء وخطايا ارتكبناها، أو ربما لم نرتكبها، معكم منذ ولدتم وربما قبل أن تولدوا نتذكر ولا نتذكر ونحزن ونتذكر ولا نتذكر ونحزن ونغضب ونحزن ونتذكر ولا نتذكر و...و...

أخشى أن لا يبقى متسع من الوقت في شيخوختنا المتقدمة، ولا قدرة على النطق، لأن نفول لكم:

سامحونا!

سامحونا إن لم نقل لكم سامحونا!

كونوا في سلام مع الغير!

لكم حديثكم عن مباذلنا وللآخرين حديثهم عن فضائلنا!

هذا هو سلامنا معكم.

هاجس رقم 5

*على أعتاب شيخوختنا المبكرة تعود في الذاكرة تفاصيل كنا نسيناها أكثر ما نتذكره هم كل الذين أحسنوا إلينا وكل الذين أساءوا أخشى أن تطغى على شيخوختنا المتقدمة نزعة «تصفية حسابات» وإلا من أين جاءت فكرة «الثواب والعقاب»؟

هاجس رقم 4

*نحن على أعتاب شيخوخة مبكرة

لا تقولوا لنا أننا ما زلنا في الثلاثينات!

أولا ، نحن نعرف انكم تكذبون ولو من باب التحبب والمجاملة

ثانيا ، أخشى إن صدقنا أن نرتكب أخطاء الثلاثينات

ثالثا ، ابحثوا عن الجميل فينا ، كما نحن الآن لا كما تريدون عبثا أن نكون.

هاجس رقم 3

*أخشى أن نفقد الحلم في شيخوختنا المبكرة فتصبح شيخوختنا المتقدمة حالة اكتئاب وحسب.

هاجس رقم 2

*لماذا نسأل اليوم كل الأسئلة التي تجاهلناها؟ مثلا : هل أنت واثق أن ما تفعله هو الصحيح وليس الخطأ؟

أخشى أن يأتيك يوما ، في شيخوختك المبكرة ، من يصفعك بقوله : أنت لم تكن مخطئا فقط ، أنت منت الخطأ.

هاجس رقم 1

*أخشى أن ما سيقلقنا في الشيخوخة المبكرة هو أن نعجز عن خدمة أبنائنا

وأخشى اكثر أن ما سيقلقنا في الشيخوخة المتقدمة هو أن يعجز ابناؤنا عن خدمتنا



المسرح

ما وراء الكلمات

(مهداة إلى آخر طفلة تركت قرية إقرث...)

الشخصيات

فتاة جميلة تدعى إيناس.

شاب في الرابعة والعشرين، يدعى يوجين.

المكان - لم تعرفه الشرطة بعد.

الزمان - في السنة التي قتل فيها الثوار مختار القرية الشيخ سلامة.

(المشهد الأول)

غرفة صغيرة نوافذها عتيقة، فيها سرير وخزانة ثياب، يدخل يوجين، يبدو قلقا، يخطو بعض الخطوات داخل الغرفة، ثم يلقي بنفسه على السرير، يتنهد نهدة عميقة، تدخل إيناس وهي تجر أذيالها على الأرض، وتجلس بجانبه.

إيناس - بمَ تفكر يا يوجين؟

يوجين - هل تعلمين يا إيناس؟

أشعر في هذه الأيام بمعاناة نفسية.. أشعر أن ضميري يقتلني..

إيناس - (تبدو مضطربة) - وما الذي يقلقك؟

يوجين - أن صورة أمي لا تفارق خيالي.. دموعها تحرقني.. نظراتها تمزقني.. تمزقني.. تمزق ضميري.. إخوتي الصغار يقتلونني.. يطلقون النار

على صدري.. لا أستطيع تحمل هذه المناظر.. لا أطيق هذه الآلام يا إيناس.. يجب أن انقذ نفسي.. يجب أن أخلصها من هذه الآلام.

إيناس - (تلاطف خديه) - أرجوك يا يوجين أن تنسى الماضي.. يجب أن نحيا حاضرنا.. ومستقبلنا.. أترك الماضي في هذه الخزانة البالية.. ودعنا نعيش والسعادة التي نطلبها..

يوجين - لا استطيع يا إيناس، لا أستطيع أن انسى الماضي لأنه هو الواقع وحاضرنا خيال، ولا يمكن أن نتهرب من الواقع مهما حاولنا ذلك.

إيناس - ولكن ذلك يعذبنا.. ولا حاجة لأن نحترق بنار الذكريات..

يوجين - يجب ان نحترق.. يجب أن نحترق.. لأننا لا نصلح للمستقبل لقد فقدنا شخصيتنا الحقيقية.. إننا مزيفون.. إننا مزيفون.. يا إيناس.

(المشهد الثاني)

إيناس تجلس لوحدها في الغرفة.. تنظر إلى السقف.. ثم تلقي برأسها على الوسادة تشعر باضطراب.. تهب واقفة على قدميها.. تخطو نحو الخزانة.. تتوقف وتتكئ عليها.. بعد لحظات تسمع أصواتًا متتالية.. تقطب جبينها.. الفزع يبدو واضحاً على ملامح وجهها:

لنحترق جميعًا.. لنحترق..

(تسقط على الأرض)

يوجين يدخل الغرفة راكضا:

- إيناس.. إيناس.. ماذا جرى.. ماذا حدث لك.. إيناس......

(لا تتبس ببنت شفة)

- يوجين - إيناس.. حبيبتي إيناس.. أنا يوجين.. يجس نبضها ثم يقعدها.. يقبلها ويداعب خصلات شعرها.. تصحو شيئا فشيئا.. وبعد أن تفتح عينيها وتراه.. تضمه إلى صدرها وتصيح بأعلى صوتها:

- يوجين.. يوجين.. إن اليأس الذي اوجدنا هو الذي يقتلنا الآن، ضميري.. ضميري.. يا يوجين.

يوجين (بصوت حزين)

- لا تقلقي يا حبيبتي. سوف نحطم هذا اليأس.. إننا لم نكن أغبياء.. أردنا أن نعيش.. أردنا أن نحافظ على سعادتنا.. لم نخضع لأحد ولم نقبل أن تدوسنا أقدام الجهل والغباوة.. لقد تحدينا القدر وحافظنا على بقائنا.. وسنحافظ على هذا البقاء.. لا تندمي يا حبيبتي.. تكفينا وخزات الضمير.. ويكفي أننا اخطأنا مرة واحدة..

- إيناس - المؤلم أننا ادركنا خطأنا بعد مدة طويلة فقط.. وهذا ما يعذبنا..

- يوجين - (باسما) المهم أن لا نخطئ مرة أخرى..

(المشهد الثالث)

إيناس ويوجين يجلسان على السرير...

إيناس - لماذا احببتني يا يوجين..؟

يوجين - صدقيني.. إنني لم أسأل نفسي هذا السؤال.. ولذلك لا أستطيع أن أفكر في الجواب..

إيناس - ألم تكن تعلم أننا سنجابه مشاكل الحياة كلها حتى نحقق آمالنا..

يوجين - كنت أعلم ذلك ولكن لأسباب اجهلها لم أهتم بالأمر..

إيناس - يوجين. هل ما زلت تحبني كما أحببتني من قبل.

يوجين - لقد أحببتك عبادة.. وأحبك عبادة.. وسأظل أحبك عبادة..

إيناس - (بإطمئنان)

أهكذا يا حبيبي؟

يوجين - نعم بل ربما أكثر من ذلك.

إيناس - وكيف نعيش مع تأنيب الضمير؟

يوجين - (يبدو هادئا)

سنحاول ان نتغلب عليه قبل أن يتغلب علينا.

إيناس - وهل تعتقد أننا نستطيع ذلك..

أنا لا أستطيع أن أنسى أمي؟ أنا لا أستطيع أن أدفن إخوتي الصغار في قبر مغامرتنا وذكرياتنا.. أنا لا أستطيع أن أنسى بلدي.. قريتي التي أحببتها.. أرض آبائي التي قدستها.. كيف سمحت لي نفسي أن أترك هذه المقدسات.. لأعيش مع يأسي وآلامي هنا..؟

يوجين - ولكننا يا حبيبتي كنا مجبرين على ذلك.. هذه كانت الوسيلة الوحيدة لتحقيق آمالنا..

إيناس - (تتنهد)

كيف وقعنا في خطيئة كهذه.. لماذا لم نفكر.. لماذا.. لماذا؟

يوجين - ولكن يا حبيبتي لم يكن لدينا أي مجال للتفكير لقد قلت لك اننا كنا مجبرين على ذلك.. لقد أجبرنا القدر، المجتمع، أهلك، والدك هو الذي دفعنا لأن نجازف، لو أنه وافق على زواجنا لما فعلنا ما فعلناه..

إيناس - (تحدّق في يوجين وتتنهد)

آه كم كنت أنتظر لقاءك يا يوجين، لقد كنت كل شيء في حياتي.. كنت أستمد بقائي من وجودك بجانبي.. الأشجار التي كنا نجلس تحت ظلالها كانت تحسدنا على سعادتنا.. كنت أشعر أنني أعيش في حلم.. لم أكن اصدق الواقع..

الحقيقة أنني توقعت أن يأتي يوم نتزوج فيه رغم أنف أبي وأمي، ولكنني لم أكن أتوقع أن تنقلب حياتنا إلى جحيم..

هناك من أجرم في حقنا.. ربما كنا نحن المجرمين وربما كان والدي.. وربما كان القدر.. هناك من قام بالجريمة، المهم أننا وقعنا ضحية بريئة.

يوجين - رغم اعترافنا بما حدث ولكن علينا أن نعيش بكرامتنا، وثقتنا بنفسنا.. يجب إلا نخضع لأحد.. ربما كانت هذه غيمة سوداء تمر في سمائنا.. ولا بد أن يأتي يوم تتقشع فيه هذه الغيوم.. وتشرق الشمس من جديد.. و.. و..

إيناس - (تقاطعه)

ولكن ماذا جرى لقريتنا.. ماذا جرى لأهلي وأهلك.. أخاف.. أخاف يا يوجين.. أخاف..

(تصرخ بأعلى صوتها)

(المشهد الرابع)

يوجين وإيناس يسيران داخل الغرفة، تسمع أصوات غريبة غير واضحة، تهدأ الأصوات ثم يعلو صوت يهدد صداه في أرجاء الغرفة:

- اسمع يا يوجين.. اسمعي يا إيناس!

(يدب الفزع في قلب إيناس، تلقي بنفسها على يوجين، تحاول أن تخفي رأسها في صدره)

الصوت - أتحدث إليكم من السماء.. أنا ضمير الإنسانية التي أختفت حين ولد أول إنسان.. أنا قلب إخوانكم الصغار الذي أفقده آباؤكم الرحمة والعطف. أنا حبكم الذي كان أن يتحطم على مذابح الجهل والغباوة.. أنا إيمانكم بالحياة.. أنا ثقتكم بالحقيقة والأمل.. أنا السعادة التي تمنيتموها وهربت من بين أيديكم.. أنا الحق.. أنا المجتمع.. أنا العقل .. أنا الجنون.. أنا الحياة.. وأنا.. أنا الموت..

لقد جئت لأخبركما عن مصير أهلكما.. والقرية التي كنتما تحبانها.. لقد انتحر والدك يا إيناس.. عندما علم أنه كان جاهلا.. لقد انتحر لأنه لم يدرك نتيجة جهله.. وندم أخيرا.. ندم لأن الحياة لم تكن كما أراد.. بل كانت كما يجب أن تكون.. لقد انتحر لأنه عذبك يا إيناس بعد أن كان يحبك ويبغي سعادتك..

وفي كل يوم أزور إخوتك الصغار.. أبكي معهم.. لأنهم يغتسلون بالدموع.. وتكاد دموعهم تصبح دما.. لقد أنكرهم جميع الذين كانوا يسممون أفكار والدك..

وأنت يا يوجين.. لقد أشعل بيت والدك.. أكلت النار كل زواياه.. وغادر أهلك إلى مكان مجهول.

والقرية.. القرية التي أحبها أبناؤها.. الأرض التي ربت أجيالا بعد أجيال.. مهجورة الآن.. أنها خراب تحطمت فيها جميع الشبابيك.. هجرها كل من يزرع فيها القمح والخبز والورود..

(يختفي الصوت، إيناس تسقط على الأرض تطفأ الأنوار ويسدل الستار)

(المشهد الخامس)

يوجين يجلس على السرير، يمسك قلمًا وورقة ويكتب:

والدي الحبيب أمي الحنونة أخوتي الأعزاء..

سلامًا وتحية:

أكتب اليكم يا أحبائي بدموعي التي حبستها منذ ولدتني أمي.. أكتب لكم بعد أن مزقني الألم والعذاب.. أكتب لكم قبل أن أعود إلى بيتي.. إلى قريتي التي ترعرعت بين أحضانها..

ولقد تركتها عامرة.. كلها حياة.. كلها ربيع.. ويحز في نفسي أن أعود إليها وأنا لا أجد سوى بقايا مجتمع أحببته. وأطلال بيوت ترسم لي مأساة

الإنسان الكبرى.. أرجو أن تغفروا لي خطيئتي.

وأرجو يا أبي أن تأخذ معك إخوتي الصغار وتعودوا إلى بيتنا ، إلى قريتنا ، أرجو أن تزرعوا الأرض من جديد.. لكي تأكلوا الخبز من التراب الذي سقاه عرق أجدادنا ، وأرتوى بدموع آبائنا.

ونحن.. إن كنا هربنا إلا أننا سنعود إلى بلدنا.. كي ندفن في ثراه فربما كنا عبرة للأجيال التي ستأتي بعدنا..

أخيرًا يا أبي بعد أن تعودوا إلى القرية.. ابحثوا عن القبر الذي يضمنا.. أنا وإيناس.. هناك ستجدون كتابًا صغيرا.. اقرأوه عشرات المرات.. حاولوا أن تفهموا معانيه لأنه هو وصيتنا الوحيدة تركناها لأبنا ابنائكم ليدركوا أنفسهم.

* * *

في المشهد الأخير.. يطلب المخرج من الجمهور أن يترك القاعة ليبحثوا عن الكتاب.. وعن قبر إيناس ويوجين.

المسرح الإسرائيلي

الأنا والآخر ومتاهة الواقع

حديث الصيف (3)

حلمت مرة أن أميرا خليجيا قد اشتراني، فاستيقظت مذعورا ولما حدثت طفلي الصغير، قال: يا ريت!

أكتب مقالي عادة في صباح أيام الأحد، أي في مطلع الأسبوع ويرسل إلى الصحيفة في منتصف الأسبوع لينشر في نهاية الأسبوع، وأفعل ذلك لكي أبدأ أسبوعي بعمل ألتزم به لوجه الله والقضية وللرياضة الذهنية والفكرية ثم الانصراف لخمسة أيام إلى الأعمال العادية بحثا عن لقمة الخبز «والدهدكة» في هموم الحياة التي لا ترحم وأقساها أن يقوم مدير في بلدية مثلا ويفاصلك ويساومك على جهدك الفكري الذي أعجب به لكن لا يعجبه أنك تطلب قدرا ما من الأجر المالي عليه فيزعزع ثقتك باستقامتك وتتصور نفسك أنك مصاص دماء وأموال الشعب، بالرغم من أن ما يبقى لك بعد أن تلتهمه الضرائب لا يكفي لثمن الورق الذي تكتب عليه وفنجان القهوة وعلبة السجائر التي تحرقها لتنجز ما التزمت بكتابته لمؤسسة ثقافية بلدية وطنية.

من الذي يزعم أننا نحن الكتاب سعداء في حياتنا وقاماتنا مرفوعة؟

حلمت مرة أن أميرا خليجيا قد اشتراني فاستيقظت مذعورا ولما حدثت طفلي الصغير، قال دون أي تردد: يا ريت!

طبعا ليس هذا هو موضوع المقال ولكنه شطط أصابني في صباح يوم الأحد بعد أن قرأت الصحيفة الصباحية وشربت القهوة ولفت انتباهي أن العناوين تتشابه في مطلع كل أسبوع وفي نهايته وأن لا جديد تحت الشمس وأننا نجتر الأحداث ونلوكها فنتفاءل في مطلع الأسبوع وننكسف في نهايته وتصبح مقولتنا العامية« مطرح ما رحتي جيتي» أو «مطرح ما... شنقوه» هي أصدق ما ينطبق على هذا الوضع الأجوف، وقد بت أومن من فرط هذه الرتابة أن السياسيين يعملونها عن سابق اصرار لكي نسلم بالأمر الواقع وندمن على السكون فنعودن اللاعادي ونحولن المستحيل ونبلعها كمن يتلذذ على بلع الضفادع، فنستبدل السياسة بالرومانسية وننصرف الى كتابة الشعر وقراءته عن السلام المنشود الذي لم يبق لنا منه سوى القصائد التي كتبناها ، ولماذا تبقى القصائد ولا يبقى السلام ؟ لأن الشعر غير قابل للنقاش بالنسب المئوية كأن تقول مثلا 9 بالمية قصيدة أو 13 بالمية، فالشعر هو الشعر ميه بالمية والسلام الحقيقي هو سلام ميه بالميه فليس هناك نصف سلام ولا ربع ولا هناك سلام جيد وآخر سيء لأن السلام هو السلام ولأنه لم يكن كذلك فترانا في هذه الأيام الصيفية نمارس سلاما رومانسيا مع أولاد عمنا من القوى التقدمية - كما تعارفنا على تسميتهم -في أنطاليا ورودوس واستبدلنا مواقع النضال من الساحات العامة والسجون بفنادق خمسة نجوم على شواطيء البحر المتوسط وصرنا نتحدث عن الحصار والجوع في حفلات الكوكتيل وغرف الساونة حيث يتصبب العرق من مساماتنا كما لو كنا في سجن صحراوي - بعيد الشبه أو لا قدرالله. مثل هذا النضال الرومانطيقي لم نعرف نحن الفقراء منذ خمسين عاما ونيف حتى أننا نتمنى أحيانا ألا يتوقف لكي لا نفقد هذه الأورجيا الكفاحية الرائعة، ويعشق أولاد عمنا هذا السلام الرومانسي لدرجة أن صديقنا الفنان يوسي ألفي العراقي الأصل أقام مسرحا في جبعتايم أطلق عليه مسرح طريق السلام

ودعانا لافتتاحه بقراءات شعرية عن السلام فدوخهم طه محمد علي بحكاية قاسم الذي يضحك على القتلة ونداء خوري بقصيدة عن يافا لم يفهموا منها شيئا إلا أنهم صفقوا بحماس، ويبدو أن سلامنا الرومانسي يجعل البعض منا ومنهم يحلق في الفضاء كما حدث مع النائب الشرقي الطيب مئير شطريت الذي «طار» إلى ياسر عرفات حاملا صورة للكرة الأرضية من الناشيونال جيوغرافيك وكتب عليها اهداء يلفت فيه نظر «الختيار» إلى أن ما نختلف عليه هو أمر مثير للضحك، فنحن نعيش في بقعة لا تظهر على خارطة العالم، وقد توقعت أن يعيدها الختيار له مع اهداء يكتب فيه: «الى بيبي نتنياهو الذي يضحك على كل العالم من هذه البقعة التي لا تظهر على الخارطة» .

سلامنا الرومانطيقي مدعوم بقصة حب بين فلسطيني واسرائيلية وقد نجعلها شكسبيرية اذا كان هو «مطلوبا» ينتمي إلى الجهاد الاسلامي مثلا وهي ولدت في كريات أربع مثلا وعندها تخيل الحبكة والصراع الدرامي، يا حبيبي! وهو مدعوم بطفل لم يلق حجرا على جندي وبجندي لم يطلق النار على طفل ومدعوم أيضا بتصريح جنوني لزوجة رئيس الحكومة تعرب فيه عن أمنيتها بأن يأتي يوم وفيه يلعب ابنها مع طفل فلسطيني، كأن الطفل الفلسطيني هو الذي يرفض هذه النعمة .

مدعوم جدا هذا السلام لأنه بجيز لفقير مثلي أن يكتب مقاله الأسبوعي في يوم الأحد ويرسله الى الصحيفة في منتصف الأسبوع لينشر في نهاية الأسبوع دون أن يجري عليه أي تعديل، فما كان بالأمس يحدث اليوم وما هو كائن سيكون في الغد، وأسمح لنفسي أن أختمه في بداية الأسبوع لأنصرف لخمسة أيام أخرى إلى ما هو خارج السلام الرومانسي وخارج سلام الذات مع ذاتها، بحثا عن لقمة الخبز «والدهدكة» في هموم الحياة

التي لا ترحم وأقساها أن يقوم مدير في بلدية مثلا ويفاصلك ويساومك على جهدك الفكري .

كان هذا حديث الصيف للمرة الثالثة ليس على التوالي. مجرد لحظة طفر صيفية قد تأتي وقد لا تأتي، وإن حاءت وقبضت علينا فسنأتيكم بها على علاتها ، والله من وراء القصد.



قصة

فقسوسة

كتب سلمان ناطور قصص للأطفال، طبعتها وزارة الثقافة الفلسطينية عام 2004، ووزعتها على كافة أطفال فلسطين. ورافق الفتيان في مشروع تعرف على فلسطين بادرت إلى تنظيمه مؤسسة «تامر» وصدرت عنه مجموعة كتب عن مواقع فلسطينية متنوعة. اخترنا أن ننشر في هذا الكتاب قصة «فقسوسة» وكانت من قصصه المفضلة في ورشاته مع الأطفال.

في ذلك اليوم شعر جدي أبو سامح بالتعب بعد أن نكش الأرض

- لن أعود إلى البيت سأستريح هنا....

مهد التراب وأحضر أربع عصي ونصبها ووضع عليها الحطة فصارت مثل الخيمة ترد عنه أشعة المشس الحارة واستلقى على ظهره ثم صار يتقلب على جنبيه...

تذكر عندما كان طفلا صغيرا

- سبحان الله، كانت الأرض لوالدي فانتقلت إليّ، وستنتقل الى أولادي، هذا حال الدنيا...

أغمض عينيه واستسلم لنوم خفيف وفجأة استيقظ مذعورا بعد أن رأى في منامه طائرا أسود يرفرف بجناحيه الكبيرين ثم هبط عليه وحاول أن يخطفه بمنقاره الكبير.....

ربما أن هذا المكان يجلب الأحلام المزعجة. سأنتقل إلى مكان آخر... آه...

هناك بجاني هذا العرق الوحيد... عرق الفقوس...

مسكين كيف يعيش لوحده؟ ذبلان

ساسقيه وأنام بجانبه وأعطف عليه..

ونقل خيمته قرب عرق الفقوس... وشعر بارتياح عندما رأى أوراقه اليابسة تنتعش وتزدهر...

نام جدي نوما عميقا... وحلم أنه طفل صغير يلعب في ساحة بيته مع العنزة

فسألته إلى أين تريد أن تطير معي؟

- إلى هناك... هناك إلى قمة جبل الجنة

ركب على ظهرها.. وطار... حلق في السماء... أحس أن شيئا يلكشه في فخذه...

استيقظ.. كانت الشمس قد غربت.. وخيم الليل.. فلم ير شيئا حوله..

- ما هذا؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...
- جدي أبو سامح... جدي أبو سامح... هذا أنا فقسوسة
- نعم؟ هذا أنت؟ كبرت بسرعة...
- لأنك سقيتني وعطفت علي...
- كنت ألم حلما جميلا... خسارة أنني استيقظت... ما أجمله من حلم

- متأسفة... متأسفة عد إلى النوم.
- أنا سأحرسك... ولن أسمح للواوي أن يقترب منك... ولا للطائر الأسود..
- طيب... أجرب. تصبحين على خير.
- حاول جدي أن ينام وما كاد يغمض عينيه حتى لكشته فقسوسة...
- فابتعد قليلا... وحاول أن ينام لكن فقسوسة لحقت به.. ولكشته فاستيقظ..
- وابتعد أكثر وأكثر.. ثم جلس يفكر كيف سيتصرف مع فقسوسة
- فقسوسة فقسوسة ما دمت تكبرين وتمتدين بسرعة ساعديني كي أحقق
- حلمي بالوصول إلى جبل الجنة.. أرجوك.
- بكطل سرور.. لكن كيف؟
- إحمليني على ظهرك إلى هناك.. إلى القمة
- أنا مستعدة.. اركب على ظهري.
- يا الله.

فقسوسة يا فقسوسة

إن شاء الله تصيري عروسه

فقسوسة فقسوسة لا تسرعي، لا تسرعي

- أنا لا أسيطر على سرعتي.. فأنا اكبر بدون إرادتي
- ولكنني سأسقط إذا تسلقت هذه الصخور العالية
- تمسك جيدا.. سوف تحقق حلمك يا جدي. وبعد قليل سنصل..

ها نحن نقترب من القمة.. والرياح شديدة.. والطقس بارد.. ولكنك أخيرا وصلت الى قمة جبل الجنة.

عندما وصلا إلى قمة الجبل نزل جدي وراح يركض فرحا:

- تفاح الجنة.. تفاح الجنة.. وهذا خوخ وكرز.. تعالي يا فقسوسة.. تعالي وأنظري...

تعالي وأنظري.. فقسوسة، فقسوسة، لماذا لا تجيبين؟

فقسوسة هل تسمعين؟

لم تتحرك فقسوسة من مكانها ولم ترد عليه، وصل جدي إليها، كانت متعبة... وصوتها ضعيف.

فقسوسة.. فقسوستي.. ماذا حدث؟

شيئا فشيئا كان جسد فقسوسة يذبل.. وضع جدي يده على رأسها ولاطفها.. جلدها صار متجعدا... ورخوا..

- فقسوسة ماذا جرى؟ قولي لي، هل أصابك أحد بأذى؟ هل هبط عليك الطائر الأسود؟
- وصلت إلى نهاية الطريق يا جدي.. سأفرقاك يا جدي العزيز.. سأموت، أرجو أن تعيش سعيدا هنا على جبل الجنة....

- فقسوستي.. حبيبتي.. لماذا تتركيني هنا وحدي؟ كيف سأعود إلى بيتي وأولادي وأحفادي؟ لا تتركيني هنا.

- جدي الحبيب، أنا لن أتركك هنا.. سوف تعود.. خذ مني هذه البذرة... وأزرعها في الأرض.. واسقها.. واعطف عليها كما عطفت علي.. وهي تحملك وتعيدك...

وهكذا... أنتظر جدي حتى المساء..

على قمة جبل الجنة نبت عرض من الفقوس...

وعليه فقوسة صغيرة.. سقاها.. وعطف عليها..

ونام بجانبها وصار يغني..

فقسوسة يا فقسوسة...

إن شاء لله تصيري عروسة

إن كنت بتحبيني

خذي وأعطيني بوسه.

أنت القاتل يا شيخ

دالية الكرمل.. صغرت.. صغرت كثيرا.

سهيل عز الدين لم يعد يعرف من أبناء قريته سوى عائلة صالح المعروف..

في السابعة والنصف صباحا يلبس ثياب الجندية ويتوجه إلى مقر قيادته، ويعود بعد الظهر، يبدل ثيابه، ويقصد دار عمه، وهناك يجلس بجانب سناء.. حول الموقد الذي يتوهج اللهب فيه، ويحكي عن بطولاته.. ويسمع محاضرات عن العائلات الدرزية في جبل الدروز..

وإلى متى سيظل يتحدث عن العملية العسكرية؟

عمه لم يعد عنده ما يحكيه، أفرغ كل ما في جعبته، أصبح فارغا، هو كذلك، عيناه امتصتا الشعاع المنبعث من الموقد، واحترقت السجائر على شفتيه دون توقف..

لم يحدث كعادته.. ظل يحرق السجائر.. ويحدق في الموقد..

وعندما كان يتحدث إليه أحد أبناء العائلة كان يهز رأسه موافقا أو معارضا دون أن تنطق شفتاه...

وفي الليلة التالية كان نفس المشهد..

سألته سناء:

- ماذا يشغلك يا والدي؟

لم ينبس.. هز رأسه.. وعض على شفته السفلى.. وظل يحرق السيجارة تلو الأخرى..

ولما سأله سهيل نفس السؤال.. لم يرد.. هز رأسه ولم يفهم أحد ماذا قصد.. ثم تحركت شفتاه.. تمتم بصوت خافت.. وأخذ يتحرك من مكانه.. ووقف.. وغادرهم متوجهًا إلى غرفة النوم.. تاركا زوجته حائرة!!

- إنه مضطرب منذ يومين.. لا أعرف ماذا حدث له.. غريب.. قال سهيل.. وبدأ يحدث خطيبته عن الأيام الثلاثة التي قضاها في السجن..

وبعد نصف ساعة.. فتح باب الغرفة.. أدار الجميع رؤوسهم بدهشة.. بعد أن توقفوا عن الحديث...

صالح المعروف.. اتكأ على الباب.. ثم انتصب.. وارتعدت يداه.. تقدم خطوتين.. اقترب من سهيل.. عض على شفته السفلى.. وأطرافه ارتعدت.. وظلت ترتعد.. وتوقف عن الحركة.. وحدق في سهيل.. ولاح رأسه على منكبيه.. وأنظار الجالسين ترتقب حركاته برعب وصمت.. ولما توقف عن الحركة.. وتحركت شفتاه صرخ في وجه سهيل:

- سهيل.. سهيل عز الدين.. أخرج من بيتي.... أخرج من بيتي...

انتفض سهيل.. ارتعد هو كذلك.. وطفح الدم في وجهه.. لم ينطق.. جف ريقه.. وصرخت سناء وهبت من مكانها.. وتقدمت نحو والدها..

- أبي.. ماذا حدث؟.. ماذا حدث!!

وجلس الأطفال مشدوهين حول الموقد.. ووقفت الوالدة وتقدمت نحو

زوجها.. أمسكت بذراعه.. وحاولت أن تجره إلى غرفته.. لكن صالح المعروف ظل يصرخ:

- أخرج من بيتي.. أخرج من بيتي..

وسقط على الأرض وهو يرتجف..

ماذا حدث؟ وماذا على سهيل أن يفعل؟

لا شيء.. لم يفهم شيئا.. مشهد من مسرحية يرفض أن يصبح بطلا من أبطالها..

ولما وقف.. وهمّ بالخروج كانت دموع سناء تغسل وجنتيها.. وشهقت كطفل في الثانية من عمره.. وتحرك نحو الباب وغادر بيت عمه.. ولما دخل غرفته كانت والدته قد فرشت له السرير.. فألقى بجسده المثقل على الفراش.. وراح يضرب بقبضتيه على الوسادة.. وهو يحاول أن يعرف:

- ماذا حدث؟ ماذا حدث لعمه صالح المعروف؟؟

وماذا حدث؟؟!

لا أحد يعرف.. حتى صالح المعروف نفسه لم يعرف ماذا حدث له!!

- هل سمعت شيئا عن سهيل؟ سألته زوجته

- لا شيء.. لا شيء.. سهيل إنسان طيب.. آسف لما حدث..

- وكيف تطرده من بيتك؟

- لم أقصد ذلك، لم أقصد ذلك.. لا تسأليني أسئلة سخيفة.

- ولكنك أسأت له!

- سأعتذر له، إنه إنسان مسكين.

ودفن جسده المنهك تحت الغطاء.. وأغمض عينيه.. ولما دخلت زوجته الغرفة الثانية.. كانت سناء تمسح دموعها بمنديلها المبلل. ثم ألقت برأسها على الوسادة.. ووضعت عليها والدتها الغطاء.. ومسحت جبينها بأناملها المرتعشة وحاولت أن تهدئ من روعها:

- هذه حالة عصبية، كانت تصيب والدك عندما كان سهيل يطلب يدك. لقد مضت هذه الحالة، قال لي والدك إنه سيعتذر لسهيل..

في صباح اليوم التالي اتصلت سناء بسهيل.. وأخبرته أن والدها سيعتذر له.. وأنه نادم على تصرفاته.. وأن هذه حالة عصبية عارضة.. ورغم أنه كان مصراً بألا يأتي لزيارتها.. إلا أنه.. بعد أن ألحت.. وتوصلت إليه.. بكت وسمعها تشهق عبر خيوط الهاتف.. عندها قبل خاطرها.. أشفق عليها.. لأنه يحبها.. يحبها.. ثلاث سنوات أمضاها في العذاب.. والألم.. هي كذلك تألمت.. هي قاست من العذاب.. فكيف يتركها بعد أن تحققت أحلامهما..؟

ولما عاد إلى البيت.. وبدل ثيابه.. توجه إلى بيت عمه..

كل شيء فيه كان يرتعد..

- ماذا سيحدث؟

كلما اقترب من البيت كانت الضربات تزداد في صدره.. ولما بدأ يصعد الدرجات الأربع المؤدية إلى مدخل الدار.. شعر بأن جسده ينهار، فاتكأ على الحائط، ثم طرق الباب، وانتظر لحظات إلى أن فتحت له سناء..

ابتسمت.. أرادت أن تضمه إلى صدرها.. أن تعانقه بحرارة.. لكن.. والدتها كانت تنتظر قدومه بفارغ الصبر ليعتذر له زوجها.. ولتعود المياه إلى مجاريها..

صافح سناء.. وصافح زوجة عمه.. وتقدم وهو يرتعد.. تردد قبل أن يدخل.. وعندما فتحت سناء باب الغرفة على مصراعيه ألفى نفسه يقف وجها لوجه أمام عمه..

- مساء الخير..

تحرك صالح المعروف.. احمرت عيناه.. ضغط على أسنانه وألقى على الأرض بقايا السيجارة المشتعلة بين أنامله.. وحدق في سهيل.. ظل يحدق فيه ثم صرخ:

- أخرج من بيتي.. أخرج من بيتي.. لا أطيقك.. لا أطيقك.. أخرج.. أخرج..

أدار صالح المعروف وجهه.. ضرب الكرسي بقدمه.. وتحرك إلى الغرفة الثانية..

شهقت سناء.. ثم أجهشت بالبكاء.. وارتعد الأطفال الصغار.. وأدار سهيل جسده.. تركهم يذرفون دموعهم.. وعاد إلى غرفته.. وألقى بجسده المنهك على السرير.. الذي فرشته له أمه.. وفي خلده يدور سؤال يبحث عن جواب:

- ماذا حدث لعمي؟.. ماذا حدث لعمي؟؟

- إن سهيل عز الدين إنسان شريف، إنه مسكين، مسكين، سأعتذر له سأعتذر له..

حالة عصبية عارضة..

مجنون.. مجنون عمك يا سهيل عز الدين.

أنت إنسان شريف.. ولكنه لا يطيقك في بيته.. أنت طيب.. أنت مسكين.. وهو لا يطيقك.. ماذا فعل له؟

راجع حساباتك.. تذكر ماضيك.. عقارب الساعة تتراجع إلى الخلف.. لا معنى للزمن.. كتب عليك أن تعيش معذبا حتى بعد أن تخطب سناء.. أمل حياتك.. وأمنيتك الأولى والأخيرة..

ماذا ستفعل بعد الآن؟

كيف سنواجه هذا الرجل المجنون؟؟

وحاول أن يقابل عمه للمرة الثالثة.. وحدث ما حدث في المرة الأولى والثانية.. وحاولت الوالدة أن تكشف عن سبب تصرفات زوجها.. ولم تفلح.. كل ما سمعته منه هو أنه يحترم سهيل عز الدين، وأنه إنسان مسكين، مسكين، ورغم جنون صالح المعروف.. فلا بد أن يتزوج.. ما دام إنسانا طيبا.. وشريفا..

ولكن يظل السؤال يبحث عن جواب:

- ماذا حدث لعمي.. ماذا حدث لعمي؟

لعن اللّه الشيطان.. لعن اللّه الشيطان..

لقد خطب ابنته رغما عنه..

لقد كان يعيش مع فتاة يهودية في القدس.. هكذا قالوا عنه..

لعن اللّه الشيطان.. لعن اللّه الشيطان..

إنه إنسان شريف.. شريف ومسكين.. ماذا عليه أن يفعل؟

ليخبر والديه.. ليقل لهم أن عمه لا يطيقه.. أو أنه مجنون.. ولا مكان للقسمة والنصيب..

ليطلع الشيخ فهد الفارس! ليتدخل هذا الشيخ الجليل مرة أخرى ويحل القضية.. قلوب الناس أصبحت من حجر.. تافه هذا العالم.. أصبح الناس حيوانات مفترسة.. كلنا نعيش في غابة مليئة بالوحوش.. نأكل بعضنا البعض.. نفترس.. نمزق أجسادنا بأظافرنا وأنيابنا.. ونظل نحافظ على كرامة العائلة..

اذهب وادفن رأسك في الرمل يا سهيل عز الدين.. اذهب وحطم رأسك في الصخر.. كتب عليك أن تقاسي وتتألم.. وستظل تتألم.. هكذا تصبح إنسانا في هذا المجتمع النتن.. فلن تتطور بسرعة الصاروخ.. ولن تكون مثقفا وشريفا وبطلا ومتمردا.. ولما بلغت السادسة والعشرين..

ما زلت في بداية الطريق.. الأفضل ألا تتزوج لأن زوجتك قد تلد طفلا مشوها تكون أنت قد جنيت عليه..

من الأفضل ألا تظل على قيد الحياة.. فلا جدوى لحياتك.. أنت انسان مسيّر ولا تستطيع أن تتحكم بنفسك ومصيرك..

لا معنى لوجودك.. أنت تافه.. تافه.. تافه.. اذهب إلى سناء وقل لها أن حياتك أصبحت جحيما لا يطاق..

اذهب إليها وقل لها من الأفضل أن تنتحر.. لتخلص نفسك من عذاب الدنيا.. فلربما انتقلت إلى عالم أفضل..

صالح المعروف إنسان مجنون.. ويكرهك.. قد يطلق عليك النار.. قد يقتلك.. فلماذا تحمله جريمة كهذه..

قل له: لقد انتهى كل شيء..

لقد انتهى.. انتهى كل شيء يا سهيل عز الدين..

***

رن جرس التليفون.. رفع سهيل السماعة.. وكانت سناء على الطرف الآخر.. لم ينطق.. تراقصت السماعة في يده المرتجفة.. وسرت في جلده قشعريرة.

كانت تشهق.. استجمع قواه المنهكة.. ثم حول السماعة من يده اليمنى إلى اليسرى..

استجمع قواه المنهكة.. ثم حول السماعة من يده اليمنى إلى اليسرى..

- هالو.. سناء.. سناء..

وظلت تشهق.. وتمالكته رجفة فارتعد جسده.. وانهار ما بقي لديه من قوة وشجاعة.. ثم تسرب إلى داخله صوتها المتقطع:

- سـ .. هـ .. ي .. ل..

- أنا بحاجة إليك.. تعال.. تعال يا سهيل..

- أين والدك؟

- لقد خرج.. تعال إلي الآن..

ووضع السماعة.. وخرج.. توجه إلى بيت سناء.. وكانت الطريق أمامه تمتد كامتداد آلامه.. كلما أسرع كلما ابتعدت عنه سناء.. وأسرع.. وحاول أن يسبق ظله.. وباغته اللهاث.. وتصبب العرق من جبهته.. فبلل ثيابه.. ولما وصل وجد سناء مستلقية على الأرض.. وكانت والدتها تمسح دموعها التي غسلت وجنتيها.. ولما انتصب كالشبح في مدخل الغرفة.. رفعت رأسها وهمست بصوت يكاد لا يسمع:

- سـ .. هـ .. ي .. ل.. تعال.. اقترب مني.. اقترب مني..

وحاول أن يخفي كل ما جال في صدره.. ليبعث الحياة في نفس سناء لكنه لم يستطع أن يزيل الشحوب عن وجهه.. ولم يستطع ان يوقف أنامله عن الإرتجاف.. وكان لا بد أن يسأل عن عمه.. أين ذهب؟ وكيف حاله..؟

- لقد خرج قبل ساعة ولم يقل إلى أين..

- إن تصرفاته غريبة.. غريبة جدا.. ولا أعرف ماذا حدث له.. يخرج من البيت ويعود بعد ثلاث أو أربع ساعات.. وعندما نسأله أين كان.. يهز رأسه.. دون أن يجيب.. طوال النهار يشرب القهوة ويحرق السيجارة تلو الأخرى.. وفي الليل يستيقظ مذعورا ، يتمتم أو يصرخ.. ثم يغط في نوم عميق ويعلو شخيره..

- ولكن.. لماذا.. لماذا.. لماذا..؟؟ (قاطعها سهيل)

- لا أحد يعرف يا سهيل.. إننا نخاف عليه.. نخاف عليه..

وأطرقت الوالدة وعض سهيل على شفتيه السفلى.. وهز رأسه.. وكانت سناء تحدق في خطيبها ودموعها تغسل وجنتيها.. ثم شعرت بنشاط.. فقامت وأحضرت كأسا من الشراب البارد وقدمته لسهيل وجلست وضلت تحدق فيه..

- هل أخبرت والديك؟

سألت الوالدة..

- كلا لم أخبر أحدا..

أجاب سهيل وناول سناء الكأس الفارغة..

- من الأفضل أن تطلعهما على كل شيء..

لم يجب سهيل على اقتراح زوجة عمه.. هناك موضوع أهم يشغل باله:

- ماذا قال عمي بالنسبة لزواجنا؟..

- إنه لم يقل شيئا.. لقد قال أنه يحترمك.. وأنك إنسان شريف.. إنا لا نفهم تصرفاته ولا نعرف ماذا يريد.. يحترمك ولكنه لا يطيقك في بيته..

وطال الحديث.. وجفت دموع سناء.. وعندما همّ بالعودة إلى البيت تمسكت به سناء.. وألحت أن يظل بجانبها..

واستعادت سناء نشاطها.. وابتسمت.. حاولت أن تستعيد ملامح وجهها المرحة.. وفي مخيلتها يلوح أمل وردي طالما تاقت إلى تحقيقه.. وهي تحاول أن تقنع نفسها بأنه سيتحقق.. سيتحقق.. رغم الواقع الذي تعيشه.. رغم أن قلوب الناس أصبحت من حجر.. حاولت أن تتناسى الواقع.. حاولت أن تهرب منه.. شعرت بالاختناق.. بالقلق.. بالألم.. امتزج مع البسمة التي ارتسمت على شفتيها.. وتنفست ملء صدرها.. وتعانقت رموش عينيها للحظات خاطفة.. وأحست أنها تحلق في سماء بلا نهاية.. وتعالت.. وتعالت.. وفجأة بدأت تهوي إلى الأرض.. وذلك بعد أن سمعت خطى أقدام ثقيلة تتسلل إلى الدار ولما فتح الباب كان صالح المعروف منتصبا خلفه بجسده النحيل ووجهه الشاحب وعينيه الحمراوين، حدق في الجالسين.. ارتجفت سناء وشهقت وارتبكت الوالدة.. وسهيل لم يتحرك من مكانه.

وقف صالح المعروف صامتا وقطب جبينه ثم تقدم خطوتين وهو يحاول أن يتكلم لكن شفتيه ارتجفتا وذبلت عينيه، فأشعل سيجارة وتقدم نحو سهيل ولم يصرخ هذه المرة، تكلم بهدوء:

- سهيل...!!

وأطبق جفنيه، كاد يهوي على الأرض، نهضت الوالدة وأحضرت له كرسيا، جلس، ثم ألقى بقايا السيجارة على الأرض وداسها بقدمه وتابع موجها حديثه إلى سهيل:

- لقد قلت لك لا تدخل بيتي.. أنت إنسان مسكين.. قم وأخرج من هنا!!

أجهشت سناء ورمت برأسها في حضن والدتها ولم يتحرك سهيل ثم تكلم صالح المعروف وطلب مرة أخرى أن يخرج سهيل من بيته، ولم يتحرك،

ظل جالسا في مقعده.

أحس هذه المرة أن كل شيء يتحرك في داخله، الآن يجب أن يعرف الحقيقة، يجب أن يواجه عمه، حتى على حساب كرامته:

- ماذا حدث يا عمي؟

سأل سهيل بهدوء وانتظر جواب عمه الذي كان منهكا وتتحشرج الكلمات على شفتيه

- ماذا حدث؟ (تمتم صالح المعروف) لا شيء.. لا شيء.. أنت إنسان مسكين.

- ألهذا السبب لا تطيقني في بيتك؟

ولم تفهم سناء ما يدور حولها وكيف تغير والدها هذه المرة، يمكن التحدث معه على الأقل، إنه يبدو هادئا وانتهزت حالة والدها هذه فسألته:

- هل أساء لك سهيل؟

ولم يجب ابنته على سؤالها ، هبّ من مكانه وصرخ:

- سهيل أخرج من بيتي.. أخرج من بيتي، لقد قلت لك أخرج.. أخرج.. أخرج!

ثم تركهم وتوجه غلى الغرفة الثانية وطرق الباب خلفه بعنف وألقى بجسده المثقل على الأريكة، وقامت زوجته ودخلت عليه وهي تحاول أن تهدىء من روعه ثم قام سهيل ووقف أمامه وخاطبه:

- لن أخرج من بيتك قبل أن تقول لي كل شيء.. يجب أن أعرف السبب، يجب أن أعرف السبب!

ارتفع صوت سهيل ونهض صالح المعروف بعد أن عاد إليه الهدوء وأخذ يدور في أرجاء الغرفة وهو يتمتم:

- أنا.. أنا إنسان مجنون.. أنا مجنون.. مجنون، لقد فقدت كل شيء، لا جدوى لحياتي، لا تنظر إلي، لا تطلبوا مني شيء، دعوني انتظر ساعتي لوحدي، دعوني أتألم لوحدي، لا تشاركوني حزني وعذابي.. أنا مجرم، ، أنا قتلت.. قتلت.. قتلت..

تسمّر سهيل في مكانه وأجهشت سناء وهي تضرب بقبضتيها على رأسها وصاحت الوالدة:

- يا نبي شعيب! يا نبي شعيب (تعينا) على الصبر.. ألقى صالح المعروف بجسده على الأريكة وسعل وضرب بقبضته على الحائط ثم وقف وخاطب سهيل:

- سهيل .. أنا إنسان محطّم، كل أملي هو أن أموت في أسرع وقت، وبعد أن أدفن في التراب تستطيع أن تتزوج سناء وأنني أتمنى لكم حياة سعيدة، لا حاجة لأن تذكرني بعد موتي لأنني كنت قاسيا ولأن قلبي من حجر، أانا لست أهلا لاحترام الناس وعطفهم لأنني لم أعطف على أولادي، لا تدفونني بين الأموات الشرفاء، أحرقوا جثتي، ألقوها في البحر، في الغابات لتفترسها الوحوش، لا معنى لوجودي فدعوني أتألم لوحدي ولا تشاركوني آلامي لأنكم لم تشاركوني في جريمتي..!!

توقف صالح المعروف عن الحديث، سقط على الأريكة، ثم تمتم ولم يفهم أحد ما نطقت شفتاه، وصرخت سناء:

- ماذا فعل أبي؟ ماذا فعل أبي؟...

وقف سهيل مشدوها يحدق في عمه وكان يبدو له كبطل مسرحية أنهى دوره وينتظر أن يسدل الستار ويصفق الجمهور. وظل سؤال حائر يضرب جدران الغرفة: أية جريمة؟ ومن الذي قتل؟ والجواب كان يعرفه صالح المعروف فقط ولم يبح لأحد، ولما ألحت عليه زوجته أن يكشف كل ما يخفيه عنها، صرخ في وجهها وعاد ثانية يطلب من سهيل أن يخرج من بيته.

ومن المجرم؟ ومن القاتل؟ صالح المعروف أم سهيل عز الدين؟

وإذا كان صالح المعروف فما ذنب سهيل عز الدين؟ وإذا كان سهيل هو القاتل.. ولكن سهيل عز الدين انسان شريف، لم يقتل، لم يقتل أحدًا. ماذا يدور في بيت صالح المعروف ضابط حرس الحدود سابقا؟ كيف ستنتهي قصة حب عنيفة دامت ثلاث سنوات؟

مأساة، مأساة جديدة يا سهيل عز الدين..

الهاوية.. الهاوية، الجحيم، الموت، العذاب، لن تهرب، لن تفلت، كُتب عليك أن تعيش معذبا وستعيش معذبا شئت ذلك أم أبيت، كل شيء قسمة ونصيب، الحياة قسمة ونصيب، الأمل.. السعادة، العذاب قسمة ونصيب، حتى الموت قسمة ونصيب آمن.. آمن يا سهيل عز الدين لكي تظل على قيد الحياة.

صالح المعروف أخذ يسعل دون توقف، سقط على الأرض، كان شاحبا كاصفرار الموت... تمتم ولم يفهم أحد ما قال أحضرت له زوجته كأسا من الماء، شرب، ذبلت عيناه ثم فتحهما وحدق في ابنته التي ارتعدت، أذبل عينيه ثانية وطلب الماء وشرب وفتح عينيه وحدق في سهيل عز الدين وتمتم ولم يفهم أحد ما تفوه به: وهمس سهيل: سأستدعي الطبيب.

سمعه صالح المعروف.. هز رأسه مُصّرا على الرفض وتمتم:

- دعوني أمت لوحدي.. دعوني أمت، لا تشفقوا علي وتراخت أطرافه وذبلت عيناه وتصبب العرق من جبينه وهبط على الأريكة وعندما نادته زوجته (صالح، صالح) ظل صامتا، تحسست جبهته وعندما أيقنت أنه في نوم عميق طلبت من ابنتها وخطيبها أن ينتقلاه إلى الغرفة الثانية، فعلا ما طلبته الوالدة وانتقلت هي كذلك وجلس الثلاثة يحدقون في بعضهم البعض دون أن يعرف أحد ماذا حدث لصالح المعروف، بعد دقائق سمع صوت من الغرفة، كان همسا خافتا، هبّت الوالدة ولحقها سهيل وسناء وكان صالح المعروف يحاول أن يرفع رأسه ويطلب الماء.

بعد أن شرب وجف العرق على جبهته، خاطب سهيل:

- أحس أنني وصلت آخر الطريق، غدا قد لا أكون بينكم، قبل أن ألفظ انفاسي سأكتب لكم وصيتي فأذهب يا سهيل إلى الشيخ فهد الفارس وأطلب منه أن يحضر حالا.

وتوقف عن الحديث وهو يحدق بابنته تارة وفي زوجته تارة أخرى بينما استدار سهيل وتوجه إلى الشيخ فهد الفارس يدعوه للحضور كما طلب منه عمه.. وأسرع في الطريق وكان يخشى ألا يجد الشيخ في بيته، وارتعد

فزعا وتصبب العرق من جبهته وفي خلده تاه سؤال يبحث عن جواب:

- ماذا حدث لعمي.. ماذا حدث لعمي؟!

وكان الشيخ فهد يجلس في صدر ديوانه الذي غص بالمشايخ، ناداه سهيل وحدثه عن حال عمه وطلب منه أن يحضر حالا.

ارتبك الشيخ وكأنه لا يصدق ما سمعت أذناه، ثم استأذن من ضيوفه ووضع عباءته على كتفيه وأسرع.. أسرع الى بيت صالح المعروف

- ماذا حدث...؟ سلامتك يا (أبو نديم)

- لقد انتهت رحلتي يا شيخ.. دقائق معدودة بقيت من حياتي ولن ألفظ انفاسي قبل أن اقدم لك كلمة شكر وأعتراف بالفضل على معروفك ولا بد أن أوصيك بأولادي.

(توقف صالح المعروف عن الحديث وكان شفتاه ترجفان ثم تابع قائلا):

- أولادي في ذمتك يا شيخ، أرجوك أن ترعاهم وتحافظ عليهم.

وأحس الشيخ بأن دموعه تباغته فاستجمع قوته وشجاعته وحاول أن يشجع صالح المعروف...

الحياة قضاء وقدر، كلنا لذات المصير عاجلا ام آجلا والأعمار بيد الله.

- الأولاد، الأولاد يا شيخ.. وسكت صالح المعروف وترغرغت عيناه بالدموع ثم انفجر باكيا وأخذ يضرب بقبضتيه على وجهه وصرخ:

- أنا أخطأت، أنا أخطأت، أخطأت.. سامحني يا رب على هذه الخطيئة، سامحني يا رب على هذه الجريمة.... سامحني يا رب على هذه الخطيئة.. سامحوني يا أولادي، سامحوني.. لا تدعوني أفارقكم قبل أن تصفحوا عني، سأقابل ربي فاتحا صدري لحكمته ومشيئته أما .. أما أنتم فاذكروا أنه كان لكم أب أحبكم كثيرا رغم خطيئته، سامحوني.. سامحوني!!

وصاح الشيخ فهد الفارس:

- ماذا تقول؟ ماذا تقول؟؟

وألقت سناء برأسها على صدر أمها وأجهشت بعويل وهي تصرخ: ماذا حدث.. ؟ ماذا حدث يا رب؟! وحاول الشيخ فهد أن يستجوب أبا نديم طالبا منه ان يكشف له عن كل ما يخفيه لكن أبا نديم هز رأسه ومسح دموعه عن وجنتيه وطلب من زوجته أن تناوله علبة السجائر، فأخرج سيجارة أشعلها وألقى بعود الثقاب على الأرض وامتص الدخان دون أن يرحم رئتيه وسعل.. وسعل مرة أخرى ثم خاطب الشيخ فهد:

- ضميري يقتلني الآن، ضميري تحول الى بندقية رصاصها يمزق لحمي ومن الأفضل أن أموت لوحدي.. من الأفضل أن أموت لوحدي..

وتوقف صالح المعروف عن الكلام، وأشعل سيجارة أخرى ثم طلب من زوجته أن تعد القهوة للشيخ فهد وقال:

- قد يكون هذا آخر فنجان قهوة أشربه بصحبتك يا شيخ، وابتسم صالح المعروف ابتسامة حزينة ثم طلب من سناء أن تنادي

شقيقيها (زيد ومفيد) الصغيرين، ولما دخلا قبلهما في وجنتيهما وقال للشيخ:

- اسمع يا شيخ إنني لا أخاف مواجهة خالقي ولكن يعز علي مفارقة أولادي دون أن أوصي أحدا عليهم فأرجو أن تعتبر سناء ومفيد وزيد ثلاثة من أبنائك، دائما كنت اتمنى أن أراهم في شبابهم مثقفين شرفاء ومخلصين لأهلهم ومجتمعهم وأرجو أن تحقق بعد موتي ما لم أحققه في حياتي، لقد تركت في **عرمان** زوجة وطفلين صغيرين وأنا لا أعرف ماذا حدث لزوجتي ولابنتي (كاملة).

وتوقف صالح المعروف وأغمض عينيه وصرخ:

- كاملة، كاملة أين أنت الآن؟ .. أين أنت الآن..؟

حاول أن يقف على رجليه لكنه تهاوى على الأرض وصرخ:

- نديم، ابني نديم سامحني، سامحني، لم أقصد ذلك .. لم أقصد ذلك.. أنا ... أنـ.. قتلتك، سامحني.. سامحني.. اغفر لي!!

ماذا تقول يا أبا نديم؟ كيف قتلت ابنك؟ لقد تركته قبل سبعة وعشرين عاما ولم تره منذ ذلك الحين، كان في حضن والدته فكيف قتلت ابنك؟ كيف حدث ذلك؟

- أنا قتلته، أنا، لو أني لم أتركه في **عرمان**، لما، لما قتل..

- من الذي قتله؟ من الذي قتله؟

صاح الشيخ فهد ولما فتح صالح المعروف عينيه كانت دموع سناء تبلل ثيابها والوالدة التي لم تفهم ما يدور حولها تمتمت: (بهونها الله)، وحدق سهيل في عمه وخفق قلبه في صدره ثم ناداه صالح المعروف وأمره:

- اذهب إلى البيت وأحضر رزمة الأوراق

وقف سهيل مشدوها، قطب جبينه، ارتعد، ارتجفت أطرافه، سقط على الأرض، بكى... بكى كالأطفال وصرخ بأعلى صوته:

- ولكن ما ذنبي أنا؟

وأمره صالح المعروف ثانية بأن يذهب ويحضر رزمة الأوراق، وتقدمت سناء من خطيبها وسألته عن هذه الاوراق ولم يجب، ظل يصرخ (ما ذنبي أنا؟) ونهض، وذهب إلى البيت، ودموع سناء تغسل وجنتيها والوالدة تهمس: (بهونها الله.. بهونها الله)، ولما عاد سهيل عز الدين ناول رزمة الأوراق إلى عمه ونثرها على الأريكة وأخرج من بينها صورة (رجل في ثياب الجيش يحمل طفلا على «ايده اليمين»، وبجانبه امرأة تحمل طفلا على «ايدها اليسار» .. هاي الصورة صورنا إياها عمك سليم قبل ما تركنا أبوك بيومين)

وحدّق صالح المعروف في الصورة وبكى.. وبكى، وناولها للشيخ فهد الفارس.

- أنظر إلى هذه الصورة «ابني نديم على ايدي اليمين» .. لقد مات، مات.. قتله...

وعلا بكاء صالح المعروف وصرخ وضرب رأسه في الحائط .. وضرب الأريكة بقبضته، هزها هزات عنيفة كاد أن يحطمها، وسقط سهيل

عزّ الدين على الأرض، وسقطت سناء بجانبه والوالدة ظلت تهمس (بهونها اللّه.. بهونها اللّه). وذرفت دموعها وبكت دون توقف.

ولما حدق الشيخ فهد في الصورة قطب جبينه وحاول أن يعرف كيف وقعت هذه الصورة في يدي سهيل عز الدين لكن صالح المعروف لم يدعه يفكر طويلا.

- لقد مات ابني نديم... قتله .. ق.. ت.. ل.. ه سهيل عز الدين، ولكن أنا المذنب، أنا دفعت به إلى الموت وأنا أحمل جريمة سهيل عز الدين.. لو أنني لم أترك عائلتي في عرمان لما قتل ابني في ليلة مظلمة على الحدود السورية...!!؟

ووقف سهيل، أراد أن يهرب وهو يقول: وماذا ذنبي أنا؟ وماذا ذنبي أنا؟؟ لكن الشيخ فهد الفارس أمسكه بذراعه وأجلسه على الأريكة وأزاح العباءة عن كتفيه وأراد أن يقول شيئا لكن صوت سناء منعه عن ذلك.

- سهيل ... طلقني، طلقني يا سهيل.. أنت قتلت أخي فكيف سأعيش معك تحت سقف واحد، كيف ستلامسني يداك اللتان انتزعتا روح أخي من جسده؟! سأظل أشاهد في عينيك جثته التي مزقها رصاص بندقيتك، سأسمع حشرجته كلما تحركت شفتاك، طلقني، فلا جدوى لحبي ولا أمل أن أعيش معك سعيدة.

وأمسكت الوالدة ابنتها وهي تهوى على الأرض، ضمتها إلى صدرها وتناول الشيخ عباءته ووضعها على كتفيه، ثم تكلم الشيخ زعيم القرية:

- سهيل عز الدين.. أنت لم تقتل، أنت بريء.. وأنت يا أبا نديم لم تخطئ ولم تدفع بابنك إلى الموت.. أنا .. قتلته، أنا قتلته..

وتحرك الشيخ خطوتين إلى الوراء وظل يهز رأسه ويتمتم وتركهم يبكون ويصرخون وغادر الغرفة، غادر بيت صالح المعروف.

وطأطأ رأسه، كاد يمسح به الأرض وعاد إلى ديوانه العامر، ولم ير أحدا في الطريق.. لم يسمع صوت أحد، وعندما وصل ساحة الدار كان في انتظاره ابن أخيه يلبس ثياب الجيش ويعلق بندقيته على كتفه، جاء ليودع عمه الشيخ قبل أن يعود إلى فرقته المرابطة في هضبة الجولان. ولما مد يده وصافحه سمع الشيخ داخله صوتا هزه هزات عنيفة:

إن ابن أخيك يحمل جريمة في عينيه.. وهو لم يقتل.. لم يقتل.... أنت القاتل يا شيخ.. أنت القاتل يا شيخ.



مل قيل فيه وعنه

مقالات نشرت عن أعماله

الشجرة التي تمتد جذورها إلى صدري
لبنة من لبنات الأدب العربي الساخر
مقدمة الكتاب بقلم الدكتور إميل توما

يحتل الأدب العربي الفلسطيني مكانا مرموقا في خريطة العالم العربي الأدبية.

وهذا يعود إلى أمرين: إلى زخم الحركة القومية العربية الفلسطينية التي أصبحت، بمنجزاتها، تسير في صفوف طلائع حركة التحرر القومي العربية العامة وتلهم الأدباء والكتاب.. وإلى غزارة منتجي هذا الأدب العربي الإقليمي.

ومع هذا فتقويم هذا الأدب يزداد تعقيدًا لسببين:

الأول: كثرة المدارس الأدبية الشائعة بين القصصيين والشعراء الفلسطينيين.

والثاني: لأن هذا الأدب بدأ يتبلور بعد نكبة عام 1948 في ثلاثة أطر - في المنافي حيث يتواجد الفلسطينيون في الأقطار العربية.. وفي إسرائيل حيث تمسك جزء ضئيل من الفلسطينيين بأرضهم ووطنهم ورفضوا التشريد.. وفي المناطق الفلسطينية التي احتلتها إسرائيل في حرب حزيران 1967 - الضفة والقطاع.

وبديهي أن جذور الأدب العربي الفلسطيني المعاصر، المتطور في الأطر الثلاثة، تمتد عميقا في التربة الفلسطينية وقد بدأت في نموها الحديث أيام الانتداب البريطاني حين كان المجتمع العربي الفلسطيني يتماسك قوميا

من ناحية ويكافح الإمبريالية والصهيونية والرجعية من ناحية ثانية.

ولهذا ليس من قبيل المصادفة أن يقرر كثير من الادباء الفلسطينيين المعاصرين أنهم نبتوا من جذوع ذلك الأدب السابق واستمدوا غذاءهم من ثمار أشجاره.

ولا نقصد بهذا الكلام أن نغمط حق التراث الأسبق - نتاج الأدباء الذين ظهروا ايام السلطنة العثمانية الغاربة فقد انتسبوا إلى الطلائع التي شقت الطريق أمام الأدب الحديث في مختلف أنحاء العالم العربي.. إنما نقصد أن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وما تميزت به من تجزأة الأقاليم العربية «العثمانية» وفرض الكيانات الإقليمية العربية تعسفا ومنها الكيان العربي الفلسطيني هي طبعت الأدب العربي الفلسطيني بطابعها الحاسم.

وهذا يعني أن لبنات الأدب الفلسطيني الأولى التي يواصل الأدباء المعاصرون إضافة لبنات جديدة عليها جبلها السابقون في ظروف التصدي لإمبريالية الانتداب البريطاني، وفي أوضاع مواجهة الصهيونية، أيديولوجيا وممارسة.

ومع هذا فلا بد لنا من أن نؤكد أن الأدب العربي الفلسطيني مثله مثل غيره من الأدب العربي الإقليمي نهل من منابع التراث العربي القديم.. كما تأثر بالمناهج التي ابتكرها الأدباء المحدثون في العالم العربي.

لا تخفى علينا مخاطر التعميم ولكنها مفيدة في بعض الأحيان وتساعد على تحسين الرؤيا.. وهكذا فإذا لجأنا إلى التعميم استطعنا أن نوزع الأدب العربي الفلسطيني على مرحلتين: المرحلة الأولى تمتد بين النكبة

الأولى في عام 1948 والنكبة الثانية (وتسمى اعتباطا نكسة!) في عام 1967.. والثانية تمتد منذ نهاية المرحلة الأولى حتى يومنا هذا.

في حين نما الأدب العربي الفلسطيني في المرحلة الأولى في إطارين - في إسرائيل.. وفي المنافي في الأقطار العربية وعلى التربة الفلسطينية - الأردنية، نما هذا الأدب في أطره الثلاثة، كما أسلفنا: في المنافي وفي إسرائيل وفي المناطق الفلسطينية المحتلة منذ عام 1967.

ونستطيع أن نقرر أن المرحلة الأولى شهدت عملية نمو معقدة بدأت بعد فترة الضياع القصيرة التي مر فيها الشعب العربي الفلسطيني بعد نكبته وتشرده في عام 1948.. وحتى جزء الشعب العربي الفلسطيني، الذي بقي على أرضه وأفاق على نفسه في إطار الدولة الأردنية الهاشمية لم يتخلص من الشعور بالضيم وبأن المؤامرة الإمبريالية - الصهيونية الرجعية حرمته من حق تقرير المصير وإقامة دولته المستقلة على تربته الوطنية.

وطبيعي أن يبدأ الشعب العربي «يلملم» نفسه حتى يخرج من حالة اليأس الناجمة عن هزيمة أمانيه وتطلعاته.. وفي هذه العملية قام الأدباء العرب الفلسطينيون بدور هام بعد أن استيقظوا من دوامة التمزق والسقوط.

وفي رأينا اليوم، وفي وسعنا أن نلتفت إلى الوراء ونرصد المسيرة بوضوح أتم، أن الأدب العربي الفلسطيني بفرعيه: الفرع النامي في المنافي ومواقع التواجد الفلسطيني، والفرع في تربته في إسرائيل، اتسم بملامح مشتركة ومعالم مميزة.

ونؤكد هذا لأننا نعرّف الأدب العربي الفلسطيني تعريفا ملتزما.. ولا ندخل في هذا الإطار الأدب الذي صدر عن فلسطينيين، ولا ندخل في هذا الإطار الأدب الذي صدر عن فلسطينيين، إلا أنه هام في متاهات

صحراوية لا صلة قربى بينها وبين الشعب العربي الفلسطيني.

وأما الملامح المشتركة التي شاعت في الفرعين او الجدولين فتجسمت بالإخلاص للشعب الفلسطيني ولحقوقه - وإن لم تكن دائما ملموسة جدا - والثقة بمستقبله ومصيره..

ولهذا لم يكن غريبا أن يفوح عبير البرتقال ويلوح غصن الزيتون وتنتصب جبال الكرمل ويتراءى مرج بن عامر في شعر شعراء الجدولين.

كما أنه كان بديها أن ينفجر الحقد على الإمبريالية والصهيونية في أدب أدباء الفرعين... وأن يلتقوا على صعيد إنجازات الحركة القومية العربية الثائرة..

أما المعالم المميزة ففرضتها الظروف الموضوعية.. فأدباء فلسطين في إسرائيل واجهوا تحديات سياسة الاضطهاد القومي والتمييز العنصري الصهيونية وحركهم نضال شعبهم ليتصدوا لهذه التحديات ولأخطار الاقتلاع من التربة الوطنية والتبديد القومي. وحين كتبوا عن عودة اللاجئين لم يكن ما كتبوا حلما بأطياف بعيدة بل أملا في لقاء على تربة الوطن.

ومقابل هذا من الممكن أن نصف نتاج الأدباء الفلسطينيين في المنافي ومواقع تواجدهم بأدب الحنين.. أدب التغني بيافا وحيفا.. أدب الذكريات والتطلعات..

ولا نريد بهذا الكلام أن نوحي بأن أدب الحنين كان أدبا «غنائيا» يائسا ففي نبضات بعضه اشتد دفق النقمة على الإمبريالية والصهيونية والرجعية.

ولعل من أشد صفحات أدب هذه الفترة تأثيرا كانت صفحات «الخيام».. تلك الصفحات التي وصفت آلام اللاجئين ومأساتهم من زوايا إنسانية وفي الوقت ذاته ثورية.

وقبل نهاية هذه المرحلة بقليل لاحت في الأفق الحركة القومية العربية الفلسطينية «الجديدة».. ونقصد بهذا القول أن الحركة القومية الفلسطينية أيام الانتداب بقيادتها التقليدية الرجعية اختفت من الوجود ولم يبق منها غير يافطة «الهيئة العربية العليا» في بيروت ولذلك كان قيام منظمة التحرير الفلسطينية في عام 1964 إيذانا بقيام حركة قومية فلسطينية «جديدة» بمبناها وعوامل تطورها.. ولن يتهمنا أحد بأننا في اختيار وصف «جديدة» لنفخر بالحركة القومية العربية الفلسطينية أيام الانتداب التي سطرت صفحات كفاح وطني بطولية كان أنصعها ثورة 1936 التي ألهمت شعراء وكتاب فلسطين آنذاك وأنطقتهم من أجمل النتاج الأدبي.. إنما أردنا بهذا أن نحدد الخط الفاصل بين مرحلتين.

ويقينا أن نشوء منظمات فلسطينية في عشية قيام منظمة التحرير.. والتطورات التي أعقبت ذلك وأهمها طرح برنامج الكفاح المسلح من أجل حقوق الشعب العربي الفلسطيني استنفر الأدباء الفلسطينيين وطبع نتاجهم بطابعه.

ونحن نعيش اليوم في ظروف المرحلة الثانية بين 1967 والآن.. في هذه المرحلة ساد الوعي الطاغي بالفلسطينية.. لقد أصبح الوعي بالهوية الفلسطينية بمثابة ردة فعل على الوصاية «العربية» (القصد الحكام العرب).. وعلى احتلال الضفة والقطاع خلال حرب حزيران 1967.. وعلى القضاء والقدر الذي ضغط محافل فلسطينية واسعة فدفعها إلى الإستسلام..

وانقلبت المعاني.. وأصبحت كلمة فلسطين تثير الفخر والإعتزاز بعد أن كانت في يوم مضى تحمل في ثناياها معاني الإزدراء أو الرحمة التي لا تقل سوءا عن الإزدراء.

ومع الأيام نما الادب الثوري الفلسطيني واختفت منه لمسات التشاؤم.. وحتى أدب الحنين اكتسب أبعادا نضالية.

واختلفت التطورات في الأدب العربي الفلسطيني في الأطر الثلاثة.. ولكن أدب النضال المسلح ميّز نتاج الأدباء في المنافي والمناطق العربية الفلسطينية المحتلة في الضفة والقطاع. وهنا ظهرت ملامح سلبية، لعل أخطرها ميل بعض الكتاب الفلسطينيين إلى اعتبار النضال المسلح هدفا بحد ذاته لا وسيلة لتحقيق حقوق الشعب الفلسطيني القومية.. وتبلور هذا الاتجاه في نتاج ينطلق من فكرة «أصبحت البندقية هي القضية»!

ولا شك أن الناقد يستطيع أن يحدد مميزات الأدب العربي الفلسطيني في المنافي من ناحية والضفة والقطاع المحتلين من ناحية ثانية وإسرائيل من ناحية ثالثة.

ونعتقد أن الأدب الفلسطيني في الضفة والقطاع المحتلين يمتاز على غيره برائحة الوطن.. ويزخم مكافحة الاحتلال على المستوى اليومي على الساحة الفلسطينية الأصيلة..

والسؤال الذي نريد أن نطرحه، ونحن نقدم هذه المجموعة القصصية من تأليف سلمان ناطور، ما هي مكانة الأدب العربي الفلسطيني في إسرائيل في خريطة الأدب الفلسطيني الشاملة؟

قلنا أن الأدب العربي في إسرائيل اتسم بالإخلاص للشعب الفلسطيني ولحقوقه القومية.. وقلنا أنه أعرب عن معركة الجماهير العربية هنا من أجل الوجود القومي على التربة الوطنية..

ولكن علينا، وقد انتقلنا من التعميم إلى التفصيل أن نؤكد أن معلم الإنتماء الفلسطيني في نتاج الأدباء العرب في إسرائيل تعمق واكتسب أبعادًا ملموسة مع التطورات التي عصفت بمنطقة الصراع العربي الإسرائيلي.

وهكذا في حين أبرز الأدباء الفلسطينيون في إسرائيل، في السنوات الأولى، انتماءهم القومي العربي، لإحباط محاولات السلطة الصهيونية إشاعة العدمية القومية، شددوا في السنوات التي أعقبت حرب حزيران 1967 على هويتهم الفلسطينية - العربية.

ونعتقد أن الأدباء الفلسطينيين في إسرائيل، وخاصة الشعراء منهم، قاموا بدور ضخم، بعد نكبة 1967 ، في رفع معنويات الشعوب العربية التي قاست بعنف تمزق النكبة - العربية لا الفلسطينية - لأنهم انطلقوا من تربتهم الوطنية، وأدركوا، بعد عقدين من تحدي حكام أسرائيل وأيديولوجيتهم وممارستهم الصهيونية، إن النكبة ظاهرة عابرة في حياة الشعوب الحية، ومن بينها الشعب العربي الفلسطيني وسائر الشعوب العربية.

وحق علينا عند هذا الحد أن نقرر أن الأدب العربي الملتزم في إسرائيل طوّر أدبا اجتماعيا وسياسيا ساخرا ألمح إليه الشعر العربي الفلسطيني أيام الانتداب - وإن لم يتوقف عنده القصصيون.

ونعني بهذا الكلام أن عددا من القصصين العرب نسجوا خيوط قصصهم حول طبائع البناء الاجتماعي في القرى العربية التي بقيت قائمة في إسرائيل بعد حملة هدم مئات القرى العربية في الجليل والساحل والداخل.. وبلهجة هزلية لاذعة سفّه هؤلاء القصصيون نظام المخترة وبعض التقاليد الاجتماعية الآسنة التي تعود إلى عقلية الاقطاع العثماني وتقاليده.

وأهمية هذا الأدب كبيرة.. لأنه نجح في التقاط صور القرى العربية قبل النكبة ثم صورها وهي في مرحلة الانتقال من عهد إلى عهد كما عرّى نظام الحكم الإسرائيلي «المتنور» الذي أعلن ولاءه لمبادئ «الاشتراكية الديمقراطية»! ولكنه في القرية العربية خشي القوى الشعبية بلا هوادة وساند كل ما هو رجعي وحمائلي وطائفي متعفن.

وتباين هؤلاء القصصيون في تطورهم فبعضهم لم يكتف بالوقوف عند مرحلة انتقاد الأوضاع القروية الساخر أو رسم مجريات الأمور فيها بقالب هزلي «يبهدل» المخاتير وأمثالهم.. بل انتقل إلى تصوير الانقلاب في القرى العربية بصعود القوى الشعبية إلى مكان الصدارة في حياتها..

ولا نعتقد أن لجوء الأدباء العرب في إسرائيل إلى الأدب الساخر نما نتيجة الخوف من السلطة - وإن كنا لا نستبعد أن ذلك كان عاملا في توجه نفر ضئيل منهم - بل ابتكره أدباؤنا لأنه كان سلاحا قويا في مقاومة الاضطهاد القومي.. وأسلوبا ناجعا في سحق أعوانه وإسقاطهم عن «عروشهم»!

وفي هذا الصدد نستطيع أن نقرر أن الأدب العربي الساخر أراد أن يقوم بدور الكاريكاتير السياسي - الاجتماعي في ميدان النثر.. ويقينا أن الجماهير العربية أقبلت على هذا الأدب لأنها أدركته بحسها المرهف وكان في وسعها أن تتجاوب معه لقربه من ذوقها الجمالي..

ويؤكد هذه الحقيقة شعبية أدب الأدباء الساخرين أمثال إميل حبيبي ومحمد نفاع ومحمد علي طه..* (*: بدون الدخول في التفاصيل من الممكن أن نقرر أن القصصي مصطفى مرار يمثل الاتجاه الأول أي الوقوف عند النقد الساخر.. بينما من البارزين في المدرسة الثانية محمد علي طه.. والواقع أن هذا اللون من الأدب على غاية من الأهمية ويستنفر اهتمام النقاد.)

والواقع أن سلمان ناطور ينتمي إلى هؤلاء الأدباء.. وهذا ما أكده في كتاباته الصحفية.. ومجموعته القصصية «الشجرة التي تمتد جذورها إلى صدري» التي نضعها في أيدي القرّاء الآن.

من الصعب دائما أن ينفذ الناقد إلى حياة الأديب، ويستكشف معاناته الحياتية.. فهناك عوامل لا حصر لها تؤلف وحدات ذهنية تخلق مناخ النتاج الأدبي.. ولعل سلمان أراد أن يساعدنا على ذلك في «مقدمة» هذه المجموعة حين كتب «خواطر فلسفية» او «تأملات ذاتية» بعنوان «الخلاص من خمس حالات عاطفية».. وأراد بها أن يصور مسيرته الفكرية.. فقد بدأها بهذه الجملة: «لقد علمني غيري أن أكشف عن هويتي بعد أن أدفن رأسي في الرمل».. وأنهاها بعد أن عبر ثلاث حالات أخرى معقدة «انتفضت.. وطهرت نفسي فتبين لي أن جذورها تمتد إلى صدري.. شعرت بالطمأنينة وتخلصت من حالاتي العاطفية» (ص28).

والواقع أن سلمان قرر مكانه حين كتب روايته «أأنت القاتل يا شيخ».. ففي هذا الكتاب دان الزعامة الدرزية التقليدية التي خنعت للسلطة وعملت على سلخ الطائفة الدرزية عن قوميتها العربية وعلى هذا الضوء لا يمكن اعتبار الرواية «جزئية» أي درزية بل قومية عربية.. فهنا يؤكد الجزء الكامل.

وفي رأينا أن هذه المجموعة القصصية تتحلى بنكهة خاصة لأن بعض قصصها اجتاز العهود الثلاثة التي مرت على البلاد: العهد العثماني والعهد الانتدابي البريطاني والعهد الاسرائيلي، وأحسن استخدام اللفتات إلى وراء أو ما يسمى بفن السينما «فلاش باك».

وهكذا ففي قصة «مجنون يا خواجة» ينتقل القارئ، وهو يقف في ساحة «الدالية» بلدة الكاتب سلمان، من صورة إلى صورة، ومن حركة إلى حركة، ويكتشف بداية التسرب الصهيوني إلى هذه القرية «الدرزية».. ثم تنقله لفتة العجوز إلى العهد التركي.. ويعيده الحديث عن المخاتير إلى عهد الانتداب.. ويصل في النهاية إلى العهد الإسرائيلي وقد تصدر شلومو ديوان المختار.

ولنمثل هنا على أسلوب سلمان الساخر في الجمع بين الومضات التي تبدو مفارقات غريبة إلا أنها تحمل في ثناياها لوحة الممارسة الصهيونية الفكرية كما يرسمها قلم الكاتب الكاريكاتيري:

«على سبع تلال ترتفع عشرات الأمتار عن سطح البحر تقع في بلاد العجم قرية صغيرة اسمها دالية.. ورغم أنها لا تبرز على الخارطة إلا أنها معروفة في جميع بلدان العالم.. لأنها جميلة.. ولأن أهلها ربطوا مصيرهم بمصير «أهل الذمة والوجدان» ولأنها أنجبت كل الأنبياء.. ولأن فيها مصنعا للكلسات النسائية وآخر للفرو..» (ص31)

ويظهر المغزى الساخر من هذا الربط بين الأنبياء ومصنع الكلسات الذي يفتخر به دعاة «التطور» في العهد الإسرائيلي حين يمضي الكاتب في ذكر ما كتب عنها في كتب التاريخ ويكتب: «وورد ذكرها في كتاب الحاخام يحزقئيل ابو دبوس» حيث كتب عشرات الصفحات مسلسلا تاريخها منذ أيام «البيت الأول» (مملكة إسرائيل أ.ت) إذ قامت

على انقاض قرية يهودية سميت بيت دالي وما زالت انقاض كنيس قائمة على بعد خمس كيلو مترات جنوبي القرية تشهد باسم الله والتوراة أن اليهود هم أول من استوطن التلال السبع لأن الله قدم ستا منها لشعبه المختار وارتاح في اليوم السابع..» (ص32)

وبهذا الأسلوب الهزلي اللاذع يصور سلمان في قصته «الحنتريش ضيف المستر بروكر» ممارسات الانتداب البريطاني في القرى العربية وتأجيجه الصراعات بين العائلات المالكة..

وفي مقدمة هذه القصة يهزأ الكاتب بالنظرة الطبقية الإستعلائية فيبدو سخفها وضحالتها من وصفه التالي:

«القرية الواقعة في بلاد العجم.. كان يسكنها خمس عائلات كبيرة وعشرون عائلة صغيرة.. عشر منها طفيلية أو متطفلة او في «ظل الحيط الواقع» وخمس منها «دايرة على السترة» وواحدة بيت ذكاء.. وواحدة بيت شجاعة.. وواحدة من اللاجئين.. وواحدة «فراطة أو حنتريش» والأخيرة اشتهرت بالمشاغبة والهمالة».

وبعد أن يذكر أن العائلة الأولى اشترت «بابور» طحين.. واشترت الثانية معصرة زيت يبرز أن حاكم اللواء (البريطاني) هنا العائلتين و«شرفهم» بزيارته.. ويكتب أن «بابور» الطحين احترق.. وعلى الأثر هدم شباب عائلة «البابور» المعصرة. ويستطرد «وفار الدم واشتعلت النار والبوليس طوق القرية المجاورة.. وحاولوا أن يصلحوا ذات البين بين العائلتين لكنهم تلقوا أوامر من الحاكم بأن يتدخلوا حتى يحضر.. ولما حضر كان الدم يجري مثل «المي».. وأمر الحاكم بإبعاد العائلتين».

ثم يصل إلى درجة عالية من الهزء بنظام المخترة فيكتب: «وفعلا بقيت ثلاث عائلات كبيرة، ومن كل عائلة عينوا مختارا، مختار عينه أهل البلد، ومختار عينه الإنجليز ومختار عين نفسه بنفسه»(ص42).

الحقيقة أن تلخيص فكرة هذه القصة أو تلك من المجموعة قد يترك الانطباع بأنها تقريرية ولكن مثل هذا الانطباع خاطئ.. فجمالية أكثر هذه القصص هي في جذورها الاجتماعية العميقة وفي أسلوبها الساخر الذي يشحن المعاني بشحنة من التعاطف مع الناس الطيبين من ناحية ويشحنه من «الاستخفاف» من السادة أو الحكام المتغطرسين.

ثم إن اكثر هذه القصص تتداخل فيها الصور الحياتية بشكل عضوي بحيث تصبح قطاعات واسعة من المجتمع العربي في تعامله مع السلطة.. ففي «الخنتريش..» هناك «القواريط» أو المخبرين الذين يتباهون «بمكانتهم» لدى بروكر وأمثاله.. ولكنهم في نظر بروكر لا يكسبون كرامة أو شرف.. اقرأ كيف يرسم سلمان هذه الحالة بسخرية مزدوجة:

«والمستر بروكر كان يحب «الخنتريشيين».. أو يستلطفهم. لكنه لم يزر أحدا منهم حفظا على جلالته عز وجل، ولكي لا يفتح عليه أبوابا مغلقة أو - حاشا وكلا - كي لا يدنس طهارة تاج جورج الخامس». (ص44)

ويتعامل سلمان في هذه المجموعة - وهو في هذا المنحى يشارك غيره من الأدباء العرب في إسرائيل - مع الشعب العربي الفلسطيني لا مع قطاعه «الإسرائيلي» فقط.. وقد ازدادت هذه الظاهرة عمقا بعد احتلال إسرائيل الضفة والقطاع في حزيران عام 1967.

وهكذا يصور الكاتب مسح قرية «أم الزينات» العربية في حرب 1948.. ويرسم لوحة مثيرة تصور الصراع بين أولئك الذين يريدون مهادنة المحتلين

في الضفة وأولئك الذين يقاومون المحتلين.

وفي الحالتين تكتسب السخرية غضبا تنبض به خلال الوصف المأساوي.. ففي القصة الثالثة بعنوان «تساقط الغبار من سقف الجامع» (ص49) يصف الكاتب صمود إمام الجامع في جامعه وتحديه الضابط حتى بصق في وجهه ثم يكتب:

«وحرث البلدوزر الجامع واختفى الشيخ بعد وجبة «العشاء».. وهكذا في بلاد العجم تصبح نبوءة الراب يحزقيل ابو دبوس غبارا يتساقط من سقف الجامع، وامرأة تحمل أعرابيا ولد على شفرة البلدوزر في المرة الأولى.. وولد في لهب النابالم في المرة الأخيرة.. والمؤرخ العربي يذكر أنه ما دام على الأرض امرأة تحبل فسيظل على الأرض أيضا من يبصق في وجه الضابط..» (ص50)

وفي القصة التي تحمل عنوان «بشير مسلم الجبعي» يخف اللون الساخر لأن سلمان يتعامل مع الناس الطيبين الذين يحبهم أشد الحب.. وهو في هذه القصة ينجح في التقاط مناخ مأساة اللاجئين.. ويجسمها في المرأة (ام حكمت وبشير) التي تلد بكرها حكمت وهي في طريقها من جبع إلى المنفى.. (نابلس)

وهنا أيضا لا ينسى الكاتب، ولو «بضربة فرشاة» كما يقولون أن يلمح الى دور المتآمرين الإنجليز مع الصهيونية فيكتب: «نزحوا عنها (عن جبع القريبة من عتليت) بعدما وصلتهم خبرية بأن «اليهود» سيدخلون القرية في ساعات الليل ويذبحون أهاليها.. والخبرية أوصلها شاب حيفاوي كان شاويشا في شرطة الانتداب ويحرس بيت مستر شنيلر مأمور الأحراش». (ص54)

بداهة أن لا تكون قصص هذه المجموعة على مستوى واحد من حسن الأداء.. ورشاقة التعابير.. ودرامية التركيب.. ولكنها نمت أو ولدت كلها في رحم واحد هو التزامها.

وهكذا مثلا لم تصل «حائط الدرج النازل إلى مراحيض الرجال» وهي لوحة تتهكم على المرائين الذين يعيبون على عمال الضفة أنهم يبيعون عضلاتهم للخواجة من ناحية.. ولكنهم يسلخون جلد الوطنيين حين يدعونهم للدفاع عنهم في المحاكم.. لم تصل هذه القصة إلى مستوى «إعادة نظر في شقوق الوجه الفلسطيني وهي ترسم بعطف بالغ الشيخ أبو محمد من مخيم جنين في طريقه إلى أرضه في إسرائيل، خربة «أبو حرب».. لقد خرجت من مداد قلمه حجا مقدسا يصطدم عند نهايته بمعنى الممارسة الصهيونية التي تجسدت في هدم مئات القرى العربية بعد تشريد أهلها.

وهكذا يصور سلمان هذه اللحظة «رفض الشرطي أن يسمح لأبي محمد بالدخول مع حماره - كان بحاجة إلى لغة خاصة ليقنع الحمار بأن يتفاوض مع الشرطي.. فمشى على الرصيف.. اصطدم بحاجز حديدي.. لم يمت.. بحث عن حاجز آخر ليصطدم به ويموت.. كان الظلام قد خيم على الأرض.. ولفه مثلما لف شجرات السرو المنتصبة منذ عام التشريد.. لم ييأس فقد أبلغ أهل بيته أنه إذا تأخر فهو موجود «في خربة أبو حرب».

ومن مميزات كثير من النتاج الأدبي في إسرائيل - وهذا يمنحه هويته المحددة - أنه يتمحور في إطار الواقع ولهذا فمن شخوص قصصه وأشعاره أبناء الشعب الآخر، الشعب الإسرائيلي (اليهودي) وبعض هؤلاء يمثلون السلطة بكل وحشيتها وغطرستها النامية في تربة سياسة الاضطهاد القومي.. والبعض الآخر من الناس العاديين الذين يتباينون من حيث

تحركهم في مجتمعهم الخاص وعلاقاتهم مع هذه الوحدة أو تلك من وحدات المجتمع العربي.

ولعل سلمان ناطور انفرد في كتابه قصتين «إسرائيليتين» بمعنى أن شخوص هاتين القصتين من أبناء الشعب الآخر.

الأولى «شارات في الطريق إلى غويانا» وهي من وحي الانتحار الجماعي في غويانا ، وتتألف من حوار داخلي يعصف بأرملة تفقد زوجها الجندي الذي سقط في «الدفرسوار».. والثانية «إجازة» وترسم أحد ممثلي الاحتلال العسكري الإسرائيلي في صلفه ورعونته حتى في إطاره العائلي.

وهكذا فالقصة الأولى تتمحور حول بطلة إيجابية تتمزق.. والقصة الثانية تتمحور حول بطل لا يستطيع صلفه وتجبره في إطار عائلته أن يخفي عصبيته التي يسببها الاحتلال وما يواكبه من مقاومة شعبية.

ملاحظة أخيرة: يتأوه عدد من المتأدبين لأن الأدب العربي في إسرائيل واجه العسف والإرهاق ولهذا أجهض تطوره ونموه.. هؤلاء المتأوهون ومعهم النقاد الذين ينطلقون من منطلقاتهم يشيرون إلى أولئك الأدباء الذين إرهبتهم السلطة فخنعوا لها بطريقين: طريق الغيبية والرمزية.. وطريق الإنعزالية عن قضايا الشعب.. أما الأدباء الذين التزموا نتاجهم بقضايا شعبهم واستوحوا الأنسانية في اوسع مفاهيمها فزادهم الإرهاب مضاء وشحن إنتاجهم بزخم ثوري مبدع.

ولذلك يقوم النقاد في العالم العربي نتاج هؤلاء تقويما كبيرا ويضعونه في مراتب عالية.

وسلمان ينتمي إلى هؤلاء الأدباء الثوريين.

ومجموعته الأخيرة هي مؤشر على ممكناته الادبية وقدراته على العطاء المثمر.. ولعله سيجد في الرواية متسعا أقرب لآفاقه وطاقاته فبعض هذه القصص وبالتحديد «مجنون يا خواجة» و«الحنتريش ضيف المستر بروكر» تحتوي على مقومات الرواية.

الدكتور إميل توما

حيفا - أيار 1979

«وما نسينا»

حتى لا ننسى ولكي نكافح

مقدمة الكتاب بقلم: د. إميل توما

ماذا ارادت هيئة تحرير «الجديد» حين نشرت حلقات الكاتب سلمان ناطور: «وما نسينا..»

أرادت أولا أن تزود الجيل الطالع بحقائق تكاد تكون منسية، وقعت في حرب فلسطين في العام 1948..

وهدفت ثانيا إلى تصوير معالم تعامل القيادة الصهيونية المقررة مع جماهير الشعب الفلسطيني في تلك الأيام.. وما بعدها، وبديهي ان تؤدي هذه الحلقات المسلسلة، التي جمعها صاحبها لتصدر في هذا الكتاب دورها وتتكشف إمام القراء الممارسة الصهيونية الصادرة عن أيديولوجية الصهيونية السائدة..

ولعل الأمر الجوهري الذي يتضح من هذه الحلقات ان القادة الصهيونيين الذين تحولوا إلى حكام إسرائيل وأداروا دفة المعارك في حرب فلسطين وضعوا نصب أعينهم «تطهير» دولتهم من جماهير الشعب العربي الفلسطيني ولذلك اقترفوا المجازر في مختلف أنحاء البلاد لتفر تلك الجماهير مذعورة من وطنها.. وحين لم تنفع هذه الأداة الوحشية في بعض القرى أو البلدات طردوا أكثرية السكان بالعنف وبالتهديد المسلح..

وتبرهن هذه الحلقات أن مذبحة دير ياسين لم تكن حادثا شاذا، حتى ولو أنها ذاعت في البلاد وخارجها كأنها كذلك، بل كانت جزءا من

ممارسة مدروسة تكررت على نطاق أضيق وأوسع في البلدات والقرى العربية بدءا من الجنوب حتى الشمال..

وعلى هذا الضوء كان تنديد قيادة الصهيونية في الوكالة اليهودية بمذبحة دير ياسين ذر رماد في العيون مثلما كان الحديث عن طهارة سلاح الجيش الإسرائيلي..

وهذا الواقع يظهر في بداية الحلقة الأولى، «البروة، ميعار، معلول، أم الزينات، عين غزال، جبع، صفورية، إجزم وعشرات وعشرات من هذه القرى الممسوحة، تظل ملامحها بارزة تتحرك، تنطق تصرخ في تجاعيد ذلك الوجه الذي شققته أيام السفر - «السفر برلك..»

وتشتد وضوحا خطوط الصورة المأساوية، حلقة بعد حلقة.. وتظهر حقائق المذابح والتشريد.. ومعها تظهر خطة «مجازر» البلدات والقرى العربية.

وعبر وصف هذه العملية، التي هدفت إلى إجتثاث شعب بأسره من وطنه، من أرضه من بيوته يتعمق المعنى الحياتي للأرقام المعروفة حول «تطهير» البلاد من العرب والإستيلاء على بلداتهم وقراهم، ومدنهم وبيوتهم..

ومن هذه الأرقام ما نشرته الإحصاءات الرسمية أن القيّم على أملاك «الغائبين» (أي العرب المشردين أ.ت) استولى على أملاك ريفية في 350 قرية متروكة (أي طرد اهلها ومسحت) أو نصف متروكة بأراضيها وتبلغ مساحتها 3.25 مليون دونم بما فيها 80.000 دونم بيارات برتقال و300.300 دونم بساتين فواكه، و25.416 مبنى يشمل على 57.497 شقة و10.727 مشغل ومركز صناعي ومصنع..

ومن هذه الأرقام ما ذكره «دون بيرتس» في كتابه «إسرائيل وعرب فلسطين»: هناك 350 مستوطنة (يهودية) أقيمت على أراضي الغائبين بين 1947 واوائل 1952، وفي سنة 1954 كان أكثر من ثلث السكان اليهود وثلث المهاجرين إلى إسرائيل أيضا (أي 350.000) يعيشون على أراضي الغائبين العرب. (اعتمد الكاتب معلومات جاءت في نشرة القيّم على أملاك الغائبين بتاريخ 16 كانون الثاني 1953 - «جروزلم بوست» و«هآرتس» 18/1/1953).

ويترسخ في ذهن القارئ مدلول تخفيف عدد السكان العرب الذي كان من المفروض أن يبقى في دولة إسرائيل من 800 ألف مواطن إلى أقل من 150 ألف مواطن صمدوا في وطنهم على الرغم من عاصفة التشريد السادي..

وفي الوقت نفسه تنتصب في خياله الكارثة التي حلت بالشعب العربي الفلسطيني الذي انتقل من بيوته العامرة إلى حد ما إلى الخيام الممزقة، ومن حياة الإستقرار الاجتماعي إلى حياة التشرد..

والسؤال الثاني: ما هي أهمية هذا الإنتاج الفكري الأدبي؟

لم ترغب هيئة تحرير «الجديد» في تعذيب الجيل الطالع في إسرائيل ببعث ملامح نكبة شعبه العربي الفلسطيني لمجرد التعذيب المرضي.. إنما أرادت أن توحي بالأخطار المحدقة بالجماهير العربية في إسرائيل وبالشعب العربي الفلسطيني عامة.

ومع أنها ارتأت هذه الأخطار فكريا إلا أنها لم ترتئي بدقة علمية معالمها أو تطوراتها اللاحقة.

ولكن الأحداث سابقت هذه الحلقات التي تمحورت حول أحداث حرب فلسطين العام 1948 ، مع أنه أشار إلى تلك التطورات..

ولكنه لو أراد ذلك ووصل إلى العام 1956 ، حين اقترفت سلطات «الإمن» الإسرائيلية مجزرة كفر قاسم لوجد صعوبة جدية.. ففي سنوات الخمسين والستين ارتكبت سلطات «أمن إسرائيل» - فكل ما يجري في منطقتنا يجري «دفاعا عن أمن إسرائيل»! مجازر رهيبة امتدت في قطاع غزة حتى السموع في الأردن آنذاك وعبرت على محطات قبية ونحالين وغيرها.

وحتى لو اجتاز هذه الفترات الزمنية ورصد أحداثها لما كان في وسعه أن يصل بسرعة إلى هذه الأيام. أو أن يصور حرب الإبادة التي شنها حكام إسرائيل على الشعب العربي الفلسطيني وبخاصة منذ غزو جنوب لبنان في العام 1982 التي أرادها أولئك الحكام أن تكون القاضية أو «الحل النهائي» لقضية الشعب العربي الفلسطيني.

وفي أثناء هذه الحرب وبحماية المدافع والدبابات الإسرائيلية وقعت المجازر الرهيبة في صبرا وشاتيلا وسقط خلالها مئات الفلسطينيين.

وعلى هذا الضوء لم يعد من الممكن رؤية حلقات «ما نسينا» ماضيا شاذا وقعت أحداثه في حمى آتون المعركة.. بل فصلا مرعبا يواصل حكام إسرائيل كتابة فصوله اللاحقة بالحديد والنار تمشيا مع مقولة الصهيونية : بالنار والدماء سقطت يهودا (أي دولة العبرانيين القديمة التي أقامها داود وسليمان أ.ت) وبالنار والدماء تبعث دولة إسرائيل الحديثة من جديد..

ولذلك فهدف هذه الحلقات ليس تعذيب أبناء الشعب العربي الفلسطيني في هذه البلاد أو تمزيق نسيج مشاعرهم بل استنفارهم إلى الكفاح حتى

لا يستمر نزيف الدماء.. وحتى تتوقف ممارسة القيادة الصهيونية في سياسة المجازر والمذابح والإبادة وتعترف بوجود الشعب العربي الفلسطيني وبحقوقه القومية.

حول الأسلوب

هناك محافل واسعة بين الشعب العربي الفلسطيني في أماكن تواجده كافة تعتقد أن من الضروري توثيق مجريات حرب فلسطين العام 1948 والمذابح التي اقترفتها القوات الإسرائيلية في المناطق التي استولت عليها..

وفي رأينا أن مثل هذا التوثيق هام جدا.

ولكن الكاتب سلمان ناطور لم يهدف إلى القيام بذلك بالضبط. وجاءت حلقاته تعتمد على شهود العيان من ناحية والأسلوب الأدبي الساخر من ناحية ثانية.

وفي رأينا أن من حق الكاتب أن يختار أسلوبه وينطلق من رؤياه الفنية وحسه بجمالية العمل الأدبي حتى في موضوع مأساوي مثل هذا الموضوع.

ويسأل بعض الإخوان هل يمكن أن يتوافق الأسلوب الساخر مع المواضيع المأساوية؟

في يوم من الأيام قالت العرب: وشر البلية ما يضحك.. ومن الممكن مع هذا الاعتقاد بأن هذا المثل لا ينسحب على هذا الموضوع.. ولكن من يقرأ هذه الحلقات يقتنع أن هذا الأسلوب الساخر يستنفر حقدا أشد، وغضبا أعنف على السفاحين لأن الضحايا هم الذين يسخرون منهم

وبذلك يتجاوزون عاصفة الألم التي اجتاحتهم وتجتاحهم، وبتهكمهم على الجزارين يظهرون عقم وحشيتهم التي لم تحل شيئا بل أوقعتهم بحلقة نزيف الدم المفرغة.

ولا بد هنا من أن نلاحظ أمرين في هذه الحلقات: الأول بعدها عن توليد التعصب القومي العنصري فالمجرمون يمثلون حكما عنصريا لا الشعب بأسره.

والثاني إشارتها إلى دور القيادة الفلسطينية التقليدية التي ضللت الجماهير واعتمدت التهويش، وفي هذا الصدد نجح الكاتب حين أورد على لسان أحد أبطاله ساخرا الأغنية التي شاعت في فلسطين الانتداب: «بلفور خبر دولتك، لندن مربط خيلنا».

الأهمية العالمية

كتب الصحفي المتنور بوعاز عفرون مؤخرا مقالا في مجلة «عيتون 77» يعالج استخدام حكام إسرائيل موضوع الكارثة (إبادة اليهود أيام الحرب العالمية الثانية) للدعاية واستنتج أن هذا أضر بالشعب اليهودي وبدولة إسرائيل.

وفسر رأيه فكتب أن اليهود لم يكونوا الضحية الوحيدة للنازية.. فالنازيون أبادوا ملايين السلافيين بينهم ثلاثة ملايين بولوني وملايين لا يعرف عددها من الروس وهذا بالإضافة إلى إبادة النّوَر. ولهذا على الرغم من أن مصير اليهود كان مريعا فهو لم يكن فريدا..

واستطرد الكاتب عفرون فأشار إلى أن التأكيد على فرادة الكارثة تشجع بعض اليهود الذين يجدون أنفسهم في مركز القوة أن يتعاملوا مع غير اليهود وكأنهم «مختلفون» وأنهم أدنى من الإنسان! وبذلك يمارسون

سلوك أاولئك الذين أنزلوا بهم الضربات..

ويعتبر الكاتب أن المسؤولين (الصهيونيين) استخدموا شعور قادة الغرب بالذنب لأنهم لم يدافعوا عن اليهود لإبتزاز أخلاقي تحول إلى فوائد مالية وتأييد سياسي.

والواقع أن رصيد الإبتزاز الأخلاقي الذي مارسته القيادة الصهيونية ومن بينها حكام إسرائيل في سبيل التغطية على حرب الإبادة التي تشنها على الشعب العربي الفلسطيني يتضاءل باستمرار.. ولم يعد من حكام إسرائيل العدوانية الوحشية بالتلويح باللاسامية وبالكارثة إن هم انتقدوا تلك السياسة..

وهذا ما أظهرته ملابسات العدوان البهيمي على لبنان للقضاء على المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ولتصفية ما يمكن تصفيته من اللاجئين الفلسطينيين.

ومن هنا كان شرح تفاصيل المجازر التي تمتد آثارها من فترة الانتداب، عبر حرب فلسطين العام 48، حتى حرب لبنان الاخيرة على غاية من الأهمية في سبيل تبديد رصيد الصهيونية في «الإبتزاز الاخلاقي».. فبذلك تنشأ الظروف لإحباط مطامع الصهيونية التوسعية وتحقيق السلام العادل القائم على احترام حقوق الشعب العربي الفلسطيني كاملة وحقوق الشعب الإسرائيلي في دولته إسرائيل.

د. ميل توما

رئيس تحرير «الجديد»

آراء ودراسات في الفكر والفلسفة

مقدمة الكتاب: بقلم الأب إلياس شقور

«أيها الإنسان اعرف من أنت»

لقد قرأت كتاب صديقي السيد سلمان ناطور وتمعّنت بفقراته المختلفة فوجدت فيه انطلاقة إلى الأمام. لقد آن لشبابنا أن يسألوا ويتساءلوا: من نحن؟ فالثورة التي يدعو إليها الكاتب ورغبته في خلق كل شيء جديد، تشيران إلى أن بين كتّابنا العرب في إسرائيل من يجوع إلى غير الخبز، ويتغنّى بغير الغرام والخيال.

محاولة الكاتب عبرة لمثقفينا، ونداء للمفكرين فيما بيننا إن «هلمّوا وأعطوا ما ارتشفتم من العلم لذويكم، فليس الحكيم من لا يغلط بل إنه من إذا غلط أصلح. فالإنسان الذي لا يحاول.. لا يثمر، ومن لا يثمر.. لا طائلة منه.»

إن على من يريد الإستفادة من الصفحات التالية أن يقرأ أيضا ما لم يكتب وأن ينظر وراء الكلمات إلى الوحي والتعبير عن حقيقتنا في هذا المجتمع المتقدم باستمرار: فأين نحن من قافلة العلم؟ أين نحن من ثقافة القرن العشرين؟ هل تعلمنا أن نغلق الجفون كي نرى الحقائق الحقّة بطيبها لتزيده طيبا وبعلقمها لنزيله؟

رأيت في محاولة السيد سلمان ناطور خطوة إيجابية تفتح بابا جديدا إلى فردوس لم يلجه إلا االقلة من شبابنا ومثقفينا.

الآراء الاجتماعية في هذا الكتاب بحاجة إلى توسع وإسهاب لتكون على مستوى من لا إلمام له بهذا الحقل - الكاتب لم يقل الكلمة الأخيرة

إذ ترك للقارئ وأوحى له أن يخطو إلى الأمام بنفسه وخبرته الشخصية.

إن هذا الكتاب هو تعبير عن ثقافة وفلسفة معينة من شتى النواحي الاجتماعية والدينية والثقافية، وذلك لأن الكاتب يرافقنا في خبرته الخاصة الآخذة في التبلور، ولا يتبنى موقفنا ولا يجعلنا نتبنى موقفه. بل يوحي إلينا بحقيقة بسيطة قلّما أدركناها وهي تحليل حاضرنا باعتبار ماضينا وبالتخطيط الواهي لمستقبلنا. إذ أن الخيال الذي يمتاز به الكثير من أدبائنا وشعرائنا يبني صروحا لا شك كبيرة، ولكنها تبقى من الخيال وإلى الخيال.

فلسفة: وقد أسهب الكاتب في تفسيرها، وفي التعبير والافصاح عما وقف عليه، في خبرته الشخصية، من محيط الفلسفة الواسع الأطراف. هنالك ما نوافق عليه من الأفكار والاستنتاجات الفلسفية، وغيرها ما نحترمها لأننا نحترم رأي كل إنسان ونسمح لغيرنا ما نسمح به لأنفسنا. ويحق لغيرنا التعبير عن خبرته في التفتيش عن الحقيقة كما يحق لكل إنسان ولنا أيضا.

إن المبادئ الفلسفية في هذا الكتاب تتحدى الكثير من الأفكار والآراء التي عشنا منها وفيها، وفي هذا التحدي قيمة هذه الأفكار لأنها تحدث احتكاكا وفي الاحتكاك الحرارة والحرارة علامة الحياة.

اجتماع: إن الاجتماعيات في هذا الكتاب - إن كنت على حق - تعبر عن خبرة للكاتب قيّمة جدا وقد كرم منها وحلل المزيد من ظواهرها، ولا شك في أنه صادق فيما يقول، إذ أنه يدرس الأمور من خلال خبرته وفي مجتمعه وعلى هذا أتى تعبيره الديني الاجتماعي تعبيرا محددا بالخبرة الاجتماعية وبخبرة البيئة من ناحية، وعوامل التأثير الجامعية الجامعة.

مَن مِن طلابنا في الجامعات لا يمر في مرحلة حرجة جدا يضع فيها كل القيم الاجتماعية والدينية والتقليدية في مختبر وعلى محك خبرته الشخصية النامية؟ - إن هذه الخطوة لمباركة وفيها مثل طلائعي في النقد الذاتي المجدي فالكاتب لم يسأل بتاتا، لا مباشرة ولا غير مباشرة، عن الكمية ولكنه سأل ويسأل عن الكيفية؟ لا يهمه العَدد ولكنه يطلب العِدَد الروحية والاجتماعية، تهمه الكيفية والجوهر، لا الإحصائيات. إنها ينادي ضمائرنا أن تستفيق فتيساءل كل منا: من أنا؟ من أنا شخصيا ومن أنا اجتماعيا ومن أنا دينيا؟ شخصا فردا كنت أم شخصا معنويا.

أما في مجال علم النفس فقد لمست - بفضل معلوماتي المحدودة جدا - أن للكاتب إلماما بعديد من العلماء المعاصرين والغابرين ولو أنه لم يكثر في الإستشهاد بهم مباشرة، أنه أراد أن يعبّر عما اختلج ويختلج فؤاده بعد مرافقهم طوال سني الدراسة الجامعية خلال كتبهم العديدة والمتعددة. وهكذا يمكننا أن نقول عن الكاتب - ولو أنه ما زال في طور الدراسة - يمكننا أن نقول عنه: قل لي من ترافق أقول لك من أنت.

فإلى الأمام باستمرار وإلى التقدم، هذا ما نتمناه للكاتب المشرق في افق مجتمعنا. ونأمل أن يصعد بالعلم ويصعد به العلم إلى أوجه فيرى الناس النور، ويرى شبابنا أن العمل ممكن والتفكير شرط أساسي للعمل الصحيح الناجع، فيتساءلون هم أيضا بدورهم هذه الاسئلة الكامنة بين كلمات الكاتب الشاب:

من أنا؟

من أين أتيت؟

أين أنا موجود؟

وإلى أين انا سائر؟ وما هو المصير؟

وإذ اشكر الكاتب الصديق سلمان ناطور على ثقته التي أولانيها بقراءة مخطوطه. أطلب له بساطة مستمرة في التعبير وعمقا في التحليل، وإيمانا في النجاح وصبرًا في المسير ومستقبلا قوامه النور والعلم والعمل المستمر.

أبو العبد يغازل مدام مندلوفيتش في قلعة زئيف

مقدمة الكتاب بقلم: عز الدين المناصرة

هذا النوع من الكتابة السياسية...؟

هذه الرصاصة الباسمة..؟

... إميل حبيبي - محمد نفاع - محمد علي طه - سلمان ناطور - ناجي العلي - دريد لحام ونهاد قلعي - الشيخ امام وأحمد فؤاد نجم، زياد الرحباني وجان شمعون.... وغيرهم من الأسماء في العالم العربي، يشيرون بشكل او بآخر إلى حالة التفسخ، حالة ملوك الطوائف، وهي حالة تستوعب الواقع بفهمها العميق ولكنها تعبر عن الواقع بلغة ما فوق الواقع وهي حالة سوريالية وعبثية نقدية إيجابية، بعكس السوريالية العبثية العدمية التي تشتم العالم وهي قابعة في حجرها، أنها من نوع سوريالية لويس أراغون في ثوريتها.

هذه الأسماء تكتب، ترسم، تعتلي خشبة المسرح، تغني وهي في حالة استرخاء نادرة، لحظة صفاء حين يتمدد المقاتل ليصوب إلى الهدف بهدوء. وهذه الحالة تحدث حين يكون الفنان مجربا مليئا بالجراح. حين يرى

الفنان السمكة هي طائرة وأن الماء هو دم وأن مكة المكرمة «تجاهد» بدم نفطها لاسترجاع القدس! وحين يقنعك الحاكم أنه قام بانقلابه ضد الحاكم الذي سقط عرشه، من أجل فلسطين ولسواد عيون فلسطين. وفي هذا العصر أصبحت الجماهير العربية سباقة في تحليل المواقف، ترى «الأصح» قبل حكامها. احيانا يحاول الحاكم أن يستوعب هذه الحالة النادرة من النقد الساخر ليوظفها لصالحه، ليوحي أنه مع حرية التعبير، مع النقد.. ولكن متى يكون الحاكم هكذا؟ عندما تكون الحالة قد وصلت للجماهير ولم يعد بيديه شيئا، لم يعد يملك كبح جماحها، وهكذا يختلط «الحابل بالنابل» كما عبر عن ذلك برنامج إذاعي خلال الحرب في لبنان (زياد الرحباني وجان شمعون).

الضحك بمرارة، الصراخ الساخر، الطلقة الضاحكة، عناوين لمرحلة جديدة من مراحل انتقال العالم العربي من الركود إلى الحركة.

«الجاحظ.. والبخلاء» - «مقامات الهمداني» - «مقامات الحريري»، أشكال بدائية ومواضيع سطحية تبحث عن استاتيكية اللغة القاموسية وتضحك على الفقراء، وفي مطلع القرن حاول المويلحي تقليد السلف ضمن نفس النظرة، مارون عبود كان بداية والمازني كذلك، ولكن الأدب الشعبي الفلسطيني والعربي حاول المحاولة بنجاح. «جحا» وقصصه مثل التصريحات الأمريكية بالنسبة لقضية الشرق الأوسط ترضي إسرائيل وترضي عرب النفط، ويفسرونها كما يرغبون.

النكات الشعبية المصرية والخليلية والحمصية والبيروتية كانت أكثر خيالا وخصبا وجرأة، ولكن القوى المسيطرة غالبا ما توظفها بسرعة لصالحها.

ولهذا ظهرت رواية «سعيد ابي النحس المتشائل» و«لكع بن لكع» لإميل حبيبي.

ولهذا ظهرت رواية «سعيد أبي النحس المتشائل» وناطور.

ولهذا ظهر كاريكاتور ناجي العلي - طلقة الغضب الباسمة، شوكة الحزن الراقصة، فلسطيني في السجن العربي يضحك ويصرخ معا.

*****

سلمان ناطور - كاتب فلسطيني ولد في «دالية الكرمل» في جبال الكرمل بفلسطين عام 1949 ، له رواية «أنت القاتل يا شيخ»، يدين فيها الزعامة الدرزية التقليدية التي تعاونت مع جهاز السلطة الإسرائيلية بعد العام 1948 وله مجموعة قصص بعنوان «الشجرة التي تمتد جذورها إلى صدري»، رفض الخدمة الإجبارية في الجيش الإسرائيلي باعتباره درزيًا، شيوعي مناضل. وما زال يعيش في قرية «دالية الكرمل» ويعمل في مجلة «الجديد» التي تصدر في حيفا.

في روايته ومجموعته القصصية برز أسلوبه الساخر الذي يدين فيه - الزعامة التقليدية المتعاونة مع السلطة الإسرائيلية، يدين العشائرية والحمائلية التي تحاول إسرائيل إبرازها، استمرارًا لسياسة «فرّق.. تسُد» البريطانية، واضافت لها سياسة «حلف الدم» الصهيونية لتُحكم سيطرتها على الدروز العرب في فلسطين. وسلمان ناطور يدين الصهيونية ونظامها والطائفية. ويصور حالة العرب في «إسرائيل» على أنها «جهنم التي على الأرض» في ظل حكومة بيغن «الكراكوزية» ويشير أيضا إلى أن البديل «حكومة العمل» لن تكون أفضل حالا فكلهم يرفضون الدولة الفلسطينية المستقلة والحقوق الفلسطينية والعودة لشعبنا إلى وطنه. ويبدو أن أسلوب سلمان ناطور الساخر قد ساهم في تقريب «الكتابة السياسية الصحفية» إلى القارئ العربي في الجليل والكرمل والمثلث والنقب. وهذا يطرح مسألة في غاية الأهمية إلا وهي، أسلوب ولغة الكتابة السياسية

العربية في الوطن العربي.. كيف يجب أن تكون وكيف كانت وكيف هي الآن؟؟!!.

«الكتابة السياسية الوطنية والثورية» في العالم العربي ما زالت قاصرة عن الوصول إلى الجماهير بسبب لغتها الاستعلائية، حيث يتبارى كتاب افتتاحيات الصحف والمجلات في استخدام «لغة غير دقيقة، حماسية، نمطية، نصوصية» لا تحترم وعي القارئ ولا تطرح تساؤلات ولا تدفع إلى الحماس، هي حماسية لنفسها ولذاتها، طبعا نحن نأخذ بالحساب نسبة الأميّة المرتفعة جدًا جدًا في صفوف شعوبنا العربية، ولكن هذه اللغة السياسية الوطنية تظل لغة «مثقفين» لغة ما فوق الواقع في تراصها القاموسي وتتابع أفكارها وبناءها العقلي الجامد الذي يعتمد الكليشيهات والاصطلاحات القاموسية غير المجسدة لدى القارئ العربي.

صحيح أن الإعلام العربي هو إعلام غرائزي بدوي، ولكن الصحيح أن هذا الإعلام من حيث لغته غير قادر حتى على اقناع غرائز هذه الجماهير البدوية بسبب جموده اللغوي في حين أن الصحافة البرجوازية يزداد فتكها بالجماهير البسيطة بسبب قدرتها الفائقة على استعمال الشكل واللغة المناسبة، ومن هنا يزداد خطرها.. وفي ذات الوقت تزداد المسؤولية على عاتق الكتاب السياسيين الوطنيين والثوريين، وعلى عاتق الصحافة الوطنية والثورية. وأعتقد أن الممارسة الثورية مع الجماهير هي التي تساهم في فهم لغة مخاطبتها. سأطرح مثلا - صحيفة «الاتحاد» التي تصدر في حيفا كمثل ناجح في الوصول إلى الجماهير العربية في «إسرائيل».

****

هذا النوع من الكتابة السياسية.. هذه الطلقة الباسمة التي يطلقها الكاتب على عدوه - بهدوء أعصاب دون ضجيج، هي إحدى أنواع

الكتابة الناجحة، سمها ما شئت - خاطرة أدبية - قصة تسجيلية - افتتاحية سياسية، هي في النهاية تؤدي إلى الهدف كوسيلة من وسائل النضال الكتابي من أجل التغيير والثورة.

لن أتدخل في تفاصيل هذه المقطوعات الساخرة في موقفها من الحكم العسكري الاستيطاني الصهيوني، بل سأترك ذلك للقارئ، سأحاول هنا رسم اتجاه السهم في هذه المقطوعات التي تمتلك لغة أدبية بسيطة وعميقة.

تطرح هذه المجموعة عدة قضايا يعيشها العربي في داخل «إسرائيل»:

- وضع حكومة إسرائيل «الكراكوزية» الصهيونية وموقفها العدائي من العرب في إسرائيل الذين هم أصحاب الأرض الأصليين.

- رفض الدروز العرب الخدمة الإجبارية في الجيش الإسرائيلي، ففي عام 1956 تنادى 40 درزيا من الزعامة التقليدية التابعة للسلطة الإسرائيلية ونادوا بضرورة التجنيد الإجباري للدروز في الجيش بإيحاء من الأجهزة الحاكمة، وفي نفس العام 1956 وقع 1600 مواطن عربي درزي على عريضة ضد التجنيد الإجباري، ولكن إسرائيل قمعت صوت الجماهير العربية الدرزية وفرضت التجنيد الإجباري وفي السنوات العشر الأخيرة دخل سجون إسرائيل المئات من رافضي الخدمة الإجبارية.

- الوضع الاقتصادي والإجتماعي المنهار في إسرائيل.

- إسرائيل كدولة عنصرية متحالفة مع أنظمة عنصرية مثل أنظمة بوكاسا وسوموزا وشاه إيران.. وبينوشيت والسادات وعيدي أمين دادا ونمو العسكرتاريا.

- الهجرة اليهودية من أوروبا وأمريكا إلى إسرائيل.
- صحافة وأحزاب السلطة.. وموقفهم من العرب.
- زيارة السادات ومبادرته.. وكامب ديفيد.
- موقف الرجعية العربية -الحقيقي- .. من دولة إسرائيل الصهيونية.
- نمو العمل الوطني الفلسطيني.. بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية. وانحسار النفوذ الإسرائيلي عالميا.
- صورة الزعماء التقليديين من العرب الذين ينتمون لأحزاب السلطة.
- تصورات عن مستقبل العلاقة بين العرب واليهود.
- عداء دولة إسرائيل العنصري وتحريضها ضد الشيوعية والاتحاد السوفييتي.
- لدى العرب في إسرائيل أعلى نسبة من الإنجاب في العالم وهم يعتبرون إنجاب الأطفال إحدى الوسائل النضالية ضد التفرقة العنصرية التي تمارس ضدهم.

كل هذه القضايا طرحت بأسلوب بسيط ساخر، ولعل أجمل المقطوعات الناجحة هي باعتقادي: «ساعة واحدة وألف معسكر» - «بوكاسا» - «الحنتريشو» - «آخر الاخبار الفلسطينية» - «يا.. ياسر عرفات.. أترك لهم كوستاريكا» - «محسن الغضبان» - «أبو العبد يغازل».

هذه المقطوعات وغيرها صبغت بلغة ساخرة، نشم منها رائحة القهر القومي والطبقي، ونشعر بالعنصرية التي تمارسها إسرائيل ضد العرب المقيمين في إسرائيل الذين هم أصحاب الدار والأرض، مفارقات عجيبة، ضاحكة باكية.

نشم رائحة أهلنا ونلبس عذابهم تحت الحكم الإسرائيلي العنصري.

أما التفاصيل، فأتركها للقارئ حتى لا أفسر الماء بالماء.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

